أ. م. فورستر

مجموعة القصص القصيرة

ترجمة

مجد الدين حفني ناصف

مراجعة

علي أدهم

الكتاب: مجموعة القصص القصيرة

الكاتب: أ. م. فورستر

ترجمة : مجد الدين حفني ناصف

مراجعة : علي أدهم

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية " ناشرون"

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فورستر ، أ. م.

مجموعة القصص القصيرة / أ. م. فورستر, ترجمة : مجد الدين حفني ناصف، مراجعة: علي أدهم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٥٠ – ٦٨٣٧– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٥١٤ / ٢٠٢٠

مجموعة القصص القصيرة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تعريف بالكاتب والكتاب

أ. م. فورستر قصصي، كان شديد الانزواء، دوى صيته ، وذاع وملأ الأسماع بعد ما نشر له عدد قليل جداً من الكتب.

ولا عجب، فقصته " رحلة إلى الهند " – على حد قول لووس دكنسن – وكتاب خالد عن الحقيقة التاريخية والحياة التي يسمونها الهند". وفورستر، إلى هذا لم يقدم لنا غير القليل من الروايات القصصية والديباجات وغير كتاب – ملؤه الحكمة والفتنة – عن "مقاومات القصة" وغير بعض رسائل نشرتها له المجلات في شتى المناسبات.

ولعل شخصية فورستر قد أسهمت – أكثر مما أسهم قصصه – في أن جمهوره لايني عن ذكره. وقد يكون عجباً أن ينسى القراء هذا "الكاتب الذي بات رصيداً من أرصدة بريطانيا والذي يوشك أن يصبح مفخرة من مفاخرها".

ولا غرو فهو من المنشئين القليلين الذين يحرص القراء على كتبهم ويستعيدون قراءاتها، لا للمتعة فحسب بل كذلك للحكم المأثورة التي تتدافع على صفحاتها وللفلسفة الإنسانية الرقيقة التي تبين عنها.

وإن قصة "أكم ديفي" التي طبعت في سنة ١٩٥٣ لتصور لنا المنظر الخلفي لكتابة "الطريق إلى الهند".

***

وهذه هي المجموعة الكاملة غير المختصرة من القصص القصيرة الذي نحا به فورستر منحى خاصاً والتي أصدرتها "البنجوين" في سنة ١٩٤٧.

نشر هذا القصص القصيرة جميعه قبل الحرب العالمية الأولى. ثم جمع في كتابين: "الأمنيبوس السماوي" سنة ١٩١١ و "اللحظة السرمدية" سنة ١٩٢٨.

ومع أنه أخصب خيالاً وأكثر سهولة من قصصه الطويل مثل "رحلة غلى الهند" و "هواردز إند" اللتين أصدرتهما "البنجوين" أيضاً فإنه يحوي – إلى ما فيه من تسلية – لمحات من ضروب

البحث العميق. وما قصته "الآلة تقف" في نظر المؤلف إلا كرجع الصدى لإحدى موحيات هـ. ج. ولز الباكرة.

وإن القارئ ليستشف في كثير من قصص هذا الكتاب ثقة مؤلفه الفطرية بقوة الطبيعة. وإنه ليقرأ اللمز الأخاذ في "التقدم" وفي قصة أخرى يبدو منها تقدير المؤلف للأدب الحق، ويدرك – بالإضافة إلى هذا – تجنبه للحوار الاجتماعي التافه، وإيمانه بالقيم الإنسانية التي تكاد تنكرها اليوم جمهرة الناس.

المترجم

مقدمة المؤلف

كتبت هذه الأخيلة في فترات مختلفة سابقة على الحرب العالمية الأولى، وهي كل ما أنجزت من قصص ذي اتجاه معين وطابع تختص به ومنذ ذاك الوقت وقعت أحداث كثيرة: اختلت المواصلات، وعدلت الحدود تعديلات جغرافية ونفسية، وقامت حرب عالمية ثانية، ويجري الإعداد لثالثة، واتخذ الخيال اليوم سبيله إلى أن يتراجع أو أن يئد نفسه أو أن يلجأ إلى الرمز والتخفي رعاية للقنبلة الذرية. ويتسنى لمن يعنيه تلقف الخيال أن يفعل ذلك هاهنا في العراء. إن الخيال يسبح فوق مشاهد أيام العطلة في إيطاليا وانجلترا أو يلحق – وإن أعوزته المسوغات – فوق بلاد المستقبل .. هي أو هو .. لأن الخيال – وإن تأنث أغلب الوقت – يشبه الرجل أحياناً. وقد يقوم أحياناً مقام هرميس"[1]" الذي كان من وظائفه تنفيذ أقل الأوامر الإلهية شأناً: كأن يكون "ساعياً: أو مدرب آلات أو دليل الأرواح إلى آخرة ليست على درجة كبيرة من الرعب.

والقصة الاستهلاكية "قصة الفزع" هي أول ما كتبت من القصص، وما تزال ملابساتها مائلة أمام عيني في وضوح. فبعد أن هبطت من كمبردج – التي عدت إليه تواً – ظللت أتنقل في الخارج نحواً من عام. وأظن أن مايو سنة ١٩٠٢ هو الوقت الذي فيه تمشيت بالقرب من دفلو. جلست في واد يعلو المدينة ببضعة أميال. وفجأة تدفق في ذهني الفصل الأول من القصة كأنما كان ينتظرني هناك. فتلقيته كأنه حقيقة واقعة وسجلته فور بلوغي الفندق ، إلا أنه بدا غير مكتمل. وبعد بضعة أيام زدته حتى أصبح ثلاث أمثال الأصل حسبما نشر الآن. ومن بين هاتين العمليتين كانت الأولى وهي – عملية العكوف على الموضوع وكأنها جلوس على تل للنمل – من الأمور التي قلما تحدث. ووقع لي مثل ذلك في العام التالي في اليونان حيث طالعتني قصة "الطريق من كولوناس" في جوف شجرة خاوية غير بعيدة عن أوليمبيا"[2]". وأعدت

---

(1) هرميس (بن المشتري، أو جوبيتر إله الآلهة عند الرومان). وهرميس هو عطارد (أي مركوري): رسول الآلهة وإله الفصاحة والبلاغة والتجارة والرواج.

(2) جبل في تساليا

الكرة – أو بالأخرى حاولت ذلك مرة ثالثة – في كورنوول"[١]" عند رأس جرنارد. وهنا – على الصورة نفسها تماماً – قابلتني قصة فارتضيتها على أنها عمل فذ، وذلك منذ أتيح لـ "الفزع" و "كولوناس" النش ر والتقدير. وكان موضوعها رجلاً أنقذه بعض الصيادين من الغرق ولم يدر كيف يثيبهم.. ماذا تساوي حياتك؟ خمسة جنيهات؟ خمسة آلاف جنيه؟.. وخلص إلى ألا يعطي شيئاً على الإطلاق وإلى أن يعيش بينهم مقيتاً مرذولاً. ولما ألحت على الفكرة أدخلت يدي في كيس نقودي واستخرجت جنيهاً إنجليزياً ذهباً – وكانت الجنيهات الإنجليزية الذهبية موجودة إذ ذاك – وأدخلته صندوق الإعانة لمؤسسة زوارق النجاة الملكية التي شيدت فوق رأس جرنارد لمثل هذا الموقف. وكان في مقدوري تماماً أن أهب ذاك الجنيه، وكان لزاماً على أن أكسب أمثاله، المرة بعد المرة.. بحر هادئ. صخرة مستوية مغمورة كان على بطل قصتي أن يعلق بها ويترنح. قرية فيها يكون على منقذيه أن يهاجموه..فنقلتها جميعاً ولم أزد على أن أرتجل شخصية امرأة عاقلة جعلتها زوجه. وجعلت "الصخرة" عنوان هذا الهد المنحوس. لقد أخفقت إخفاقاً ذريعاً فإن ناشراً واحداً لم يعرها اهتماماً. لقد كان إلهامي أصيلاً ولكن لا غناء فيه، شأن كل الهام مماثل. ومنذ ذلك الوقت لم ألق بالا بوحي طارئ إطلاقاً.

وفي الواقع أن إحدى قصصي "أطول رحلة" كانت من وحي مكان ما ولكن بطريقة غير مباشرة لا محل لبحثها هنا. ولم تلهمني الأماكن الأصيلة إلهاماً مباشراً إلا مرات ثلاثاً انتزعت مني ثالثتها جنيهاً إنجليزياً ذهباً غير أني أمضي عادة تدفعني أفكاري وذكرياتي أفكاري وذكرياتي أو وحي قلمي. والمناهج المختلفة لا تعقب بالضرورة نتائج متنافرة. وإذا قارن القارئ الفصل الأول من "قصة الرعب" التي تستمد وجودها مباشرة من المكان الذي تصفه – مع الفصلين التاليين اللذين فيهما أخذت أتساءل عما عساه يحدث بعد – فما أخاله يتنبه إلى أن نصف الكرة الأرضية قد قفز إلى الميدان في مظهر جديد. وإن مواهب الكاتب قاطبة – ومنها موهبة التلفيق – لتأتمر مجتمعه على هذا النحو للابتكار. وكثيراً ما تستنبط السهل المطمئن مضيفة كلما هنا وكلمة هناك.

أما القصص الأخرى فلا تقتضي من مؤلفها أكثر من تعليق موجز. وما قصة "الآلة تقف"

---

[١] مقاطعة بجنوب غرب انجلترا

إلا كرجع الصدى لإحدى موحيات هـ. ج. ولز الباكرة. وما "اللحظة السرمدية" — وإن غلب عليها أنها نسيج خالص لله — إلا تأملاً في "كورتينا دامبيزو". أما "بيت القصيد" فلم تصب نجاحاً عندما نشرها أصدقائي آل بلومزيري. وحدث شيء من التساؤل موضوعه: ما هو بيت القصيد؟ فلم أدر كيف أجيب عنه.

وقد جمع قصص أول الأمر كتابان، أطلق على الأول اسم "الأمنيبوس السماوي" وأهدى "إلى ذكرى المجلة المستقلة" **Independent Review** وكانت تلك مجلة شهرية يديرها مجلس تحرير من الأصدقاء الذين شجعوني على أن أبدأ ممارسة الكتابة. وخطط صديق آخر — وهو دوجرفراي–"[١]" غلاف الكتاب وصفحته الأخيرة. أما الكتاب الثاني فقد صدر بعد ذلك بسنوات عديدة، وأسميته "اللحظة السرمدية" وأهديته "إلى ت. أ. لافتقاد ما هو خير من ذلك"، وهذه العبارة ترمز إلى كابتن لورنس"[٢]".

والآن، وقد جمعت القصص كلها بين دفتي كتاب واحد وأخذت تبحر بعيداً إلى دنيا إلى عهد لها بها، هل يحسن إهداؤها من جديد؟ ربما! ربما جاز إهداؤها إلى أحد آلهة العصر الحالي. وإن هرميس مرشد الأرواح إلى العالم الآخر ليقترح نفسه. إنه هو الذي لاح لخاطري في مستهل المقدمة، وإنه ليسعه على أية حال أن يقف في مقدم السفينة ويرقب أمواج البحر المحطمة.

أ. م. فورستر
كمبردج في ١٩٤٧

---

(١) ناقد فني مشهور

(٢) الكابتن لورنس المشهور بمغامراته في بلاد العرب ومؤلف كتاب "أعمدة الحكمة السبعة"

قصة الفزع

- ١ -

استهل يوستيس عمله في الحياة — إن جاز تسميته كذلك — يقينا منذ عصر ذلك اليوم الذي قضاه في غابة القسطل "أبي فروة" التي تعلو رفللو. أنا أعترف من فوري أنني رجل ساذج بسيط لا يدعي أن له أسلوباً أدبياً في كتاباته، ولكني مع ذلك أحمد لنفسي القدرة على سرد قصة غير مبالغ. ولذا قررت أن أبين — في غير انحراف — عن الحوادث غير العادية التي تعاقبت خلال السنوات الثماني التي خلت.

رفللو بقعة بهيجة تحتوي فندقاً صغيراً بهيجاً، لقينا فيه جماعة من الناس الظرفاء. كان هناك: الآنستان روبنسن اللتان وفدتا، منذ ستة أسابيع، مع يوستيس ابن أختهما الذي بلغ إذ ذاك الرابع عشرة تقريباً. وأقام هناك، بعض الوقت كذلك، مستر سانديباتش. وكان هذا يقوم بوظيفة قس في شمال انجلترا واضطره انحراف صحته إلى اعتزالها، ثم أخذ على عاتقه — في أثناء الاستشفاء في رفللو — تربية يوستيس، وكانت ناقصة نقصاً محزناً، جاهداً أن يعده للالتحاق بإحدى المدارس الخاصة الكبرى. وكان هناك أيضاً مستر ليلند الذي كان يطمح إلى أن يكون مفناً"[١]. وأخيراً صاحبة الفندق اللطيفة سنيورا سكافيتي، والنادل "السفرجي" الظريف إيمانيوبلي الذي يتكلم الإنجليزية، وإن تغيب هذا وقتئذ لزيارة والده المريض.

وأجسر على الظن بأني وزوجي وابنتي — عندما انضممنا إلى تلك الدائرة الصغيرة — ظللنا محل ترحاب. وكنت أولى معظم أفراد تلك الجماعة قدراً طيباً من الحب. غير أن اثنين منهم لم أستطع أن اعتاد صحبتهما إطلاقاً، هما ليلند المفن ويوستيس ابن أخت الآنستين روبنسن.

لقد كان ليلند جد مغرور وجد كريه. ولما كانت روايتي ستصور هاتين الخلتين أصدق تصوير لا أرى داعياً للأطناب في شأنهما هنا. أما يوستيس فكان شيئاً آخر فضلاً عن ذلك، فلقد كان منفراً إلى حد لا سبيل إلى وصفه.

[١] "الفنان" في هذا المعنى من الأخطاء الشائعة.

أنا في العادة مولع بالصبية وقد كانت على أتم استعداد لإبداء ودي. فتقدمت – وابنتي – لاستصحابه إلى نزهة خارج الفندق فقال: "كلا فالمشي سخرة كبرى". ثم سألته أن يأتي للاستحمام بالبحر فأجاب: "كلا، فما أستطيع السباحة".

قلت: "ينبغي لكل صبي إنجليزي أن يعرف السباحة، وسألقنك إياها بنفسي"..

وهناك قالت مس روبنسن: "هاك يا عزيزي يوستيس، لقد واتتك فرصة".

فقال إنه يخاف الماء! – صبي يخاف – وبطبيعة الحال لم أزد على ذلك.

ولم أكن لآبه كثيراً لو أنه كان مكباً على الدرس، لكنه لم يكن مجداً لا في اللعب ولا في الدرس، وإنما كان أحب ما يشغله أن يستلقي في الشرفة على كرسي مريح وأن يتلكأ في الطريق العامة يعبث بقدميه في التراب ويحني كتفيه إلى أمام. وكان طبيعياً أن يشحب وجهه وأن ينكمش صدره وألا تنمو عضلاته. ولقد خالت خالتاه أنه ضعيف ولكن في الحق لم يكن يعوزه غير التدريب.

في ذلك اليوم المشهود دبرنا جميعاً أن نخرج إلى نزهة خلوية مصعدين في غابات القسطل – وأقصد جميعنا فيما عد جانيت وقد تخلفت لتتم صورة الكاتدرائية التي رسمتها بالألوان المائية – ولعل المحاولة لم تكن أية في النجاح.

وإني لأهيم في تلك التفاصيل غير الملائمة لأن خاطري لا يسعه أن يعزلها عن ذكريات ذلك اليوم، وكذلك الحال فيما يخص المحادثة التي جرت في أثناء النزهة، فكل الأشياء قد انطبعت في ذهني مجتمعه. وبعد أن أمضينا ساعتين في الصعود تركنا الحمير التي حملت الآنستين روبنسن وزوجي. وتقدم الجميع على الأقدام إلى رأس الوادي، وعلمت أن اسمه فالوني فونتانا كلروز.

لقد شهدت – قبل هذا وبعد هذا – كثيراً من المناظر الجميلة ولم أجد من بينها ما سرني أكثر منه إلا القليل. فذاك الوادي ينتهي بغور فسيح على هيئة فنجان تلمع فيه وهاد من التلال السحيقة الانحدار التي تحدق به، وشجر القسطل المورق يكسو الوادي والوهاد وأضلاع التلال التي تفصل بين تلك الوهاد. فكانت الصورة في عمومها كاليد الخضراء المتعددة الأصابع – راحتها إلى أعلى – تمسك بنا في تشنج لتبقينا في قبضتها. ولقد استطعنا

أن نرى رافيللو على مدى بعيد في أسفل الوادي، وكانت تلك عي السمة الوحيدة لدنيا غير دنيانا.

فقال ابنتي روز: "ما أكمل جمال هذه البقعة وما أروع الصورة التي قد ترسم لها!".

فأجاب ساندباتش: "أجل. إن الكثير من المعارض الأوروبية للصور ليزدهيه أن يعلق فوق جدرانه منظراً طبيعياً يحكي هذا المنظر جمالاً".

وقال ليلند: "بالعكس، تكون الصورة جد هزيلة فالمنظر لا يستقيم في التصوير إطلاقاً".

فعلقت روز، في اهتمام أكثر مما يستحقه الرجل، قائلة: "ولم ذلك؟".

فأجاب: "انظري. أولاً: لأن خط التل تلقاء السماء، قويم على صورة لا تطاق. وهو في حاجة لأن يقم وتتعدد أشكاله. فالمنظر جميعه – من حيث تقف – خارج على ما يريح مرمي النظر. وإلى هذا فتدبيج الألوان فج مطرد النسق".

وهنا دخلت الحديث قائلاً: "لا علم لي بالصور البتة ولست أدعي المعرفة، ولكني عندما أرى شيئاً جميلاً أعرف أنه جميل. وأنا عن هذا راض تمام الرضى".

فقالت كبرى الآنستين روبنسن: "يقيناً، ومن ذا الذي يسعه عدم الرضى!". وقال مستر ساندباتش مثل هذا القول.

وقال ليلند: "آه. كلكم يخلط بين النظر الفني للطبيعة وبين التصوير الفتوجرافي".

ولما كانت روزا المسكينة قد أحضرت آلتها للتصوير الفوتوغرافي دار بخلدي أن هذا الكلام لا ريب في قسوته. وبما أني رغبت عن كل ما يكدر الصفو فقد انثنيت من فوري وعاونت زوجي ومس ماري روبنسن في ترتيب الغذاء، ولم يكن غذاء جد طيب.

وقالت الخالة لأبن أختها: "يا عزيزة يوستش، تعال وشاهدنا هنا".

كان في الصباح حاد المزاج إلى درجة كبيرة، ولم يرغب في مرافقتنا كعادته. وكانت خالته قد رخصناه في البقاء بالفندق – أو كادتا – وذلك لإغاظة جانيت. غير أبي – بعد استئذانهما – تحدث إليه في حزم عن موضوع الرياضة، فجاء نتيجة لذلك ولكنه كان أكثر اكتئاباً وصمتاً من المعتاد.

ولم تكن الطاعة من أخص مزاياه، فهو لا ينفك يناقش كل أمر يصدر إليه وينفذه إلا متذمراً. ولو كان لي ولد لتشددت دواماً في أن يطيع طاعة ناجزة صادرة عن طيب خاطر.

وأجاب آخر الأمر: "أنا — آت — يا خالتي — ماري". ثم تلكع في اقتطاع كرة من خشب يصطنع منها صفارة وقد حرص على ألا يصل قبل أن ننتهي تماماً.

فقلت له: "مرحي مرحي أيها السيد! أنت تتردد وتجئ بعد فوات الوقت ثم نفيد كدنا". فتنهد لأنه لم يكن ليحتمل التبكيت، وأصر الآنسة مارين في غير تبصر، على إعطائه جناح الدجاجة، ولم أفلح في منعها عن ذلك. وأتذكر أنه مرت بي لحظة غيظ عندما فكرت في أنه كان علينا جميعاً أن نضيع وقفتنا في المجادلة لإطعام ولد تالف بدلاً من التمتع بالشمس والهواء والغابة.

على أنه عقب الأكل بعد عنا هوناً ما، إذ ارتد إلى جذع شجرة وأخذ يرخي اللحاء عن صفارته. وقد حمدته رؤيته منشغلاً مرة على صورة ما. فاضطجعنا واستمتعنا بالاسترخاء وأشجار القسطل الخلابة التي ينمو في الجنوب وتعد ناقصة النمو مراهقة إذا قيست بنظائرها القوية الكاملة النمو التي تنبت لدينا في الشمال، غير أنها كانت تكسو التلال والأودية في هيئة تسر من رأس سروراً بالغاً. ولم يكشف هذا الستر إلا في مكانين كنا في أحدهما جالسين.

وبسبب قطع تلك الأشجار القليلة أفاض ليلند في توجيه الاتهام الحقير للمالك.

وصاح قائلاً: "لقد أخذ الشعر كافة يتقلص عن الطبيعة. فبحيراتها ومستنقعاتها تصرف مياهها وبحارها ترصف شواطئها، وغاباتها تقطع أشجارها، وفظاظة الكآبة تشيع في كل مكان.

وكان لدى بعض التجارب عن الضياع. فأجبت بأن الاقتطاع ضروري جداً لصحة الدوح. وفوق ذلك فمن غير المعقول مطالبة الملك بألا يبتغي غلة من أرضه.

"إذا نظرت إلى المناظر الطبيعية للغابات من الناحية التجارية فقد يسرك نشاط الملك. ولكني أرى أن مجرد التفكير في تحويل شجرة إلى رصيد يثير الاشمئزاز".

فأردفت في أدب بقولي: "لست أرى وجهاً لأزدراء أنعم الطبيعة بسبب قيمتها المادية".

غير أن كلامي لم يقفه فاستأنف قائلاً لا يهم. فلقد تردينا في الفظاظة كلنا ولا استثنى نفسي، ولا أمل في الإصلاح ونحن مسئولون مسئولية شائنة عن اختفاء حوريات البحر منه

وجنبات الجبال منها، وعن أن الغابات لم تعد تأوي بان"[١]".

فصاح مستر ساندباتش – وصوته العذب يملأ الوادي كأنه كنيسة خضراء كبيرة– قائلاً: "بان! لقد مات بان ولذا لا تؤويه الغابات". وأخذ يسر القصة الأخاذة عن الملاحين الذين كانوا مبحرين على مقربة من الشاطئ وقت ولادة المسيح وسمعوا – ثلاث مرات – صوتاً عالياً يقول: "لقد مات الإله العظيم بان".

"أجل لقد مات بان".

واستغرق في تلك السخرية الناعسة التي يولع بالانغماس فيها أهل الفن. وهنا انطفأ السيجار الذي كان يدخنه وكان عليه أن يسألني عود ثقاب.

قالت روز: "هذا شائق جداً. وإني لأتمنى أن أكون قد ألممت بشيء من التاريخ القديم".

قال ساندباتش: "إنه لا يستأهل التفانك أليس كذلك يا يوستيس؟"

وكان يوستيس يكمل صفارته، فرفع بصره في العبوس المثير الذي رخصت له خالتاه بالإغراق فيهن ولم يحر جواباً.

وتنقل الحديث بين موضوعات منوعة ثم خبا... كان أصيلاً صحوا من آصال مايو. وقد خلفت خضرة أوراق شجر القسطل الصغير وزرقة السماء الداكنة طباقاً "أي تبايناً" جميلاً وكنا جميعاً جالسين عند نهاية البقعة الخالية من الشجر ابتغاء المنظر الجميل. وكان جلياً أن ظل شجيرات القسطل التي من خلفنا غير وأردف. وخمد كل الأصوات، في سمعي أنا على الأقل.. وتقول مس روبنسن إن صخب الطير كان أول سمات الضيق التي استشعرته. خمدت الأصوات جميعاً. غير أنني – عن بعد في الفضاء – تسني لي سماع غصني شجرة قسطل يتطاحنان لدى تمايلها. على أن هذا التطاحن أخذ يتقاصر تقاصراً مطرداً حتى خمد كذلك آخر الأمر. وعندما أطالت على أصابع الوادي الخضراء كان كل شيء ساكناً لا يبدي حراكاً. وبدأ ينسل فوقي شعور الترقب الذي يمارسه المرء كلما هجعت الطبيعة.

وعلى حين غرة استثارتنا جميعاً الجلبة المبرحة التي صدرت عن صفارة يوستيس. إني لم أسمع قط آلة تخرج صوتاً متنافر النغم يصدع الأذن كما نفعل هذه الآلة.

[١] بان إله الرعاة: وهذا التعبير وسابقاه من أدب الأساطير اليونانية القديمة

فقالت الآنسة ماري روبنسن: "يا عزيزي يوستيس. كان في استطاعتك أن تفكر في رأس خالتك جوليا المسكينة". وانتصب ليلند الذي كان نائماً فيما يظهر.

وأبدى ملاحظة قائلاً: "ويدهشني كيف يعمى صبي عن أي شيء فيه جمال أو فيه تهذيب. أنا لم أكن لأصدق أن في وسعه أن يجد الوسيلة التي بها يفسد علينا مسرتنا على هذا النحو".

وانسدل علينا من جديد ستار السكون المروع. وكنت في تلك اللحظة واقفاً أرقب بإحساسي نسمات خفيفة من الريح كانت تعدو هابطة أحد الأضلاع المقابلة وتحول – إذ تمر – الأخضر الزاهي إلى داكن. فتملكني شعور بالتطير غريب الأطوار. واستدرت فهالني أن أرى الآخرين جميعاً واقفين على أقدامهم يرقبون مثلى.

وليس في مقدوري أن أصف ما حدث بعد ذلك وصفاً دقيقاً يطابق الواقع ولكني، بوصفي واحد منهم، لا استحي من الاعتراف بأني – مع وجود السماء الزرقاء الصافية فوقي، وغابات الربيع تحتي، أكرم الأصدقاء حولي – فزعت فزعاً شديداً أرجو ألا يعاودني أبداً حتى ما هو دونه هولاً. فزعاً لم أعرفه لا قبل ذلك ولا بعده. ثم أني رأيت في عيون الآخرين رعباً لا ينم على معنى آخر، وقد جهدت أفواههم في أن ننفتح بالكلام وأيديهم في أن تتحرك بالتعبير، ومع هذا فقد كان يحف بنا من كل ناحية اليسر والجمال والسلام، وجميعه بلا حراك، فيما عدا نسمات من الريح الخفيفة التي تصعد الآن الضلع الذي وقفنا فوقه.

أما من ذا الذي تحرك أولاً فلم يعرف. ويكفي أن أقول إننا في ثانية واحدة كنا نعدو على طول صفحة الجبل. كان ليندا في المقدمة، وتبعه ساندباتش قم امرأتي. غير أني لم أنظر إلا لحظة يسيرة لأني جريت عبر الأرض الخالية من الشجر واخترقت الغابة وما فوق الرتم"[1]" والصخر وهبطت قيعان مجاري السيول الجافة وبلغت الوادي الذي تحتها. وربما تكون السماء قد أسودت وأنا أجري وربما كانت طريق الشجر والعشب القصير وصفحة الجبل طريقاً مستوية. ذلك لأني لم أر شيئاً ولم أسمع شيئاً ولم استشعر شيئاً، وذلك لأنكل معاير الإدراك والتفكير قد سدت. ولم يكن ما عراني هو الخوف الروحي الذي عرفه المرء في مناسبات سابقة وإنما كان

[1] الرتم: (بفتحتين) نوع من الشجرة بذرة كالعدس والواحدة رتمة

خوفاً بهيمياً بدنياً متسلطاً يركز فوق الأذنين ويسدل السحاب أمام العينين ويملأ الفم مذاقاً خبيثاً. ولم يكن الإذلال الذي تخلف إذلالاً مألوفاً لأني أرتعت لا على أني آدمي بل على أني بهيم.

- ٢ -

ليس في وسعي أن أقول إن نهايتنا كانت – في أية صورة – خيراً من بدايتنا فإن خوفنا ذهب –كما جاء –بلا سبب. واستطعت فجأة أن أرى واسمع وأن أسعل وأنظف فمي ..ثم نظرت خلفي فألفيت الآخرين قد توقفوا كذلك. وما هو إلا وقت قصير حتى كنا معاً كلنا وإن انقضت فترة طويلة قبل أن نقدر على النطق وفترة أطول قبل أن نجتري على التكلم.

لم تصب أحد منا إصابة بالغة. وكل ما حدث هو أن امرأتي المسكينة التوى رسغها، وأن ليند نزع ظفر إحدى أصابعه على جذع شجرة، وأنني خدشت أذني فآذيتها ولم أتنبه لهذا بتاتاً حتى توقفت.

كنا جامعين صامتين نتقصى الأحوال في وجوه بعضنا البعض، وإذا يمس ماري روبنسن تطلق فجاءة صيحة مروعة: "أيتها السماوات الرحيمة، أين يوستيس؟" وكادت أن تسقط لولا أن أسندها مسترساندباتش.

قالت ابنتي روز وكانت أكثر الجماعة رباطة جأش: "ينبغي لنا أن تعود من فورنا. وأنا آمل بل أشعر أنه سالم".

وبلغ من جبن ليلند أنه اعترض. ولكنه عاد فأذعن إذ وجد نفسه أقلية وخشي أن يترك وحده. وما كان روز ومني إلا أن ساندنا امرأتي المسكينة وما كان مستر ساندباتش ومس روبنسن إلا أن عاضدا مس ماري. وعدنا مستأنين صامتين وصعدنا في أربعين دقيقة الممر الذي هبطناه في عشر.

ثم انقطع حديثنا بطبيعة الحال لأن أحداً لم يرغب في إبداء رأي فيما حدث. وكانت روز أكثر الجماعة ثرثرة. ولقد أفزعتنا بقولها أنها كادت أن تقف حيث كانت تماماً.

وقال مستر ساندباتش: "أتعنين أنك لم تكوني.. أنك لم تجدي نفسك مكرهة على السير"؟

وبطبيعة الحال شعرت بـ "الخوف" فعلاً وكانت أسبقنا إلى استعمال هذه الكلمة، ولكني أحسست على صورة ما أنني إذا استطعت التوقف فسيكون الشأن غير الشأن وأنه ما ينبغي لي أن أخاف إطلاقاً.. على حد تعبيرهم". ولئن لم تفصح روز قط في مثل هذا الوضوح فإنه مما يرفعها في نظرنا أنها – وهي أصغرنا جميعاً – قاومت فترة في مثل هذا الطول في ظروف مروع كهذا.

واستأنفت الكلام قائلة: "ولولا أني رأيت أمي تسير لكنت توقفت فيما أعتقد".

وقد وجدنا في تجربة روز بعض العزاء في شأن يوستيس. غير أننا تملكنا شعور بالانقباض المروع عندما صعدنا – ونحن نتألم – المنحدرات التي يكسوها القسطل وشارفنا الرقعة الصغيرة العارية عن الشجر. وما كدنا نبلغها حتى انطلقت ألسنتنا. فقد رأينا هناك في الناحية القصوى ما تخلف من عدائنا وشهدنا إلى جانبه يوستيس راقداً على ظهره بلا حراك.

وفي شيء من حضور البديهة صرخت من فوري: أنت، أيها القرد الصغير! اقفز!". ولكنه لم يجبني كما أنه لم يجب خالتيه المسكينتين عندما وجهتا إليه الكلام. ورأيت عظاءة "سحلية" خضراء تندفع خارجة من تحت ردن" ١" قميصه، فتملكني رعب يفوق الوصف.

وقفنا نرقبه وهو راقد هناك في سكون مطبق، وأخذت أذناي تطنان في انتظار انفجار من النحيب والدموع.

ركعت مس ماري إلى جواره ومست يده التي كانت متشابكة بالعشب في وضع عصبي.

ولم تكد تفعل حتى فتح عينيه وابتسم.

ومنذ ذاك الوقت تكررت رؤيتي لتلك الابتسامة الغريبة في وجه صاحبها وفي صورة التي أخذت تنشر في الجرائد المصورة. على أن يوستيس حتى ذلك اليوم كان يعلو جبينه دواماً عبوس البطر والتبرم. ولم يكن لأحدنا سابق عهد بتلك الابتسامة المقلقة التي بدا دائماً أن ليس لها أمر ما يبررها.

وأمطرته خالتاه قبلاً لم يبادلهما إياها. ثم ساد صمت غريب بدا بعده يوستيس طبيعياً ساكن الجأش، ولئن لم يتح له قبل ذلك من الخبرة ما يثير دهشته فلقد كان حرياً بأن يدهشه سلوكنا

---

[١] الردن (بضم فكون) حاشية الكم

البالغ الغرابة، وقد جهدت زوجي بلباقتها الحاضرة في أن تتصرف كأن شيئاً لم يحدث.

قالت وقد جلست لتريح قدمها: "والآن يا مستر يوستيس، كيف كنت تسلي نفسك منذ انصرافنا؟".

"شكرا يا مسز تيتلر، لقد كنت جد سعيد".

"وأين كنت"؟

"هنا".

"أكنت راقداً كل الوقت أيها الصبي الكسول"؟

"لا ليس كل الوقت".

"وما كنت تصنع قبل ذلك"؟

"ما بين واقف وجالس".

"وقفت وجلست دون أن تصنع شيئاً! ألا تعرف الشعر الذي معناه أن الشيطان ليجد شيئاً يسيء به...

وتدخل مستر ساندباتش في الحديث. أوه يا سيدتي العزيزة، صه صه!!"

وكان طبيعياً أن تنكدر زوجي من المقاطعة فلم تزد وانتقلت من مكانها. وأدهشتني رؤية روز تحتل مكانها فوراً وتمر بأصابعها بين شعر الصبي الأشعث في حرية تفوق ما تمارسه عادة.

وقالت وهي تعجل الكلام: "يوستيس! يوستيس! خبرني بكل شيء، بكل شيء دون استثناء".

فاعتدل في بطء وجلس، وكان إلى ذلك الوقت راقداً على ظهره.

وهمس قائلاً: "أوه يا روز — "فدفعني حي الاستطلاع إلى الانتقال إلى مكان أقرب إليه لأسمع ما هو قائل. وعندئذ رأيت آثار سير بعض المعز في الأرض الرطبة تحت الشجر.

فعلقت قائلاً: "زارك بعض المعز فيما هو ظاهر. أنا لم أكن أعلم أن هذا هو المكان الذي يرعى فيه".

وبعد جهود جهيد انتصب يوستيس واقفاً على قدميه وجاء ليرى. ولما رأى آثار السير رقد

وتمرغ عليها كما يتمرغ الكلب في الدنس.

وبعد هذا حدث سكون رهيب فضة آخر الأمر الكلام المهيب الذي نطق به مستر ساندباتش.

قال: "أيها الأصدقاء الأعزاء، خير لنا أن نكون شجعاناً في إذعاننا للحق. أنا أعرف أن ما أنا قائله الآن هو نفسه ما تستشعرونه في هذه اللحظة. إن إبليس اللعين كان متجسداً في مكان جد قريب منا. وقد يكشف الزمن عن ضرر ما يكون قد بثه بيننا. ولكني، عن نفسي أود – في الوقت الحاضر على أية حال أن أرفع إلى الله الحمد على رحمته بنجاتنا".

قال هذا وركع. وبما أن الآخرين ركعوا فقد ركعت كذلك. هذا وإن لم أعتقد في أن إبليس يرخص له أن يغير علينا متجسداً، حسبما أبلغت مستر ساندباتش فيما بعد. وجاء يوستيس، وفي شيء من السكون ركع – هو أيضاً – بين خالتيه بعد ما أومأنا إليه. ولم نكد ننتهي من الشكر حتى نهض من فوره وأخذ يفتش عن شيء.

وقال: "كيف؟ لقد فلق بعضهم صفارتي فلقتين "وكنت رأيت ليلند يحمل في يده مدية مفتوحة – وهذا تصرف خرافي لم أكد استصوبه".

ثم استأنف يوستيس الكلام قائلاً: "هذا لا يهم".

فقال مستر ساندباتش الذي أخذ يحاول منذ ذلك الحين أن يستدرج يوستيس ليدلي بتفاصيل عن تلك الساعة بتفاصيل عن تلك الساعة التي اكتنفها الغموض.

"ولماذا لا يهم؟"

"لأني ما أرغب فيها بعد"

"ولم"؟

وعندئذ ابتسم يوستيس ولما بدا أن أحداً ليس لديه ما يقوله انطلقت بين الغابة في أسرع ما في وسعي وسحبت حماراً يحمل امرأتي المسكينة إلى الفندق. ولم يحدث في غيابي حادث اللهم إلا أن روز استرجعت تطلب إلى يوستيس أن يخبرها بما كان. ولكنه في هذه المرة أدار رأسه ولم يجب بكلمة واحدة.

ولم أكد أرجع حتى انطلقنا جميعاً، ومشي يوستيس في عسر بقرب من الألم. فإذا ما أدركنا

الحمير الآخر رغبت خالتاه في أن يعلو أحدها ويقطع الطريق كله إلى الفندق راكباً. ومع تصميمي على ألا أدخل بين الأقرباء صممت على منعه. ولقد كنت على حق كما وضح آخر الأمر، لأن الرياضة الصحية أخذت – حسما زعمت – تذهب بخمول يوستيس وتلين مع تيبس عضلاته. فلقد سارع الخطى كما يصنع الرجال، أول مرة في حياته، ناصباً هامته مستنشقاً شهقات عميقة من الهواء إلى صدره. وقد أبديت لمس ماري روبنسن راضياً أو يوستيس أخذ في النهاية يعتز بعض الشيء بمظهره الشخصي.

وتنهد مستر ساندباتش وقال أن يوستيس يجب أن يوضع تحت مراقبة دقيقة لأن أحداً منا لا يفهمه بعد. وبما أن مس ماري روبنسن كانت تستهديه إلى درجة كبيرة – درجة تفوق المعقول في زعمي – فقد تنهدت هي الأخرى.

قلت: لا عليك يا مس روبنسن. فيوستيس لم يصب بمكروه. والغرابة إنما تكمن في تصرفاتنا نحن لا في تصرفاته هو لقد أدهشه رحيلنا المفاجئ ولذا ألفينا في حالة غريبة لدى عودتنا،ن وله عذره. وإذا كان قد تغير إطلاقاً فإلى ما هو خير".

وقال ليلند وهو يركز نظرات عين واسعة حزينة على يوستيس الذي توقف كي يتسلق صخرة لجميع بخور مريم "سكلا من" قال: وعل عبادة التربية البدنية التي هي من طقوس النشاط العديم الذكاء – تعد تحسيناً؟ والرغبة الملحة في أن ينسلخ عن الطبيعة مظاهر الجمال القليلة التي تركت لها، هل تعد تحسيناً كذلك؟"

ومن الإسراف البين لإجابة عن ملاحظات من هذا اللون ولا سيما إذا صدرت عن مفن مخفق يشكو إصبعاً تالفة. لهذا غيرت مجرى الحديث مستفهماً عما نقوله في الفندق. واتفقنا بعد حوار قصير على ألا تذكر شيئاً لا هنالك ولا في كتبنا إلى ذوينا. وعندي أن من الخطأ الإلحاف في سرد الحقائق التي لا تخلف غير الارتباك والانزعاج. وتسنى لي بعد جدل طويل أن أقنع مستر ساندباتش بالانضمام إلى رأيي.

ولم يشارك يوستيس في الحديث بل أخذ يركض هنا وهناك، كما يفعل الولد الصغير، في الغابة الواقعة إلى يسار. وقد منعنا شعور غريب من الحياء على أن نبدي له صراحة، خوفنا. وبدا يقيناً أننا كنا على حق تقريباً عندما خلصنا إلى أن الموضوع لم يكن يسترعى نظره. ولذا لم

نأبه له عندما قفز راجعاً وقد ملأ ذراعه بحزمة من شوك مزدهر وهتف:

"أتظنون أن جنارو سيكون هناك عندما نعود؟ وجنارو هو النادل الذي يسد الفراغ عند الضرورة، وهو صبي سمج من مينوري في غياب إيمانويلي الظريف الذي يتكلم الإنجليزي. وهو الذي أعد لنا غذاءنا الشحيح. ولست أستطيع أن أدرك لماذا تاق يوستيس إلى رؤيته اللهم إلا أن يكون في حسابه أن يتندر وإياه عن سلوكنا.

قال مس روبنسن: "نعم، سيكون هناك، يقيناً، ولماذا تسأل يا عزيزي؟"

""أوه. فكرت في أن رؤيته قد تسرني".

وقال مستر ساندباتش في عنف: "ولكن لماذا؟"

"لأني — لأني فعلاً —" وانطلق راقصاً في الغابة، وقد أخذت تعتم، على إيقاع كلماته.

قال مستر ساندباتش" "هذا بالغ الغرابة. هل أحب يوستيس جنارو قبل الآن"؟

قال روز: "جنارو لم يشتغل هنا إلا منذ يومين، وأعلم أنهما لم يتحادثا إطلاقاً في أكثر من عشر مناسبات".

وكان يوستيس ترتفع روحه المعنوية كلما عاد من الغابة. ولقد وانقض عينا ذات مرة وهو ينعق كأنه أحد الهنود الحمر المتوحشين. وفي مرة أخرى أراد أن يقنعنا بأنه كلب. وفي المرة الأخيرة عاد يحمل على ذراعه أرنباً برياً مسكيناً مخطوف البصر أخوف من أن يتحرك. وقد بدأ "يوستيس" يصبح كثير الجلبة، فيما أزعم، وسرنا جميعاً أن نزايل الغابة ونبدأ نزول درب اللم المنحدر الهابط إلى رفللو. وكان الوقت متأخراً والسماء آخذة في الإعتام فأسرعنا ما وسعنا الإسراع ويوستيس يمرق أمامنا كما يمرق الماعز.

والحادث العجيب الثاني ذاك اليوم الغريب حدث تماماً حيث يتصل درب السلم المنحدر بالطريق العالية البيضاء. كان ثلاثة من العجائز واقفات على مقربة من الطريق، هابطات من الغابة مثلنا. وكن يسندن ما يحملن من حزم الحطب الثقيلة على السور الواطئ الذي يحجز الطريق، فتوقف يوستيس أمامهن وتروي لحظة ثم تقدم و ... وقبل يسراهن على خدها!

فصاح مستر ساندباتش قائلاً: "أيها الرفيق الطيب، هل أنت مغرق في الجنون؟"

ولم يتكلم يوستيس بل قدم إلى العجوز بعض زهره ثم انطلق مسرعاً. ونظرت خلفي فبدا لي أن رفيقتها لاحتا مذهلتين لما حدث مثلما كنا تماماً.

أما هي فقد رشفت بنفسها الزهر في صدرها وتمتمت بالدعوات.

وكانت تحيته هذه إلى العجوز أبرز مثل لسلوك يوستيس الغريب. وساورنا كلينا الذهول والانزعاج. ولم تكن ثمة فائدة من التحدث إليه لأنه كان يجيب إجابات سخيفة أو ينطلق واثباً دون أن يجيب إطلاقاً.

ولم يشر إلى جنارو طوال الطريق إلى الفندق فأملت أن يكون أمره قد دخل زوايا النسيان. ولكنا نكد نبلغ الميدان الواقع أمام الكاتدرائية حتى زعق بأعلى صوته منادياً: "جنارو وكان في نهايتها،ويداه ورجلاه تبرز من بذلة النادل الصغير الظريف الذي يتكلم الإنجليزية، وعلى رأسه طاقية صياد سمك قذرة. ذلك أنه —كما قالت بحق صاحبة الفندق المسكينة، مع مداومتها الإشراف على هيئته —كان ينجح دائماً في أن يدخل عليها، قبل أن تتم، شيئاً غير موائم.

قفز يوستيس ليلقاه وارتمى بين ذراعيه. ولم يحدث هذا في حضورنا فحسب بل كذلك في حضرة صاحب الفندق وخادمة الغرف والحمال وسيدتين أمريكتين وفدنا على الفندق الصغير لتقضيا به أياماً قلائل.

إنني أضع نصب عيني دائماً أن أتلطف في معاملة الإيطاليين مهما قل استحقاقهم لذلك. إلا أن عادة الألفة المشوشة هذي لا تحتمل إطلاقاً ولا تخلف إلا سقوط الكلفة وإلا المهانة للجميع. وانتحيت بمس روبنسن جانباً واستأذنتها في أن أتحدث إلى يوستيس حديث الجاد في صدد مخالطة من هم دوننا اجتماعياً فأذنت لي في ذلك. غير أني عزمت على التريث حتى تسكن قليلاً ثورة الصبي التافه من أثر اهتياج ذلك اليوم. وفي غضون ذلك فإن جنارو — بدلاً عن أن يهتم بخدمة السيدتين الجديدتين — حمل يوستيس داخل الدار كأن هذا أهم تصرف طبيعي في العالم.

وعندما جاوزني سمعته يقول: "هو كبيتو، هو كبيتو. وهذه العبارة الإيطالية معناها "فهمت" ولكن بما أن يوستيس لم يتحدث إليه فإني لم أدرك قوة الملاحظة. وزاد هذا من حيرتنا. وإلى أن حل وقت اختلافنا إلى مائدة العشاء كانت أخيلتنا وألسنتنا قد أنهكت سواء بسواء.

وأسقط من الحساب التعليقات المختلفة التي صدرت لأن القليل منها هو الجدير بالتسجيل فيما يبدو. ومهما يكن فإن سبعة منا أخذوا — في مدى ثلاث ساعات أو أربع — يتدفقون دهشة في مسيل من الهتافات المناسبة وغير المناسبة: فربط بعضهم بين سلوكنا — عصراً — وسلوك يوستيس الآن، بينما البعض لم ير أي اتصال، وأصر مستر ساندباتش على أنه تأثر بمؤثرات شيطانية وأفتى بوجوب عرضه على طبيب. ولم ينظر ليلند لغير تطور "ذاك العامي اللعين أي الصبي". وزعمت روز أن كل تصرفاته تحتمل التسامح؟ وهذا ما أدهشني. أما أنا فقد بدأت أراه يستأهل التأديب البدني الشديد. وترجحت الأختان روبنسن المسكينتان في يأس حائرتين بين الآراء المتباينة وأخذتا تجنحان إلى فكرة الإشراف الدقيق، وطوراً إلى الإذعان، ومرة إلى التأديب البدني وأخرى إلى ملح الفواكه "إنيو".

وانقضى العشاء على نحو لا بأس به ولو أن يوستيس كان بالغ القلق وجنارو أخذ كدأبه يسقط السكاكين والملاعق ويتنخم ويزيل ما في حلقه. ولما كان لا يعرف من الإنجليزية إلا كلمات قليلة اضطررنا جميعاً إلى التحول إلى الإيطالية لنفصح عن مطالبنا. طلب يوستيس — الذي لقط القليل من هذه اللغة على وجه ما — برتقالا. وضايقني أن جنارو عند إجابته استعمل في الخطاب صيغة المفرد، وهي صيغة لا تستعمل إلا عند توجيه الكلام إلى الأنداد الذين امتنعت بينهم الكلفة. جلب يوستيس هذا على نفسه ولكن وقاحة كهذه إهانة لنا جميعاً. فصممت على أن أتكلم وعلى أن أتكلم فوراً.

وعندما سمعته يزيل ما تخلف على المائدة دخلت، واستجمعت ما حضرني من التعبيرات الإيطالية أو على الأصح النابولية "ولهجات الجنوب كريهة" وقلت: "جنارو! سمعتك تخاطب السنيور يوستيس بصيغة المفرد".

"وهذا صحيح".

"أنت مخطئ. وعليك أن تكون أكثر احتراماً لدى خطابك إياه فتستعمل صيغة الجمع أو ما يحل محلها. وتذكر أن السنيور يوستيس — وإن سخف وأحياناً وقلمت فطنته، كما حدث عصر اليوم — تذكر أنطك مطالب بأن تتأدب في معاملتك إياه، فإن سيد إنجليزي صغير وأنت صبي سماك فقير".

أنا أعلم أن هذا الكلام يصور حداثة النعمة تصويراً قوياً غير أن المرء يستطيع أن يقول بالإيطالية عبارات لا يحلم أبداً أن يقولها بالإنجليزية. وإلى هذا فلا خير في توخي الرفق عند مخاطبة أناس من هذه الطبقة. وإذا أنت لم توضح مقاصدك في صراحة تامة فإن أولئك الناس يغتنمون سروراً آثماً بسوء فهمهم إياك.

ولو كان الذي أتحدث إليه صياداً إنجليزياً أميناً للكمني من فوره في عيني لقاء ملاحظة كهذي. أما الإيطالي التاعس الذي يدس في الرغام فلا كرامة له. فجنارو لم يزد على أن تنهد وقال"هذا حق".

قلت: "إنه كذلك" ولم أكد أستدير لأنصرف حتى سمعت ما أثار حتفي، سمعته يستأنف الكلام قائلاً: "ولكنه لا يهم في بعض الأحيان".

فصرخت فيه: "وما تغني"؟

وسار غلى جواري معبراً بأصابعه تعبيرات مفزعة وهو يقول: "يا سنيور تيتلر! أود أن أقول ما يلي: إذا طلب إلى يوستاذيو أن أخاطبه بصيغة الجمع فعلت، وإلا فلا".

وهنا حمل صينية مستلزمات العشاء واختفى بها من الغرفة. وما هي إلا لحظة حتى سمعت سقوط كأسي نبيذ على أرض صحن الدار.

إذ ذاك تملكني شيء من الغضب وحثثت الخطسي لأتحدث إلى يوستيس، وكلنه كان قد ذهب لينام. وكان صاحبة الفندق التي رغبت في التحدث إليها، وبعد مزيد من التساؤل المبهم الذي أبدى في غموض – نظراً لوجود جانيت والسيدتين الأمريكيتين – ذهبنا جميعاً لننام كذلك بعد أن قضينا يوماً مزعجاً بالغ الغرابة.

- ٣ -

ولكن النهار لم يكن شيئاً إذا قيس بالليل.

أعتقد أني كنت قد تمت نحواً من أربع ساعات حين استيقظت فجأة متخيلاً أنني سمعت جلبة بالحديقة. وقبل أن أفتح عيني مباشرة تملكني رعب بارد فظيع لا خوفاً من شيء جار كما حدث في الغابة بل خشية شيء محتمل الحدوث.

كانت حجرتنا في الطبقة الأولى تطل على الحديقة أو الشرفة، أو هي على الأصح كتلة من الأرض تحكي الوتد شكلاً، تكسوها الورود الكروم، تشطرها ممرات صغيرة من الأسفلت، ويحدها من الجانب القصير بناء الفندق. أما الجانبان الطويلان فيحف بها جدار يعلو سطح الشرفة بثلاث أقدام ليس غير، إلا أن انحداره على مزارع الزيتون — التي يشرف عليها — أطول من عشرين، لأن الأرض قائمة الانحدار.

ولما ارتعدت أوصال جسدي جميعاً تسللت إلى النافذة. وكان — هناك — شيء أبيض يطقطق على طول ممرات الأسفلت ذهاباً وجيئة. وزاد انزعاجي حتى أمسيت لا أرى في جلاء. وعلى ضوء النجوم الضعيف تشكل شيء بأشكال غريبة. فأنا أراه كلباً كبيراً وآونة أخاله وطواطاً أبيض ضخماً، وحيناً يبدو كالسحاب السريع الانسياب، ومرة ينط كالكرة، وأخرى يطير واطئاً كالعصفور، وأحياناً يتسرب مستأنياً كالطيف. ولم يبد منه صوت غير الطقطقة التي تصدر إلا عن وقع أقدام آدمية.. وفرض التعليل البين نفسه على ذهني المشوش آخر الأمر فأيقنت أن يوستيس زايل فراشه، وكان علينا أن نواجه أمراً جديداً.

وارتديت ملابسي على عجل، وعبطت حجرة الطعام المتصلة بالشرفة، وكان بابها غير مؤصدة. وكاد فزعي أن ينقضي تماماً، ولكني جاهدت — نحواً من خمس دقائق — شعوراً غريباً بالجبن، شعوراً حفزني ألا أتدخل في تصرفات الولد المسكين الغريب الأطوار بل إلى تركه لطقطقته المخرقة والاقتصار على مراقبته من النافذة ملقياً بالي حتى لا يصيب نفسه بأذى.

ولكن تغلبت الدوافع الطيبة ففتحت الباب، وهتفت:

"يوستيس! بالله ما هذا الذي تصنع؟ أدخل من فورك".

فتوقف عن حركاته الغريبة وقال: "أنا أكره غرفة نومي ولم أستطع أن أبقى فيها فهي جد صغيرة".

"تعال! تعال! أتعبني تصنعك، فأنت لم تشك منها قط قبل الآن".

وإلى هذا لست أستطيع أن أرى شيئاً: فلا أزهار، ولا أوراق أشجار، ولا سماء. وإنما حائطاً من الحجر فقط". نعم كان المنظر الذي تطل عليه يوستيس محدوداً، غير أن يوستيس —كما قالت له — لم يشك منها قبل الآن.

"يوستيس، أنت تتكلم كما يتكلم الطفل. أدخل! أرجوك الطاعة الناجزة" ولم يتحرك.

فقلت: "حسن جداً سأحملك بالقوة وأدخل بك". ومشيت في اتجاهه بضع خطوات. غير أني اقتنعت تواً بسخافة ملاحقة غلام خلال شبكة من ممرات الأسفلت — ودخلت — بدلاً عن ذلك — لأستعين بمستر ساندباتش ليلند.

وإلى أن عدت بهما كان يوستيس أسوأ منه في جميع ما سبق من أحواله. فهو من يشأ أن يجبنا عندما وجهنا إليه الكلام بل أخذ يغني ويثرثر لنفسه في صورة جد مزعجة،فقال مستر ساندباتش وهو يدق جبينه دقاً شديداً: "حالته الراهنة من شأن الأطباء".

توقف يوستيس عن الجري وأخذ يغني في صوت خفيض — أول الأمر — ثم رفعه منشداً من تمارين الأصابع الخمس والمقامات والأناشيد ومقطعات فاجنر ومن كل ما حضره. ثم أخذ صوته — البالغ النشوز — يطرد في الارتفاع حتى انتهى بصيحة هائلة دوت كما يدوي الطلق الناري بين الجبال وأيقظت كل من بقى — بعد — نائماً بالفندق. وأطلت زوجي المسكينة والفتاتان من نوافذهن المتجاورة، وسمعت السيدتان الأمريكيتين تدقان الجرس دقاً عنيفاً.

وصحنا جميعاً: "يوستيس، كفى كفى أيها الولد العزيز وأدخل الدار" فهز رأسه وعاد فانطلق، في الكلام هذه المرة. وأنا لم يسبق لي قط الاستماع إلى خطاب غريب كهذا. ولو أنه ألقى في وقت آخر لكان مدعاة للسخرية. فنحن إزاء صبي، لا يتذوق الجمال ولا يحتكم إلا على السخيف من الكلم، يحاول أن يقبض على ناصية موضوعات ألفاها فطاحل الشعراء فوق مستوى قدرتهم في غالب الأمر. فلقد وقف يوستيس روبنسن — وهو في الرابعة عشرة، في قميص نومه — يحي ويمتدح ويبارك قوي الطبيعة الضخمة ومظاهرها.

تكلم — أول — ما تكلم — عن النجوم والكواكب التي فوق رأسه، وأسراب اليراع"[1]" التي

---

[1] اليراع — أو الحباجب (بضم الحاء الأولى) — ذباب يطير في الليل .

تحته والبحر غير المرئي تحت ذاع اليراع، والصخور الكبرى التي تغطيها شقائق النعمان"[١].
والأصداف الهاجعة في البحر غير المرئي. وتكلم عن النهار والشلالات، وعناقيد العنب الناضجة، ومخروط فيزوف الذي ينبعث منه الدخان، وقنوات النار التي تصنع منها الدخان، وعشرات الآلاف من العطايا "السحالي" التي ترقد متحوية في شقوق الأرض الحارة الرطبة وشآبيب أوراق الورد الأبيض المعقودة في شعره. ثم تكلم عن المطر والريح اللذين يتغير بهما كل شيء، والهواء الذي تحيا بتنفسه جميع الكائنات، وعن الغابات التي يمكن أن يختبئ فيها كل شيء.

كان الخطاب كله – بطبيعة الحال – محشوا بالخطأ الكثير السخيف. ومع ذلك فقد حدثني نفسي بأن أركل ليلند عندما علق في صوت مسموع بقوله: "إنه كان صورة شيطانية ساخرة لأقدس الأشياء وأجملها في الحياة".

"ثم –" وأخذ يوستيس يستأنف شعره الخطابي الركيك المكسور الذي يرثى له والذي هو أسلوبه الوحيد في التعبير." – ثم أن هناك رجالاً ولكني أعجز عن أن أفهمهم كل الفهم وركع إلى جوار الحاجز وأرسى رأسه على ذراعيه.

فهمس ليلند : "لقد أن الأوان". أنا أكره الخلسة، غير أننا انطلقنا إلى أمام وحاولنا أن نقبض عليه من خلف فانفلت في طرفة عين، ولكنه استدار بغتة لينظر إلينا، وكان يبكي، فيما استطعت أن أرى، على ضوء النجوم. اندفع إليه ليلند مرة أخرى وحاولنا حصره بين ممرات الأسفلت ولكن دون أي أمل يبشر بالنجاح.

فعدنا لاهثين مدحورين وتركناه لجنونه في ركن الشرفة الأقصى. غير أن ابنتي روز خطرت لها فكرة:

هتفت من النافذة: "يا أبت، إذا أتيت بجنارو فقد يستطيع أن يقبض لك عليه".

ولما أشأ أن اسأل جنارو معروفاً. ولكن لما كانت صاحبة الفندق قد ظهرت في مكان الحادث رجوتها أن تستدعيه – من صندوق الفحم الذي كان نائماً فيه – وتهيب به أن يبذل جهده.

عادت مسرعة وتبعها جنارو، وقد تسربل بسترة العمل الرسمية – من دون صدرة أو

[١] شقائق النعمان أو أزهار الريح – نبات أحمر الزهر مبقع بنفط سوداء، ومفردة شقيقة النعمان.

قميص أو ثوب ما – وليس تحتها شيئاً مهلهلاً كان يوماً سروالاً، وقد قص من فوق ركبتيه لاستعماله في الخوض. فنهرته صاحبة الفندق – التي نقلت الأساليب الإنجليزية – على المظهر غير الملائم بل الشائن الذي ظهر به.

"ليست سترة وسروالاً. فما تطلبين مني أكثر من هذا؟".

وتدخلت في الحديث قائلاً: "لا عليك يا سنيوارا سكافيتي، وبما أنه ليس هناك سيدات فلت يترتب على هندامه هذا أية نتائج، ثم تحولت إلى جنارو وقلت له: :ترجوك خالتا السنيور يوستيس أن تأتي به إلى داخل الفندق".

فلم يجب:

"أتسمعني؟ إن صحته ليست على ما يرام. وأنا آمرك أن تأتي به إلى داخل الفندق".

وقالت السنيورا سكافيتي: "إيت به!" وهزته من ذراعه هزة عنيفة.

"يوستازيو في صحة جيدة حيث هو".

فصاحت السنيورا سكافيتي قائلة:"إيت به! إيت به!" وأطلقت طوفاناً من اللغة الإيطالية يسرني أن أقول إني لم أفهم معظمه، فنظرت إلى نافذة الفتاتين على نظرة سريعة عصبية. غير أنهما لا تكادان تعرفان من هذه اللغة أكر مما أعرف. وأحمد الله على أن أحداً منا لم يفهم كلمة واحدة من إجابة جنارو.

فزعق الاثنان وصيح كل منهما بالآخر أكثر من عشر دقائق. ثم اندفع جنارو منقلباً إلى صندوق الفحم الذي يأوي إليه، وانفجرت السنيورا سكافيتي منتحبة – وهي في هذا جد معذورة – لأنها تحترم كثيراً ضيوفها الإنجليز.

نهنهت باكية وهي تقول: "يقول إن السنيور يوستيس في صحة جيدة حيث هو وإنه لن يأتي به. وأنا ليس في مقدوري عمل شيء بعد".

ولكن وسعني أنا، لأني – مع أسلوبي الإنجليزي الغبي – على بصيرة بالخلق الإيطالي. تبعت مستر جنارو إلى مضجعه وألقيته متحوباً فوق زكيبة قذرة.

وبدأت: "أطلب إليك أن تأتيني السنيور يوستيس".

فرماني بإجابة لم أستبئنها.

"إذا أتيت به أعطيتك هدى، وأخرجت من جيبي ورقة مالية جديدة من ذوات العشر الليرات.

ولم يجب هذه المرة.

فاستأنفت الكلام قائلاً: "هذه الورقة تساوي عشر ليرات فضية". قلت هذا لعلي أن الإيطالي من الطبقة الفقيرة لا يسعه أن يتصور قدراً كبيراً من المالي في عملة موحدة.

"أعرف ذلك".

وهي تساوي مائتي صلدي".

وأعدت الورقة إلى جيبي.

وإلى هذا فما أنت بمعطيني إياها".

"أنا رجل إنجليزي، والإنجليز إذا وعدوا وفوا بوعدهم".

"هذا صحيح". والغريب أن أكثر الأمم غشاً يثق بنا أكثر مما يثق بعضنا بالبعض. ركع جنارو على ركبتيه غير الظلة كانت حالكة إلى حد أنني لم أستطع رؤية وجهه. ومع ذلك وسعني أن أحس نفسه المشبع بالثوم يخرج زفرات. وكنت أعلم أن طمع أهل الجنوب السرمدي قد استولى عليه.

"لا يمكنني أن أتي بيوتستازيو إلى الفندق، فقد يموت هناك".

فأجبت مصابراً: "لا حاجة لك بهذا، ولكن إيت به إليَّ، وسأقف في الخارج بالحديقة، وأذعن الشاب – الذي يستحق الرثاء – لهذا كأنه مطلب آخر".ولكن أعطني أولاً العشر الليرات".

"كلا" ذلك لأني أعرف مع أي شخص أتعامل. ومن يغدر مرة يبق كذلك أبداً.

عدنا إلى الشرفة. وتوجه جنارو – دون أن ينبس بكلمة واحدة – صوب صوت خطوات يوستيس التي أمكن سماعها في الطرف الأقصى.

وابتعدنا قليلاً – مسترساندباتش وليلند وأنا – عن مبنى الفندق ووقفنا في ظل شجرة الورود البيضاء المتسلقة مختفين عن الأنظار.

وسمعنا النداء "يوستازيو" متبوعاً بصيحات فرح سخيفة صادرة عن الصبي المسكين.

وتوقفت الطقطقه. وسمعناهما يتحادثان. ودنا صوتاهما، وغذ ذاك وسعني أن أميزهما من خلال النبات المتسلق. ميزت هيئة الشباب القبيحة والصبي الصغير النحيل ذي القميص الأبيض. وكان جنارو يلف ذراعه حول رقبة يوستيس الذي أخذ يتابع التحدث باللسان الإيطالي الطليق الكثير الزلل.

وسمعته يقول: "أكاد أعرف كل شيء: الشجر والتلال والنجوم والماء، ويسعني أن أراها جميعاً، ولكن أليس غريباً أنه لا يسعني ألبته فهم الرجال؟ أتدرك ما أعنى؟".

فقال جنارو في رزانة: "فهما" وسحب ذراعه من كتف يوستيس، فجعلت الورقة المالية في جيبي وقد سمعها. فرفع يده ودفعها فما كان من يوستيس إلا أن شبك فيها يده غير مرتاب.

واستأنف يوستيس الكلام قائلاً: "هذا غريب!" وكانا قد اقتربا الآن كل الاقتراب: "يبدو غالباً كأنما — كأنما —".

وثبت عليه وأطبقت على ذراعه وقبض ليلند على الذراع الأخرى وتعلق مستر ساندباتش بقدميه، فأطلق صرخات جادة تخزق القلب، وهطل عليه الورد الأبيض الذي بكر سقوطه ذلك العام وذلك بينما كنا نجره إلى الفندق.

وما إن دخلنا الدار حتى كف عن الصراخ، غير أن طوفاناً من الدموع تفجر في صمت وانتشر على وجهه الذي تقلب إلى أعلى.

وتوسل: "لا غلى غرفتي فهي جد صغيرة".

وملأتني نظرته البالعة الإيلام تحنانا غريبياً، ولكن ما عساي أن أصنع؟ هذا إلى أن نافذته هي الوحيدة التي بها قضبان من حديد.

فقال مستر ساندباتش الرءوف: "لا عليك أيها الولد العزيز، فسأنسك حتى الصباح".

وهنا بدأ من جديد نضاله المتشنج قائلا: "أوه، ليس هذا — أرجوكم — أي شيء عدا هذا. وإذا تركتموني وحدي وعدتكم بالرقاد في سكون وبمحاولة الكف عن البكاء".

وعلى هذا ما أرقدناه على السرير وسحبنا فوقه الملاءات وتركناه ينهنه في مرارة ويقول: "لقد رأيت كل شيء تقريباً، أما الآن فلا قبل لي على رؤية شيء بتاتاً".

أبلغنا الآنستين روبنسن بكل ما جرى ورجعنا إلى حجرة الطعام حيث وجدنا السنيورة

سكافيتي وجنارو يتهامسان. وأحضر مستر ساندباتش قلما وورقة وأخذ يكتب للطبي الإنجليزي في نابولي. وسحبت أن الورقة المالية في الحال ورميتها لجنارو على المنضدة.

وقلت: "هاك أجرك". قلت هذا في تجهم لأني كنت أفكر في قطع النقود الفضية الثلاثين.

فقال جنارو وهو يختطفها: "شكراً، سيدي".

وفيما هو يهم بالذهاب استعلم منه ليلند – الذي ما ينفك يخطئ سواء في توجيه اهتمامه أو في عدم اكتراثه – ماذا عن يوستيس بقوله: " لا يسعني البتة فهم الرجال".

"لا يمكنني الجزم بذلك، فالسنيور يوستازيو "وقد سرني أن ألاحظ بعض الاحترام آخر الأمر" له بصيرة نافذة وهو واسع الإدراك.

فأصر ليلند قائلاً: "ولكني سمعتك تقول إنك فهمت".

"فهمت غير أني ما أستطيع إيضاحاً. فأنا إيطالي صبي سماط مسكين. ومع هذا استمع إليَّ: سأجرب" ولما رأيت أن حالته النفسية آخذة في التغير انزعجت وحاولت وقفه. إلا أن جلس على حافة المنضدة وانطلق بيدي بعض ملاحظات غير متماسكة.

وقال ملاحظاً آخر الأمر: "هذا محزن، هذا الذي حدث جد محزن. ولكن ما الذي يسعني صنعه. أنا مسكين، ولست أنا الفاعل".

تحولت مزدرياً، واستطرد ليلند يوجه أسئلة مستهدفاً معرفة من عناء يوستيس عندما تكلم.

فأجاب جنارو جاداً: "من السهل القول بأنه كان يعينك.. كان يعنيني ... كان يعني كل من بالدار وكثيرين خارجها.. فهو إذا نشد المرح ضايقناه، وإذا طلب الوحدة أزعجناه، سعى غلى الصديق خمسة عشر عاماً ولم يجده، ثم وجدني. ولكني – أنا الذي عشت في الغابات وأفهم كذلك بعض الأمور – بعته لكم وأدخلته ليموت. ولكن ما الذي كان يسعني صنعه؟"

فقلت: "رويدك رويدك".

"سيموت يقيناً. سيرقد في الغرفة الصغيرة الليل كله، ثم يصبح ميتاً. هذا مؤكد".

فقال مستر ساندباتش: "يا هؤلاء، هذا يكفي، سأبقى معه".

"لقد بقيت فيلومينا مع كاتيرينا الليل كله ومع ذلك فقد ماتت كاتيرينا في الصباح. ومع أني

رجوت وتوسلت ولعنت ودققت الباب وتسلقت الجدار فإنهم لم يمكنوها من الخروج. لقد كانوا جهلة حمقي وظنوا أني أود خطفها. وفي الصباح ماتت".

سألت السنيور سكافيني: "ما كل هذا؟"

أجابت: "سيذيع كل أنواع الحكايات، على أنه أول من يجب عليه عدم إعادتها".

فاستأنف كلامه قائلاً: "أنا الآن على قيد الحياة لأني لم يكن لي أبوان ولا أقرباء ولا أصدقاء. ولما حالت الليلة الأولى وسعني الجري في الغابات وتسلق الصخور والغطس في الماء، حتى أشبعت رغبتي!".

وسمعنا صرخة صادرة عن غرفة يوستيس. وكان الصوت خافتاً ولكن في مثابرة كصوت الريح في الغابة يسمعه امرؤ يقف في هدوء.

قال جنارو "كانت تلط آخر صرخات كاتيرينا. كنت إذا ذاك أتطلع إلى نافذتها فمرت بسمعي مدوية"، ورفع يديه — اللتين صرت فيهما ورقتي المالية ذات العشر الليرات — ولعن، جاداً، مستر ساندباتش وليلند كما لعنني ولعن القدر لأن يوستيس كان يحتضر في غرفته بالطبقة العليا، وهذا مثل من عقلية أهل الجنوب. وإني لأعتقد اعتقاداً راسخاً بأن جنارو لم يكن ليتحرك، حتى في ذاك الوقت، لو لم يقلب البرج بذراعيه ليلند الذي لا سبيل إلى وصف حماقته. وكان مصباحاً من النوع المضمون الذي ينطفئ تلقائياً ابتاعته السنيورا إسكافيتي بناء على رجاء خاص مني — ليحل محل الشيء الخطر الذي كانت تستعمله. وكانت النتيجة أنه انطفأ. وكان لمجرد تغيير الطبيعة من نور إلى ظلام سلطان على طبيعة جنارو الحيوانية الجاهلة، سلطان أقوى من أجلي مقتضيات العقل والمنطق.

وأدركت ببصيرتي لا ببصري — أنه زايل الغرفة وصحت بمستر ساندباتش: "هل مفتاح غرفة يوستيس في جيبك؟" غير أن مستر ساندباتش وليلند كانا على الأرض وأخطأ كل منهم رفيقه على أن جنارو، وضاع مزيد من الوقت الثمين في طلب عود ثقاب. ولم يكد مستر ساندباتش يقول أنه ترك المفتاح في الباب — احتياطاً فقد ترغب الآنستان روبنسن في زيارة يوستيس — حتى سمعنا ضوضاء على درج السلم. وهناك كان جنارو يحمل يوستيس وينزل به.

تدافعنا نحن حتى سددنا الممر، أما ما فقد خارت قواهما وانقلبا إلى بسطة السلم العليا.

وهتفت السنيور سكافيتي: "الآن سدت عليهما المسالك وليس لهما مخرج آخر.

وفيما كنا نصعد الدرج حذرين صدرت عن غرفة زوجي صيحة مروعة تبعها صوت سقطة شيء ثقيل على ممر الأسفلت. لقد قفزا من نافذتها.

وما إن بلغت الشرفة حتى رأيت يوستيس يقفز سور جدار الحديقة. وفي هذه المرة أيقنت أنه مقتول لا محالة، غير أنه استقر على شجرة زيتون — كأنه فراشة بيضاء..ومنها زلج إلى الأرض.

ولم تكد قدماء العاريتان تمسان كتل الطين المتجمدة حتى صرخ صرخة عالية لم أكن لأصدق أن صوت الإنسان يستطيع أن يرسل مثلها. ثم اختفى الصبي بين الأشجار.

فهتف جنارو الذي كان ما يزال جالساً على ممر الأسفلت: "لقد فهم ونجا، وتحول مصيره الآن من موت إلى حياة!".

وإننا ستعيد العشر الليرات بدلاً عن الاحتفاظ بها، وجهت إليه هذا الكلام رداً على أهانته إذ أني— لدى سماعي تلك الملاحظة المسرحية — لم أعد أتمالك نفسي.

فردني همس لا يكاد يسمع، قائلاً: "العشر الليات لي أنا". وشبك أنامل يديه على صدره ليحمي ذمار كسبه غير المشروع. وفيما هو يصنع هذا ترجح إلى أمام وانكفأ علي وجهه فوق الممر فلم يتكسر من أطرافه شيء وإن قفزةً من هذا الطراز ما يكون لها أبداً أن تقضي على رجل إنجليزي لأن السقطة لم تكن قوية. أما أولئك الإيطاليون التعسون فهم لا يتمتعون بقِوام القوة، لقد اختل شيء ما في جوارحه فمات.

كان الصباح ما يزال بعيداً. ثم أخذ نسميه يهب. وسقط فوقنا مزيد من أوراق الورد إذ نحمله إلى الداخل. وانفجرت صيحات الآسي من سكافيتي لدي رؤية جثة جنارو بينما كانت صيحات الصبي الهارب وقهقهته ما تزال تدوي هنالك في أسفل الوادي علي مقربة من البحر.

الجانب الآخر من السياج

أشار مقياس الخطي الذي أحمله إلى أن ترتيبي الخامس والعشرون. ومع أن التوقف عن المسير معيب جداً فقد جلست أحد شخوص "علامات" المسافات لأستريح لأنني كنت جد متعب. وكان الناس كلما تقدموني سخروا مني ولكني كنت أكثر جموداً من أن أمتعض. وحتى عندما سبقتني المربية الكبيرة مس إليزا دمبلي – وحضنتني وهي تمر بي على المثابرة – فإني لم أزد على أن ابتسمت ورفعت قبعتي.

وجال بخاطري أول الأمر أنني سأصبح كأخي الذي كان عليّ تركه إلى جوار الطريق العامة عند الزاوية، منذ سنة أو سنتين ... لقد بدد أنفاسه في الغناء وأفنى قوته في مساعدة الآخرين. أما أنا فقد كنت في طوافي أكثر منه تعقلا، ولم يقبض صدري الآن إلا رتابة الطريق العامة – تراب تحت قدمي وسياجات سمراء داكنة تتكسر على الجانبين، فيما أستطيع أن أذكر.

وقد سقطت مني أشياء كثيرة. وفي الواقع كانت الطريق تتناثر عليها الأشياء التي تسقط منا جميعاً، والتراب الأبيض يستقر عليها فلا تعود تبدو خيراً من الحجارة. وكانت عضلاتي منهوكة إلى درجة أنني لم أستطع أن أحتمل حتى ثقل تلك الأشياء التي تبقت معي. فزلجت، من فوق أحد وشاخص المسافات، إلى الطريق، وهناك رقدت منهوك القوي متجهاً بوجهي إلى السياج الكبير الذي لوحته الشمس راجياً أن أقر بالعجز.

أنعشتني نفحة من الريح لاح أنها صادرة عن السياج. فلما فتحت عيني تألقت ومضة من النور من خلال شبكة الغصون وأوراق الشجر الخامدة. ولما لم يكن السياج كثيفا كغيره فإني – في حالة ضعفي الوبيلة – تقت إلى أن أقحمته لأري ماذا في الجانب الآخر. ولم يكن أحد يراني وإلا لما اجترأت على التجربة. ذلك لأننا – نحن رجال الطريق – لا نسلم في أحاديثنا بأن هناك جانباً آخر على الإطلاق.

خضعت للإغراء على اعتبار أني عائد عما قليل. خدش الشوك وجهي واضطررت إلى أن أتخذ من ذراعي درعا معتمداً في التقدم على قدمي وحدهما وفي منتصف الطريق جال بخاطري

أن أعود أدراجي لأن الأشياء التي كنت أحملها اشتبكت كلها وانتزعت مني في أثناء اجتيازي كما أن ملابسي تمزقت. غير أني ألفيت نفسي محشوراً حشراً يجعل رجوعي مستحيلا، ولكني أخذت أزج بنفسي مقاوماً مقاومة عمياء كي أتقدم متوقعا في كل لحظة أن يخونني تجلدي وأن أهلك بين الرتم"[١].

وإذا بالماء البارد يغمر رأسي فجاءة ويطبق عليه. وبدا أني غارق لا محالة. سقطت من السياج في بركة عميقة ارتفعت آخر الأمر إلى سطحها أستصرخ للنجدة. وسمعت أمرأ ما في الجانب الآخر يضحك ويقول:" واحد آخر!". ثم انتشلت وألقيت – لاهثا–على الأرض الناشفة.

وظللت مخطوف البصر حتى بعد أن زال الماء عن عيني، لأني لم أصادف قط فضاء رحباً كهذا ولم تسبق لي رؤية الكلأ أو ضوء الشمس على نحو ما رأيتهما الآن. فالسماء الزرقاء لم تعد شقة مستطيلة كعهدي بها قبل، والأرض من تحتها ترتفع ارتفاعاً فجماً إلى التلال، وفي أحضان الربى دعائم عارية نظيفة تحتضن أشجار الزان، وتحت أقدامها المروج والغدران الصافية. إلا أن التلال لم تكن عالية. ونم المنظر على معني من أثر عمل الإنسان حتى لجمل أن يسمي متنزهاً أو بستاناً إن لم يكن في التسمية ما يوحي بأنه تافه أو محدود.

ولم أكد أثوب إلى رشدي حتى تحولت إلى منقذي قائلا:

" إلى أين يؤدي هذا المكان؟".

فقال ضاحكا: " إلى لا مكان. حمداً لله!".

وكان رجلا في الخمسين أو الستين من عمره، تلك السن التي لا نؤمن أصحابها في الطريق، غير أن حاله لم يبد منها سوء نية وقد كان صوته يحكي صوت صبي في الثامنة عشرة.

فصحت يتملكني، من إجابته، عجب أنساني أن أحمد له إنقاذ حياتي: "ولكن لابد من أنه يؤدي إلى جهة ما!".

فزعق في عدد من الرجال كانوا على صفحة التل:" يود أن يعرف إلى أين يؤدي!" فضحكوا بدورهم ولوحوا بالطواقي.

---

[١] الرقم (بفتحتين) نوع من الجر بذرة كالعدس، والواحدة: رقمه

لحظت إذ ذاك أن البركة التي ترديت فيها إن هي إلا خندق كالحلقة ملؤه الماء، ينثني يمنة ويسرة، وأن السياج يلازمه في اطراد. لقد كان السياج من تلك الناحية أخضر. وكانت تلوح من الماء الصافي جذوره يحوم السمك خلالها. وكان يحيط به ويتشابك معه الورد البري وغصون أشجار الرحالة، ولكنه كان سياجاً على كل حال. وما هي إلا هنيبه حتى زايلي الارتياح من الكلأ والسماء والشجر والسعداء من الرجال والنساء، وأدركت أن المكان، مع كل جماله وامتداده، لم يكن إلا سجناً.

سرنا بعيداً عن الحدود ثم اتبعنا صراطا يكاد يوازيه عبر المرج. ووجدت المشي عسيراً لأني كنت أحاول دواماً أن أسبق رفيقي. وأية جدوى في ذلك ما دام المكان لا يؤدي إلى أية جهة. وأنا، منذ تركت أخي، لم أسوّ بين خطوي وخطو غيري.

ألهيته بأن وقفت فجأة وقلت في اكتئاب:" الأمر جد مروع. لا يستطيع امرؤ أن يجد في السير، لا يستطيع أن يتقدم. والآن، نحن رجال الطريق....".

"نعم أعرف".

"كنت سأقول إننا نتقدم باطراد".

"أعرف"

"نحن ما ننفك نتعلم ونتوسع وننضج.... كيف تأبى أنني، حتى في حياتي القصيرة، رأيت كثيراً من التقدم: حرب الترنزفال – مسألة بيت المال–العلم المسيحي – الراديوم – وهذا المكان مثلا؟".

وأخرجت مقياس الخطي الذي أحمله ورأيت أنه ما يزال يشير إلى أن ترتيبي الخامس والعشرون، ولم أتقدم درجة واحدة.

"أوه، لقد توقف! وكنت في سبيل أن أريكه. وكان عليه أن يستمر في التسجيل طوال الوقت الذي سرت فيه وإياك، ولكنه لم يشر إلى تقدمي عن الخامس والعشرون".

فقال:" كثير من الأشياء نتوقف هنا عن العمل. وقد أتي رجل يوماً بجهاز "لي متفرد" فلم يشتغل".

"النواميس العلمية عامة في تطبيقها في أي مكان من العالم. ولابد من أن يكون الماء الذي

في الخندق هو الذي أفسد الآلة لأن كل شيء يشتغل في الظروف العادية. والعلم وتنازع السبق هما القوتان اللتان صيرتانا إلى ما نحن عليه".

وكان عليّ أن أتوقف عن الحديث كي أرد التحيات الطيبات على كل من كنا نمر بهم. كان بعضهم يغني والبعض يتحادث بينما يعمل آخرون في الحدائق أو الدراس أو صناعات أولية أخري. وبدت السعادة عليهم جميعاً. ولو استطعت نسيان أن المكان لا يؤدي إلى أية جهة لسعدت مثلهم.

وأفزعتني رؤية شاب جاء وعدا عبر طريقنا ونط سياجاً صغيراً في أسلوب رقيق وشق طريقه في حقل محروث ثم وثب في بحيرة وأخذ يقطعها سبحاً. هاك نشاطاً حقيقاً حدآني على أن أهتف: سباق خلوي! ولكن أين الآخرون؟

فأجاب زميلي:" ليس هناك آخرون". وعندما مررنا فيما بعد على بعض الكلأ العالي الذي جاء فيه صوت فتاة تغني لنفسها غناء عذبا قال مرة أخري:" ليس هناك آخرون". وقد حيرني تلف المحصول ودمدمت قائلا لنفسي: "ما معني كل هذا؟

فقال مجيبا:" لا معني له إلا ما يعنيه"، وكرر الألفاظ مستأنياً كأنني طفل.

قلت في هدوء: " مفهوم. ولكني لا أجاريك. فكل عمل عظيم يصبح عقيما ما لم يكونّ حلقة في سلسلة التطور. ومن واجبي ألا أغلو في اغتنام عطفك. وينبغي لي أن أعود إلى أي مكان في الطريق لأعمل على إصلاح مقياس الخطي".

فأجاب:" عليك أولا أن تري الأبواب الكبرى، فلدينا منها بضعة وإن لم نستعملها قط".

ذعنت في أدب. وما هو إلا القليل حتى بلغنا الخندق مرة أخري عند نقطة تقطعها فيها قنطرة. وفوق تلك القنطرة باب كبير أبيض كالعاج مركب إلى ثغرة في سياج الحدود. وكان الباب ينفتح إلى الخارج فصحت في دهشة، إذ منه يتصل بطريق تماثل تماماً الطريق التي زايلتها، طريق غزيرة التراب يقوم على جانبيها، على مدى النظر، سياجان من الغصون السمراء المتكسرة.

صحت قائلا:" تلك طريقي!".

فأغلق الباب وهو يجيب:" إنها ليست الجزء الذي قطعته من الطريق...

فمن هذا الباب الكبير خرجت الإنسانية، منذ أجيال لا تحصي، أول ما تملكتها الرغبة في المسير".

أنكرت هذا، ملاحظا أن الجزء من الطريق الذي زايلته لا يبعد أكثر من ميلين. إلا أنه أجاب في عناد الشيوخ:" إنها الطريق ذاتها. تلك هي البداية. ومع ما يبدو من أنها تجري بعيدا عنا كل البعد فإنها كثيراً ما تزدوج ولا تنأي أبداً عن حدودنا بل هي تمسها أحياناً". وانحني إلى جوار الخندق ورسم على حاشيته الرطيبة شكلا غريباً كوادي التيه. وفيما كنا عائدين عبر المروج حاولت أن أقنعه بخطئه.

"تزدوج الطريق بكل تأكيد في بعض الأحيان. إلا أن هذا يدخل في تدريبنا الرياضي. ومن ذا الذي يستطيع أن يجادل في أنها، في عمومها، تسير إلى أمام؟ نحن لا نعرف إلى أين تنتهي. فقد تؤدي إلى جبل ما يتسنى لنا فوقه أن نلمس السماء، وقد تعلو جرفاً يهوي إلي البحر. ولكنها على كل حال تسير إلى أمام. ومن ذا الذي يحدونا إلى المكافحة في سبيل التفوق–كل على طريقته الخاصة –كما يمدنا بالقوة الدافعة التي تعوزكم. أما ذلك الرجل الذي سبقنا، فالحق أنه أحسن الجري والقفز والسباحة. ولكن لدينا من الرجال من يقدر على الجري أو القفز أو السباحة خيراً مما يفعل. والتخصص يؤتي ثماراً تثير دهشتك. وتلك الفتاة، بالمثل، –"

وهنا قطعت الكلام فجأة وهتفت:" يا لله! أكاد أحلف أن التي هناك هي مس دمبلي بقدميها في البركة!".

واقتنع بأنها هي.

"مستحيل! لقد تركتها في الطريق. ثم إن عليها أن تحاضر هذا المساء في تمبردج ولز" وقطارها يقوم من شارع كمنن في الساعة – لقد توقفت ساعتي بطبيعة الحال ككل سيء آخر. إنها آخر من يحق له أن يبقي هنا".

"الناس يدهشون دوماً كلما لقي بعضهم البعض. وهم يجيئون من خلال السياج من كل جنس وفي وقت: عندما يسرعون في السباق، وعندما يتخلفون، وعندما يتركون كالموتى بلا حراك. وكثيراً ما أقف على مقربة من الحدود مصغياً إلي أصوات المارة الصادرة عن الطريق – وتعلم ما هي –وأتساءل هل يثني أحدهم جانباً، ويسعدني كثيراً أن أُعين أي أمري علي الخروج

من الخندق كما أعنتك. على أن تقاطر الناس على بلادنا بطيء وإن خلقت لكل أجناس البشر".

وإذ كنت أحسبه حسن القصد، فقد أجبته ملاطفاً:" للناس أهداف أخري ولابد لي من اللحاق بهم" وحييته تحية المساء، لأن الشمس كانت قد آذنت بمغيب، ولأني أزمعت بلوغ الطريق لدي هبوط الليل. غير أنه أزعجني بأن تشبث بي وصرخ قائلا:" ليس لك أن تذهب بعد" فحاولت التملص منه، إذ لا تجمعنا مصالح مشتركة، ولأن أدبه الجم أخذ يشق عليّ. ومع كل جهودي لم يحل الشيخ الممل بيني وبين الذهاب. ولما لم أكن متخصصاً في المصارعة فقد وجدتني مضطراً لإتباعه.

صحيح أنني لم أكن لأعثر، بمفردي، على المكان الذي دخلته، وأنني وددت أن يعود بي إليه بعد أن أشهد المناظر الأخرى التي كانت تشغل باله، ولكني كنت مصمما على ألا أبيت في الخلاء لريبتي فيه وفي الناس أيضاً مع كل ما يبدون من مودة. ومع أني كنت جوعان، فإني لم أشاركهم عشاءهم من اللبن والفاكهة. وكنت كلما ناولوني أزهارا أقذف بها بعيداً فور استطاعتي فعل ذلك دون أن يروني. ثم ما لبثوا أن رقدوا كالبهائم. بعضهم وحداناً على صفحة الجبل العارية، وبعضهم زرافات تحت شجر الزان. وعلى ضوء الشمس الغاربة البرتقالي، حثثت المسير مع مرشدي الثقيل الظل وقد برح بي التعب وأضناني الجوع، ومع ذلك تمتمت في صلابة قائلا: امنحني الحياة بما فيها من نضال وانتصار، وبما تحوي من خيبة وبغضاء، وبمعانيها الخلقية العمية وأهدافها الخفية!".

وبلغنا آخر الأمر مكاناً، فيه تقوم على الخندق المستدير قنطرة أخري، ويعترض خط سياج الحدود باب كبير آخر، يغاير الأول لأنه نصف شفاف كالقرن، ولأنه ينفتح إلى داخل. ومن خلاله رأيت، مرة أخري على الضوء الآخذ في الاضمحلال، طريقاً تحكي تماماً الطريق التي كنت زايلتها: رتيبة غزيرة التراب، على جانبيها سياجان، من الغصون السمراء المتكسرة، يمتدان إلى مرمي النظر.

وتملكني اضطراب عجيب لدي شهود هذا المنظر الذي لاح كأنه سلبني كل مقدرة علي ضبط نفسي: مر بنا رجل – عائد إلى الجبل ليبيت ليلته –على منكبيه منجل، وفي يده كور يحتوي سائلاً ما، فنسيت مصير البشرية ووثبت عليه، وملخت الكور من يده وأخذت أشرب.

لم يكن السائل أقوي من البيرة، إلا أنه – بسبب حالتي المضنية – تسلط علي في لحظة واحدة. وكما قد يحدث في حلم، رأيت الشيخ يقفل الباب الكبير وسمعته يقول:" هذه غاية طريقك، ومن هذا الباب الكبير ستدخل علينا الإنسانية، أو قل كل ما تخلف عنها".

ومع أن حواسي أخذت تغرق في لجة من النسيان، فقد بدا أنها تمتد قبل بلوغها إياها واستشعرت أغنية العنادل "١" السحرية، وأريج الدريس غير الربيّ والنجوم التي تثقب السماء الحائلة. أما الرجل الذي سرقت بيرته فقد أرخاني في رفق لأنام حتى يذهب تأثيرها، وعندما فعل هذا أدركت أنه أخي.

---

(١) العنادل جمع عندليب وهو طائر صغير حسن الصوت.

الأمنيبوس السماوي

-١-

كثيراً ما كان الصبي – المقيم في أجاثوكس لودج رقم ٢٨، بكنجهام بارك رود، سربتون – يتحير من عمود العلامة القديم القائم قبالته تقريباً. وقد سأل أمه عنه، فأجابت بأنه دعابة، بل دعابة غير سائغة صنعها، لسنوات عديدة خلت، شباب خبيث، وبأن من واجب الشرطة إزالته. ذلك أن عمود العلامة كان يتسم بسمتين غريبتين: الأولي، أنه يشير إلى سكة فارغة. والثانية، أنه نقش عليه بمداد حائل عبارة:" إلى السماء".

فسأل: "وأي نوع من الشباب كانوا؟".

" قال لي أبوك، فيما أظن، إن أحدهم كان يكتب شعراً وطرد من الجامعة، ومسّه الضر من أمور أخري. أجل، حدث هذا منذ عهد بعيد، وعليك أن تسأل عنه أباك، وسوف يجيبك بمثل ما حدثتك به، أي أن عمود العلامة أقيم على سبيل الدعابة".

"وإذن فلا معني له على الإطلاق"

وهنا أرسلته إلى الطبقة العليا من المنزل ليرتدي أحسن ملابسه، لأن أسرة بونس مدعوة لتناول الشاي، وأن عليه هو أن يناول حمالة الفطائر.

فجال في خاطره – وهو يتلوى في سرولته البالغة الضيق – أن يلجأ إلى أخف الضررين وهو أن يسأل، عن عمود العلامة، مستر بونس. ذلك لأن أباه – وإن يكن شديد الرفق – يسخر منه ويضج ضاحكاً كلما أخذ، هو أو أي صبي غيره يسأل أو يتكلم. أما مستر بونس، فهو رفيق ورزين في وقت معاً. وله بيت جميل، ويعير الناس كتبا، وهو وكيل كنيسة ومرشح لمجلس الإقليم وقد قدم إلى مجلس المكتبة الحرة هبات لا حصر لها، وهو رئيس الجمعية الأدبية، ويستقبل في بيته بعض أعضاء البرلمان، وقد يكون إجمالا أوفر الأحياء حكمة.

ومع ذلك كله، فإن مستر بونس لم يزد على القول بأن عمود العلامة دعابة، دعابة لشخص اسمه شلي.

فصاحت أمه قائلة:" يقيناً! لقد قلت لك ذلك يا عزيزي، هكذا كان أسمه".

وسأل مستر بونس: ألم تسمع قط بشيء؟"

فأجاب الصبي:"كلا" ودلي رقبته.

ولكن أليس في البيت شلي؟"

فهتفت السيدة في اهتياج شديد:" أجل أجل، نحن لسنا عديمي الثقافة إلى هذه الدرجة يا مستر بونس... اثنان على أقل تقدير: الأول هدية عرس، والثاني بالحروف الصغيرة في إحدى الغرف الزائدة".

فقال مستر بونس وهو يبتسم ابتسامة متوانية:" أعتقد أن عندنا من شلي سبع نسخ". ثم نفض فتات الفطائر من فوق كرشه ونهض وابنته للانصراف.

وودّعهما الصبي طوال الطريق إلى باب الحديقة الكبير، وذلك بعد أما ماوت إليه أمه بلمزة من لحظها. إلا أنه لم يعد أدراجه إلى المنزل فور انصرافهما، بل تطلع، هونا ما، إلى بكنجهام بارك رود مصعداً منحدرا.

وكان أبواه يسكنان آخره من اليمين. وقد هبط مستوي البيوت هبوطاً مباغتاً بعد المنزل المرموق ٣٩، حتى إن المرقوم ٦٤ لم يحو مدخلاً خاصاً بالخدم. غير أن منظر الطريق جميعها في تلك اللحظة اتسم بشيء من الجمال، لأن الشمس كانت لتوها قد غربت في بهاء. وقد غرق تفاوت البيوت في لجة من الغسق الزعفراني، وغردت صغار الطير، وزقزقت كباره شادية في ثنايا الأخدود، ذلك الأخدود البديع الذي انتزع من سربتون كل جمالها، والذي تسربل —كسائر الأودية المرتفعة — ببهاء شجر الشوح"[1]" والقان "[2]" الفضي وزهر الربيع. وهذا الأخدود هو أول ما أثار رغبات الصبي الدخيلة، رغبات في شيء مختلف قليلا لا يعرف له كنهاّ، قد تعاوده كلما سطع نور الشمس على الأشياء كما حدث بعد ذلك اليوم، رغبات لا تفتأ تعتمل في فؤاده صعوداً وهبوطا حتى يغمر كل جوارحه شعور غريب، حتى لكأنه يحاول أن يمنع نفسه من البكاء. وقد زادت حماقته في تلك الأمسية، لأنه انفلت عبر الطريق صوب عمود العلامة

([1]) الشوحة (بفتح الشين) شجرة تكون أغصانها على هيئة مخروطية تشبه شجر الزان

([2]) القان أو التبولا شجر تصنع مني القسي.

متجها إلى السكة الخالية.

تمتد السكة بين حائطين عاليين، أسوار بساتين إيفا نهو"[1]" وبللا فستا "[2]"

على التوالي، وتنبعث منها رائحة خفيفة طوال الطريق التي قد يبلغ طولها عشرين ياردة بما فيها المنعرج الذي في نهايتها. ولم يكن مستغرباً أن يتوقف الغلام وأن يهتف قائلا:" ليتني أستطيع أن أركل هذا الشلي". ثم تطلع متكاسلا إلى ورقة ملصقة على الحائط، لا تخلو من غرابة، وقرأها مدققاً – قبل أنه يقفل راجعاً – فيما يلي:

س– ش.ا.ط. م.

تعديل مواعيد القيام

بسبب انعدام الرعاية اضطرت الشركة آسفة إلى إرجاء قيام مركباتها مرة في كل ساعة، وإلى الاقتصار على أمنيبوسات شروق الشمس وغروبها التي تقوم في مواعيدها كالعادة. والجمهور مرجو بأن يعاضد النظام الذي سن لمصلحته. وتشجيعاً على ذلك ستصدر الشركة، أول مرة.

تذاكر ذهاب وإياب

"يسري مفعولها يوماً واحداً لا غير" يمكن الحصول عليها من السائق. وهي تذكر الجمهور بأن تذاكر العودة لا تصرف في آخر الخط، وبأنها لن تلتفت إلى الشكاوى التي تقد في هذا الشأن، كما أنها ليست مسئولة عن أي إهمال أو حماقة تصدر عن التذاكر، أو عن تصريف أية قوة قاهرة.

عن الإدارة

لم تسبق له قط قراءة ذلك الإعلام، كما أنه لم يستطيع أن يتصور إلى أي مكان في "س" يذهب الأمنيوس.و "س" ترمز بطبيعة الحال لسربتون.

([1]) إيفانهو قصة تاريخية شهيرة للسير ولتر سكوت غرض فيها للمنافسة بين السكسون والنر منديين بعد أن غزا إنجلترا وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ وفي القصة حصن داخل أسوار شاهقة عنيدة أريد غزوه.

[2]) بللا فستا أو بل فو (أي المنظر الجميل) قرية في مقاطعة السين وألواز بالقرب من فرساي شهدت حياة رفاهة ومرح وكان بها صرح جميل شيدته في سنة ١٧٤٨ مدام دي بمبادور محيظة لويس الخامس عشر، وبهذا الاسم كذلك يوجد بلفدير وهو صر بالفاتيكان في روما به متحف، وآخر مماثل في فينا. وكانت لكل هذه القصور أسوار عالية.

و"ش.أ.ط" ترمز لشركة أمنيوس الطرق. ولكن لأي شيء ترمز "م"؟ أترمز "المحلة، وملدن"؟ جائز. أو لعلها تركز ل"المدينة". ومهما يكن فلا لهذه الشركة في منافسة الشركة الجنوبية الغربية. وانعكس في ذهن الصبي أن الأمر جمعيه يجري على سنين"[1]" غير تجارى يائس، خلافاً لما هو متبع في خطوط المركبات الأخرى. لماذا لا تصرف تذاكر العودة في نهاية الخط؟ وأية ساعة تلك التي تقوم فيها! ثم خلص إلى أنه ما لم يكن الإعلام دعابة، فإن مركبة أمنيوس لابد من أن تكون قد قامت تماماً في الوقت الذي فيه كان يودع آل بونس ... حملق في الأرض، من خلال الظلمة التي أخذت تتكاتف، فرأي عليها ما قد يكون – أو لا يكون – آثار المسير عجلات. ومع ذلك لم تخرج أية سيارة من الطريق. وهو لم ير قط مركبة أمنيوس في بكنجهام رود في أي وقت. كلا، لابد من أن تكون دعابة كدعابة عمود العلامة أو كالقصص الخرافية، أو كالأحلام التي قد يستيقظ منها فجأة في الليل. فتنهد ثم انتقل من السكة رأساً إلى حضن أبيه.

أوه، إلى أي حد ضحك أبوه! وصاح قائلا:" مسكين يا بوبسي مسكين! ديدامز... ديدامز... تصوري يا ديدامز أنه كان يريد أن يسير على قدميه حتى وهلت أمه –وهي تتلوي من الضحك–على درج أجاثوكس لدج لاهثة وهي تقول:" لا يابوب، لا تكن مهذاراً! إنك تقتلني! أوه، دع الصبي وشأنه".

ولبثت تلك الدعابة طوال الأمسية، وقد التمس الأب أن يصحبهم – هو أيضاً – إلى هناك. أكان مشياً جد متعب؟أيلزم المرء أن يمسح حذاءيه على وطاء الباب"[2]"؟ وذهب الصبي إلى فراشه يكتنفه الضني والحزن وهو يحمد الله على شيء واحد، ذلك أنه لم يتحدث عن الأمنيبوس بكلمة واحدة. نعم كانت دعابة، ولكنها في أحلامه أخذت تدريجاً تلبس مسوح الحقيقة، فيما عدا أن شوارع سربتون–التي رأي الأمنيبوس ينطلق في شوارعها – هي التي لاحت دعابات وأشباحا. وفى الصباح الباكر صحا صارخاً لأنه لمح من مكان وصوله.

---

(1) السنن (بفتح السين) الطريقة.

(2) ممسحة الأرجل

وأشعل عود ثقاب فلم يضيء ساعته فحسب، بل أضاء كذلك تقويمه، فرأى أن بزوغ الفجر لم يبق عليه غير نصف ساعة. إلا أن الظلام كان حالكا، لأن الضباب في تلك الليلة جاء من لندن ولف سربتون كلها بين أحضانه. ولكنه، مع ذلك، قفز خارج الفراش وارتدي ملابسه، لأنه صمم على أن يعرف بشكل حاسم أيهما الحقيقي: الأمنيبوس أم الشوارع. وفكر:" سأجن على حالٍ ما حتى أعرف". وما هو إلا القليل حتى كان يرتعد في الطريق تحت مصباح الغاز الذي كان يحرس مدخل السكة.

ودخول السكة في حد ذاته يقتضي بعض الشجاعة، لا بسبب شدة الظلمة فحسب، بل كذلك لأنه فهم الآن أن من المستحيل أن يكون نهاية الخط الأمنيبوس. ولولا أنه سمع شرطياً يدنو في ثنايا الظلام لتعذرت عليه المحاولة تعذراً باتاً.

وبعد لحظة جرب وأخفق ... لا شيء، لا شيء غير سكة خالية، وصى بالغ الحماقة مبهوت على أرضها القذرة. دعابة ما في ذلك شك. وحزم أمره قائلا:" سأخبر أبي وأمي. وأنا أستأهل أن يعرفا. إنني أحمق إلى درجة لا أستحق معها الحياة". وعاد إلى باب أجاثوكس لودج.

وهنا تذكر أن ساعته تسرع، وأن الشمس لم تكن طلعت، وأنها لن تطلع قبل دقيقتين. وفكر متهكما:" أعط الأمنيبوس كل فرصة"

وعاد إلى السكة، وهناك كان الأمنيبوس.

-٢-

كان الأمنيبوس يجره حصانان ما برح البخار – حتى آنئذ – يتصاعد من جوانهما. وكانت أشعة مصباحيه الكبيرين تنفذ من خلال الضباب وتقع على حائطي السكة، فترتد بيوت العناكب والطحالب، التي تعلقت بها، نسيجاً من أرض الجن. وقد لف السائق نفسه – حيثما اتفق – في دثاره. مواجهاً الحائط الغفل من العالم أما كيف تأتىّ له المساق على هذا النحو من المهارة والهدوء، فكان بين الأمور الكثيرة التي لم يتوصل الصبي إلى كشفها، كما أنه لم يتصور أنه في استطاعة السائق الخروج من السكة.

ومن خلال الجو العكر الداكن، ارتعش صوته إذ يقول:" عفواً، عفواً، هل هذا أمنيوس؟"

فرد السائق دون أن يستدير:" أمنيوس!" وخيمت لحظة سكون. ثم مر الشرطي وهو يسعل عن كثب من مدخل السكة. فربض الصبي في الظلمة لأنه لم يرد أن يكشفوا أمره، ولأنه فوق ذلك أيقن أنه تصرف تصرف قرصان ولا شيء غير ذلك، متعللا بأن من يقصد إلى مكان مجهول غريب كهذا في وقت كهذا، لا يعدو أن يكون كذلك.

وقال وهو يحاول أن يتظاهر بعدم الاكتراث:" متى تبدأ الرحلة على وجه التقريب؟".

"لدى بزوغ الشمس".

وأي مسافة تقطع؟".

"الطريق كلها".

"وهل يسعني أخذ تذكرة إياب أعود بها الطريق كلها؟".

"لك ذلك".

"أنا لم يصح عزمي تماماً على المجيء"٠

فلم يجب السائق.... لابد من أن تكون الشمس قد بزغت لأنه فك الكابح "الفرملة" وقفز الصبي إلى داخل الأمنيبوس قبل قيامه مباشرة.

كيف؟ هل ستدر؟ المكان هناك غير متسع. هل سار إلى أمام؟ هناك حائط غفل من المعالم. ولكنه مع ذلك يتحرك، يتحرك في سرعة عظيمة بين الضباب الذي اصفر بعد سمرة. وإلى ذلك، فقد خفت"[١] الصبي عندما فكر في الفراش وفى الفطور الدافئين وتمنى لو لم يجئ، لأن أبويه لم يكونا ليوافقا على مجيئه، وود أن يرجع إليهما لو لم يحل الجو بينه وبين ذلك. وأمضّته الوحدة لأنه الراكب الوحيد، ولأن الأمنيبوس بارد عفن بعض الشيء، وإن يكن حسن البناء. فحسب سترته ولف نفسه فيها. وفى أثناء ذلك اتفق أن تحسس جيبه، فوجد أنه فارغ وأنه نسى كيس نقوده.

فصاح:" توقف! توقف!". وإذ كان الأدب من شيمه رفع بصره إلى لوحة الإعلام، المدهونة بالطلاء، كي يتسنى له أن ينادي السائق باسمه:" توقف يا مستر براون، أناشدك أن

[١] الخفوت (بضم الخاء) الضعف والسكون والظهور من غير صحة.

تتوقف! توقف متفضلا!"

ولم يتوقف مستر براون بل فتح نافذة صغيرة وأطل على الصبيّ. ولقد كان وجهه مباغتاً ينم على الرفق والتواضع.

" يا مستر براون، لقد نسيت كيس نقودي بالمنزل، ولست أملك أية نقود، وليس في وسعي إذن أن أدفع ثمن التذكرة، فهلا تفضلت بأخذ سأعتى؟ إنني في مأزق رهيب".

فأجابه السائق بقوله:" تذاكر هذا الخط مفردة كانت أو مع الإياب–لا سبيل إلى ابتياعها مقابل عملة تصك في هذه الدنيا. والكرونومتر"[١]"وإن واست شرلمان"[٢]" في تهجداته وقيس بها هجوع لورا"[٣]"، لن تستطيع – بتجول مفاجئ أياً كان نوعه – أن تحرز الفطيرة المزدوجة التي تفتن السربيروس"[٤]" الذي لا أنياب له!". قال ذلك وناول الغلام التذكرة. وفيما كان الصبي يقول:" شكراً" استأنف الكلام قائلا: "وما الادعاءات الاعتبارية إلا زهو، وأعلم ذلك عن يقين، وعلى هذا فلا محل للمؤاخذة عليها إذا خرجت من بين شفاه ضاحكة. ولعلها تفيد، على صورة ما دنيا تشابهت فيها الأسماء واختلفت معانيها. ذلك لأنها تعين على التمييز بين رجل ورجل. وإذن فاذكرني على أنني سير توماس براون".

قال، وكان قد سمع بأولئك السادة السواقين:" أعندك لقب"سير"؟ أوه، أنا آسف! لقد أحسنت إلى بإعطائي التذكرة دون مقابل. ولكن – إذا استمرت الحال على هذا المنوال – هل يوفر لك أمنيوس كسباً؟"

"كلا، فهو لم يقصد به الكسب. وأمنيوسي به عيوب كثيرة. فقد ركب – بطريقة جد عجيبة – من أخشاب أجنبية، ووساداته تداعب غزارة المعلومات بدلاً من أن توفر الراحة. وخيلي لا تطعم في مراعى هذا الزمان الدائمة الخضرة، وإنما على برسيم اللاتينية ونجيلها المجففين. والكسب في هذا. ومهما يكن فهذا العيب لم يقصد قط ولم يدرك قط".

فقال الغلام وهو أقرب ما يكون إلى اليأس." مرة أخري، أنا متأسف" وبما أن السير

(١) الكرونومتر ساعة تقيس الوقت في دقة بالغة.

(٢) شرلمان أو شارل الأول أو الكبير هو ملك فرنسا وإمبراطور الغرب من ٧٦٨ إلى ٨١٤.

(٣) لورا: إحدى محظيات لويس الخامس عشر

(٤) السر بيروس: الكاب الذي كان يحرس مدخل جحيم الوثنيين وله ٣ رءوس.

توماس بدا مكتئبا وبما أنه خشي أن يكون هو السبب في اكتئاب الصبي ولو لحظة واحدة، فقد دعاه إلى الصعود والجلوس إلى جواره في مقصورة السائق، وسافرا معاً في خلال الضباب الذي أخذ الآن يبيض بعد اصفرار. ولما لم تكن في الطريق دور تحتم أن يكون ذلك المكان إما تبني هيث أو ومبلدُن كومن.

" أكنت دائماً تعمل سائقاً؟".

"كنت يوماً طبيباً".

"ولماذا عدلت؟ ألم تكن كفواً؟".

"كان نجاحي محدوداً في إبراد الأجساد، وتقدّمني من مرضاي عشرات وعشرات. أما إبراء الأرواح فقد كان نجاحي فيه فوق مأمولي وأهليتي.

فتمم الصبي:" الروح المتقززة.... إذا غربت الشمس، والشجر دونها، ثم سيطر الاستهجان فجأة على كل جارحة فيك، أتلك هي الروح المتقززة!"

"أبهذا شعرت؟".

"كيف؟ نعم".

وبعد لحظة سكوت أخبر الغلام بالقليل بل بالقليل جدا عن نهاية الرحلة. غير أنهما لم يثرثرا كثيرا لأن الصبي كان كلما أحب امرءا عمد في حضرته إلى الإمساك عن الكلام. وكان هذا، فيما استكشف، دأب السير توماس براون وكثيرين من الذين عرفهم بعد. ومهما يكن فقد سمع عن الشاب شلي – الذي صار الآن شخصية ذائعة الصيت والذي يسوق مركبة يملكها – كما سمع عن بعض السائقين الأخر الذين يعملون في خدمة الشركة. وفى هذا الوقت أخذ الضوء يقوي، وإن لم ينقشع الضباب الذي أضحى الآن أقرب إلى السديم. وكان أحياناً ينساب بينهم متدفقا كأنما هو بعض سحابة. وكان صعودهم يحير الألباب كذلك، لأن الحصانين كانا – في مدي يزيد على الساعتين–يجذبان الطوق – ولو كان مقصدهما "تشمندهل" لتحتم أن يبلغا القمة منذ أمد بعيد. ولعل هذا المكان هو إبسون أو لعله نورث داونز. ومع ذلك فقد لاح الهواء أعنف من الهواء الذي يهب على كليهما. أما مكان الوصول فقد سكت السير توماس براون عن ذكر اسمه.

قصف.

قال الصبي:" وحق جوف "[١]" هذا رعد، وما هو ببعيد عنا. استمع إلى قصفه، إنه كالجبال تخر هدآ".

وتخيل أبويه في غير جلاء: زعم أنهما جالسان إلى المائدة يأكلان المقانق "[٢]" مصغيين إلى الرعد، ورأى مكانه خاليا. ثم أثيرت الأسئلة ونذر الانزعاج والنظريات والدعابات والتأسيسات، كما رأى أنهما ينتظران عودته لتناول الغداء، وما هو بعائد لا إلى الغداء ولا إلى الشاي. وإنما إلى العشاء. وهكذا يختتم يوم شروده. ولو أنه أحضر كيس نقوده لابتاع لهما الهدايا، فليست المشكلة إذن أنه كان عليه أن يعرف ما الذي سيبتاعه لهما.

قصف.

جاء الهزيم يصحبه الوميض، وارتعش السحاب كأنه كائن حي، وانطلقت أشرطة منن السديم المتمزق مارة بهما. فاستفهم السيد توماس براون:" أخائف أنت؟".

" ما الذي يخشى منه؟ أو ما يزال المدى بعيداً؟".

وتوقف حصانا الأوتوبيس كما قد تنفجر أكره من نار وتفرقع في جلبة يصحبها طنين يصم الآذن كطنين مطرقة الحداد، فقد تهشمت السحب جميعا.

"اسمع يا سير توماس! لا أريد أن أقول: انظر. سنحظى بمنظر آخر الأمر. لا. أريد أن أقول: اسمع هذا يحكى صوت قوس قزح".

وخمد الصوت في همهمة بالغة الخفوت، دونها همهمة أخرى بدأت تنمو وتمتد، مستفسرة في منعرج أخذ يتسع في غير تنوُّع. وفى مثل هذا المنعرج كان قوس قزح ينتشر من سنلبك الحصانين في السديم المتبددة.

" يا للجمال! أية ألوان هذى! وأين ينتهي ظهورها؟ إنها أقرب شيء إلى أقواس قزح تلك التي يسعك أن تطأها. بل هي أقرب إلى الأحلام".

---

[١] جوف أو جوبيتر أ المشترى إله الآلهة عند قدماء الإغريق.

[٢] المقانق المعو المحشو المعروف بالمبار.

ونما اللون والصوت معا. وأقام قوس قزح من نفسه قنطرة عظيمة. وتدافعت من تحته سحب نفذ فيها القوس، ولكنه مع ذلك اطرد نموه وتقدم حتى قهر الظلمة، إلى أن مس شيئا بدا أصلب من السحاب.

ووقف الصبي وهتف" ما ذاك الذي هناك في العراء؟ وعلى أي شيء يرتكز بعيداً في الطرف الآخر؟"

وتحت أشعة شمس الصباح، لمعت هواة تلقاء الخليج–أو لعلها دروب – أوه، انظر من خلال الأجراف "[١]" إلى هذه السلسلة من الصخور الداخلة في البحر. أرى أناسا! أري شجرا!"

فهمس السير توماس:" انظر تحت أيضا. لا تغفل العراف أتشيرون "[٢]".

غضَّ الصبي بصره إلى ما يلي ألسنة لهب قوس قزح، التي كانت تلعق عجل الأمنيبوس. وقد صفا الخليج كذلك، وفى أعماقه جرى نهر أبديّ.

وتسلك شعاعه واحدة وطرقت بركة خضراء .... ورأى، وهم يجاوزونها، ثلاث صبايا يسحبن تحت سطح الماء، تغنين وتلعبن بشيء يتألق كالخاتم.

فهتف: "أيتها الصبايا اللائي يغمرهن الماء...."

فأجبن:" أنت يا من يعلو القنطرة....".

وعلى حين غرة سمع عزف موسيقى:" أنت يا من يعلو القنطرة. سعد حظك الحق في الأعماق والحق في عليين"

ونادي:" يا من تسبحن في الماء. ماذا تفعلن؟".

فأجاب السير توماس السير توماس بروان:" إنهن يتسلين باللعب بالذهب الذي في حيازتهن". ووصل الأمنيبوس.

---

[١] جمع جرف

[٢]) أتشيرون – في الأساطير الإغريقية – نهر في جهنم لا يقوي أحد على سبحه مرتين

-٣-

عوقب الصبي بحبسه في غرفة الأطفال بمنزله في أجاثوكس لودج ليحفظ شعراً .... قال أبوه:" يا بني. يسعني أن أغفر كل شيء إلا الكذب". وضربه بالعصا قائلا مع كل ضربة:" ليس ثمة أمنيوس ولا سائق ولا قنطرة ولا جبل. أنت منقطع عن المدرسة تتسكع في الطرق. أنت كذاب". وكان أبوه يستطيع أن يقسو عليه أحياناً.... وتوسلت أمه أن يبدي أسفه على ما بدر منه، ولكن نفسه لم تطاوعه... وكان هذا اليوم أعظم أيام حياته مع الضرب الذي أصابه، والشعر الذي حفظه في نهاية اليوم.

عاد مع الغروب تماما. ولم يكن السائق هذه المرة، السير توماس براون، بل صبية كلها دعابة هادئة.... تكلما عن الأوتوبيسات واللندوهات "١" التي تتسع لأربعة ركاب... كم لاح صوتها الحنون بعيداً الآن! مع أنه لم يتركها عند بداية السكة إلا منذ فترة تبلغ الثلاث الساعات أو تكاد.

كلمتْه أمه من وراء الباب قائلة:" يا عزيزي، عليك أن تنزل ومعك كتاب الشعر!".

ونزل فألقى مستر بونس مع أبيه في حجرة التدخين، وكانت وليمة عشاء.

قال أبوه عابساً:" هذا هو الرحالة العظيم! هذا هو السيد الذي يسوق الأمنيبوس فوق أقواس قزح، والسيدات الصغيرات تغنّينه."، وضحك مغتبطاً بالمعيمه

فقال مستر يونس مسبقا: هناك، على كل حال، شيء يشبه هذا بعض الشبه في فاجتر ومن الغريب أنك تجد في أفكار بعض الأميين قبساً من الحقائق الفنية. وهذه الحالة تسترعي انتباهي، فرخص لي المرافعة عن المذنب. ولقد مررنا كلنا بمرحلة الخيال أليس كذلك؟

قالت أمه:"اسمع كيف يترفق مستر بونس "فقال أبوه:

"حسن جدا. فليث لقصيدته، وفي هذا الكفاية. وسيذهب يوم الثلاثاء لدي أختي وستشفيه بنفسها من هذا التسكع في الطرقات "ضحك". اتل قصيدتك ".

---

[١] اللندو مركبة ذات مقعدين طويلين، تجرها الخيل.

[٢] فاجتر (١٨١٣ – ١٨٨٣) مؤلف غنائي وملحن ألماني عبقري له فضل في تطوير الموسيقي ولا سيما ما يخص الأوبرا.

بدأ الغلام: "وأنا أقف بمعزل — في جهل جبار "

فضحك أبوه ثانيه ورعد قائلا: "هذا البيت من الشعر يخصك يا بني "وأنا أقف بمعزل — في جهل جبار" لم أكن أعرف بتاتا أن لهذه الأبيات مغزى. أن هذا البيت ليصفك وصفا دقيقا ... هاك يا بونس، أنت تستسيغ الشعر، فاسلكه فيه بينما أحضر أنا الشراب ".

قال مستر بونس: "أجل. على بكيتس"[١]. دعه يسمعني ما يحفظه من كيتس ".

وعلى هذا ترك الرجل الحكيم والصبي الجاهل وحدهما في حجرة التدخين بضع لحظات.

""وأنا أقف —بمعزل—في جهل جبار، أحلم بك وبالسايكيدز"[٢]كمن يجلس على الشاطئ ويتوق إلى زيارة —"".

"مضبوط جدا ... إلى زيارة أي شيء؟

وتلا الصبي من قول الشاعر ""إلى زيارة درافيل المرجان في البحار العميقة" "، وانفجر باكيا.

"كفي كفي! "لأن.ي؟".

"لأن ...لأن كل هذه الكلمات —التي لم تكن في نظري من قبل إلا سجعا — ليست ألا وصفا لحالتي بعد عودتي ".

فالقي المستر يونس ديوان كيتس، وقد استرعت نظره حالة الصبي أكثر مما كان يقدر، وهتف: "أنت؟ هذه القصيدة تصفك أنت؟" .

"نعم. انظر إلى ما يلي" على شواطئ الظلام يوجد النور، كما أن الوهاد تبدي الخضرة التي لم تطأها أقدام الناس". هكذا هي يا سيدي. كل تلك الأشياء صحيحة ".

قال المستر يونس مغمض العينين: "ما شككت في ذلك أبدا ".

"أنت. أفأنت تصدقني أذن؟ أنت تصدق حكايتي عن الأمنيبوس والسائق والعاصفة وتذكرة الذهاب والإياب، تلك التي ظفرت بها من دون أن أدفع لقاءها شيئا ".

"صهٍ صهٍ! لا تزدني من نسج خيالك يا ولدي. لقد قصدت أنني ما شككت أبدا في

---

[١]كيتس شاعر إنجليزي (١٧٩٥ – ١٨٢١).

[٢] السايكليدز جزائر الأرخبيل اليوناني تحف بجزيرة دبلوس، تشتهر بالأنبذة وصيد السمك والإسفنج.

صدق جوهر القصيدة. وستفهم مقصودي يوما بعدما تكون قد وسعت دائرة مطالعاتك ".

"ولكن هذه هي الحقيقة يا مستر بونس. على شواطئ الظلام يوجد ضياء، وقد شهدت سطوعه. ضياء ورياح ".

فقال مستر بونس:"هذا هراء ".

"لو أني بقيت! لقد أغروني: طلبوا إلى التخلي عن التذكرة، لأن المرء أذا فقدها تعذر غليه الرجوع، وطالبوني بها من النهر فتملكني الأغراء بطبيعة الحال، لأني لم أشعر بالسعادة قط كما شعرت بها بين تلك الوهاد. ولكني مع ذلك فكرت في أمي وأبي وفي ضرورة أحضراهما، على إنهما لم يكونا ليجيئا وأن بدأت الطريق قبالة بيتنا. ولقد حدث كل شيء حسبما أنذرني الناس هناك، وكذبني المستر بونس كما كذبني الجميع، وضربت بالعصا، وان تتاح لي رؤية ذاك الجبل بعد ".

قال المستر بونس فجأة وهو جالس منتصب القامة غلي كرسيه: "وما ذاك الذي ذكرته عني؟"

"حدثتهم عنك وعن مهارتك الفائقة وعن عدد الكتب التي تقتنيها، فقالوا :"يقينا سوف لا يصدقك المستر بونس"".

"اختلاف وهراء يا صديقي الصغير. لقد أضحيت قليل الحياة. وأنا—حسن! – أنا سوف أحسم الأمر بنفسي. ولكن إياك أن تقول كلمة واحدة لأبيك. سأشفيك. سآتي بنفسي إلى هنا في مساء الغد وآخذك إلى نزهة سيرا على الأقدام. وعندما تغرب الشمس سنصعد تلك السكة التي تواجهنا وتتصيد أمنيبوسك، أنت أيها الولد الصغير الأبله".

وظهر علي وجهه الجد لأن الصبي لم يرتبك، بل أخذ ينط حول الحجرة منشدا: "وأفرحتي، لقد قلت لهم أنك سوف تصدقني. سنركب معا فوق قوس قزح. لقد قلت لهم أنك سوف تأتي".

ومع ذلك، هل يمكن أن يكون في الحكاية شيء ما؟ فانجر، كيتس ، شلي، سير توماس براون، لأمراء في أن القضية تستدعي الانتباه.

وفي مساء اليوم التالي لم يغفل الميتر بونس الذهاب إلى أجائوكس لودج مع أ المطر كان يهطل مدرارا.

وكان الصبي على أهبة الاستعداد، وهو يغلي من الانفعال، ويمرح هنا وهناك في هيئة كادت تثير غيظ رئيس الجمعية الأدبية.

وانعرجا هابطين بكنجهام بارك رود. ولما رأيا أنهما في مأمن من عيون الرقباء، اتخذا سبيلهما منفلتين إلى السكة، وكان طبيعيا — إذ كانت الشمس في سبيلها إلى الغروب — أن يلتقيا بالأمنيوس رأسا.

وهتف المستر بونس: "يا الله! يا لرحمة السماء!".

لم يكن ذاك هو الأمنسيوس الذي ذهب فيه الصبي أول مرة، لا ولا ذاك إلى آب فيه. فلقد كان يجره من الخيل ثلاثة: أسود وابيض ورمادي وهو خيرها جميعا. وكان السائق — الذي استدار لدي ذكر الرحمة والسماء — رجلا شاحب اللون ذا فكين مخيفين وعينين غائرتين. ثم أخذ يرتعد ارتعادا عنيفا. وقفز الصبي داخلا.

وهتف المستر بونس:" هذا مستحيل، أو يمكن المستحيل؟"

"أيها السيد. ادخل أيها السيد، أنه أمنيوس بالغ الجمال، أوه، هاك اسمه: دان سموان"[١]"

وقفز المستر بونس داخلا كذلك. وأقفلت الباب تواً عصفة ريح، وأنزلت هزتها شماسات النوافذ التي كانت زنبركاتها ضعيفة جداً.

"دان! أرني... يا لرحمة السماء، نحن نتحرك".

وصاح الصبي صيحة الفرح" هوراي".

واضطرب المستر بونس لأنه لم يقصد أن يخطفه أحد. ثم إنه لم يستطيع أن يعثر على مقبض الباب أو يرفع أستار النوافذ إلي أعلي، إذ كان الأمنيبوس معتماً جداً، وكان الليل قد عم الأرجاء خارجه عندما أشعل عود ثقاب، وكان الأمنيبوس سريعاً.

" مغامرة مشهورة لا تنسي". قال هذا الكلام وهو يتفحّص — من الداخل — الأمنيبوس الذي كان عريضاً رحب الأرجاء مشيداً في تناسق تام، بحيث يوائم كل جزء منه سائر الأجزاء. وقرأ فوق الباب "وكان مقبضه من الخارج": " دع الكبرياء أيها الداخل، دع كل أنواع الأمل".

---

[١] ترجمتها الحرفية برميل شخص ما.

هذا ما كان مكتوباً، ولكن المستر بونس قال: إن كلمة "كبرياء" خطأ صوابه الأمل والثقة.

وكان لصوته رنين أشبه برنين التلاوة بالكنيسة. وفى هذه الأثناء، نادي الصبي السائق الذي يشبه الموتى، وطلب تذكرتي ذهاب وإياب، فدفعهما إليه دون كلمة واحدة. وغطي المستر بونس وجهه بيده وارتعد من جديد. وعندما أقفلت النافذة الصغيرة دونهما همس قائلا:" أتعرف من يكون؟ إنه المستحيل".

فقال الصبي:

" أنا لا أميل إليه بقدر ما أميل إلى سير توماس براون، وإن لم يدهشني أنه يرمز لمعني أكبر".

فدق بقدمه مهتاجاً وقال:" يرمز لمعني أكبر؟ لقد أبَنْتَ، بمحض الصدفة عن أعظم استكشاف في هذا العصر. وكل ما يسعك قوله هو أن هذا الرجل يرمز لمعني أكبر. أتذكر تلك الكتب المصنوعة من الرق "[١]" الموجودة في مكتبي والمهموزة بسوسن أحمر؟ هذا "اجلس في هدوء فأنا منبئك بنبأ عظيم" هذا هو الرجل الذي كتبًها".

وجلس الصبي في غاية من الهدوء، واستفهم بعد صمت مؤنس:" تري هل نري مسز جامب؟".

" مسز .. ؟".

" مسز جامب ومسز هارس ... أنا أميل إلى مسز هارس... لقد صادفتهما مباغتة". وتحركت علب المسز جامب – المصنوعة من الورق المقوي – فوق قوس قزح بطريقة هي غاية في السوء، وسقطت قواعدها جميعاً، وتدهورت فوق مجري الماء أكرتان "[٢]" من أكر سريرها".فصاح مستر بونس قائلا في صوت مرتفع:" هناك خارج المركبة يجلس كاتب مجلداتي! وتحدثني أنت عن دكنز "[٣]" ومستر جامب؟".

فأجاب الصبي معتذراً:" معرفتي بالمسز جامب وطيدة ولا يسعني إلا الابتهاج لرؤيتها.

---

[١] الرق جلد رقيق كان يستعمل للكتابة.

[٢] الأكرة الكرة. وفى الأصل الإنجليزي كلمة معناها نوع من التفاح.

[٣] تشارلز ديكنز قصصي إنجليزي ذائع الصيت شن في كتبه حرباً شعواء على النفاق والأنانية وتهكم عل المجتمع البريطاني بأسره.

ولقد ميزت صوتها وهي تحدث مسز هارس عن مسز بريج".

"وهل قضيت اليوم كله في شرف صحبتها؟".

"لا لا. بل ركضت .... لقيت رجلا قادني، بعيداً، إلى مضمار سباق، وفيه يركض المرء.... ثم إن في البحر درفيلات"

" حقا ... أو تذكر اسم الرجل؟".

" أشيل ... كلا، هذا جاء بعد .... توم جونس".

فتنهد المستر بونس تنهداً عميقاً ثم قال:" اسمع يا بني. لقد اختلط عليك الأمر. فعليك – مع الظروف الطيبة التي تحيط بك – أن تسعى إلى تثقيف عقلك. فالإنسان المثقف يسعه أن يميز بين كل أولئك الشخصيات وأن يعرف ما يقوله لكل منهم، وليس له أن يبدد وقته مع مسز جامب أو مع شخص مثل توم جونس، ولن يقنع بغير ما ابتدعه هومر وشكسبير وذاك الذي يسوق المركبة الآن. نعم، ليس له أن يركض في حلبة السباق ولا أن يوجه من الأسئلة إلا ما يدل على حسن فهم".

فأجاب الصبي متذللا:" ولكنك يا مستر بونس ستسمي رجلا مثقفاً .... لقد قلت لهم ذلك".

" حقا حقا، ولكن رجائي ألا تخزيني عندما نصل، فلا قيل وقال، ولا جري، وعليك أن تبقى على كثب مني، وألا تتحدث إطلاقا إلى أولئك الخالدين ما لم يتحدثوا هم إليك. أجل، وناولني تذكرَتي العودة فقد تضيعهما".

وأسلم الصبي التذكرتين " غير أنه شعر ببعض المرارة. وعلى أية حال فهو الذي عرف الطريق إلى المكان المنشود. ولقد شق عليه أن يكذبوه أولاً وأن يوبخوه أخيراً. وفي هذه الأثناء توقف هطول المطر وزحف ضوء القمر إلى الأمنيبوس من خلال خصاصات الأستار "أي من شقوقها". وهتف الصبي:" ولكن كيف يتكون هناك قوس قزح؟".

فصاح المستر بونس قائلا في صوت مرتفع:" أنت تحوّل انتباهي بينما أود أنا أن أتأمل الجمال. كم كنت أتمنى أن أكون مع إنسان وقور يشاركني أحاسيسي".

عض الصبي شفتيه وفكر في عدد لا يحصى من القرارات الطيبة: كأن يقلد المستر بونس

طوال مدة الزيارة، وأن يتنكب الضحك والجري والغناء وكل التصرفات المبتذلة التي لا معدي عن أن تكون قد ضايقت أصدقاءه الجدد في المرة السابقة، وأن يحرص كل الحرص على نطق أسمائهم في أتم صواب، وأن يتذكر من الذي عرف من. فأشيل لم يعرف توم جونس، أو هذا على الأقل هو ما قاله المستر بونس، ودوقه مالفى تكبر مسز جامب، أو هذا على الأقل هو رأى المستر بونس. وعليه أن يكون حييًّا صامتاً متحفظاً فلا يصرح بأنه يحب هذا أو ذاك. غير أن هذه القرارات الطيبة – عندما ارتفعت الشماسة فجأة نتيجة للمسة من رأسه غير مقصودة – ذهبت مع الريح، ذلك لأن الأمنيبوس بلغ ذروة تل يضيئه القمر، وهناك كانت الوحدة تعبرها المهاوي القديمة الحالمة، التي تدلى أقدامها في النهر السرمدي. فهتف:" الجبل! أصغ إلى النغم الجديد في الماء! انظر إلى نيران المخيم في الوهاد". فما كان من المستر بونس – بعد أن ألقى لمحة عاجلة – إلا أن قال في عنف "ماء؟ نيران المخيم؟ تلك سخافات مضحكة. أمسك عليك لسانك فلا وجود لشيء ألبته". على أن قوس قزح تشكل تحت ناظريه، لا من ضوء الشمس والعاصفة، بل من ضوء القمر ورشاش النهر، وقد وطأته الخيول الثلاثة بسابكها. وجال في خاطره أن هذا هو أجمل قوس قزح رآه ولكنه لم يجسر على التصريح بذلك نظراً لما قاله المستر بونس من " أنه لا وجود لشيء ألبته". وانفتحت النافذة فاتكأ إلى الخارج وأنشد اللحن الذي صدر عن المياه النائمة.

فقال نيام. بونس فجأة:" الديباجة الموسيقية لراين جولد! من الذي علمك هذه الألحان التي تمثل فكرة؟" وأطل هو أيضا من النافذة، ثم تصرف تصرفات جد مستهجنة: أطلق صرخة خائفة، ووقع على ظهره فوق أرض الأمنيبوس، وأخذ يتلوى ويرفس، واخضر وجهه.

واستفهم الصبي:" هل رؤية القنطرة تسبب لك الدوار؟"

فقال المستر بونس لاهثاً:" دوار؟ إنما أريد العودة. خبّر السائق بذلك".

فهز السائق رأسه.

وقال الصبي." أوشكنا على الوصول ... إنهم نيام ... أأناديهم؟ ستسرهم رؤيتك بعد أن مهدت لك عندهم".

وتأوه المستر بونس. وآت.لوا فوق قوس القزح القمري الذي أخذ يتبدد تباعاً

خلف عجلاتهم ..." ما أعمق سكون الليل! تري من سيكون حارس الباب الكبير؟".

وقال الصبي وهو يصرخ من جديد ناسياً قراراته التي لا تدخل تحت حصر:" أنا آت ... أنا عائد .... أنا الصبي.".

ونادي صوت:" الصبي عائد" فرددت وراءه أصوات" الصبي عائد".

"لقد جئت أنا بالمستر بونس"

صمت.

"كان الأصوب أن أقول إن المستر بونس هو الذي جاء بي"

صمت مطبق.

"من الحارس؟"

"أشيل".

ورأى – فوق الممر الصخري المرتفع الذي يجاور ننوء قنطرة قوس قزح تحترق.شاباً يحمل درعاً مدهشاً.

"يا مستر بونس:" أود أن أعود".

وذاب آخر حطامه من قوس القزح، ورتلت المجلات فوق الصخرة التي تنبض بالحياة، وانفتح باب الأمنيبوس فجأة، ولم يتمالك الصبي نفسه وقفز إلى الخارج، ثم وثب ليلقى البطل الذي باغته بانحناءة ولقطة على درعه.

فصاح به الصبي:" يا أشيل، دعني أنزل فأنا جاهل سوقيّ وينبغي لي انتظار هذا المستر بونس الذي حدثتك عنه أمس".

ولكن أشيل رفعه إلى عل، فقبع على الدرع المدهش: على أبطال ومدن تحترق ... على كروم منق وغالية.ب ... على كل عاطفة غالية .... على السرور والفرح... على الصورة الكاملة للجبل الذي استكشفه والذي يحف به، على غراره، غدير سر مدي. فاعترض قائلا:" لا لا. لست أهلا لهذا، والمستر بونس هو الذي يجب أن يسمو إلى مكاني".

"أيها السيد، أنا لم أقف عامداً ولكن شيئاً نصبني. أيها السيد، لماذا نتوانى؟ ليس هنا غير

أشيل العظيم الذي عرفته".

وصرخ المستر بونس قائلا":" أري أحداً، ولست أري شيئا، وأنا أود أن أعود" ثم صاح بالسائق:" أنقذني! دعني أتوقف بمركبتك. لقد احترمتك... لقد نقلت عنك .... لقد جلدت كتبك ... عد بي إلى دنياي". فأجاب السائق:" أنا الوساطة لا الغاية، وأنا الطعام لا الحياة، فأعتمد على نفسك كما فعل هذا الصبي. فأنا لا أستطيع إنقاذك، لأن الشعر هو الروح، من عبده تعبّد فيه الروح والحق".

ولم يتمالك المستر بونس نفسه وزحف إلى خارج الأمينوس الجميل، وقد بدا الذهول المفزع على وجهه، ثم أخرج يديه يقبض على السم بإحداها ويضرب الهواء بالثانية. وبرز الآن منكباه وصدره ومعدته. وفيما كان يصيح قائلا:" أري لندن" سقط ... سقط على الصخرة الصلبة التي يضيئها القمر ... سقط فيها كما لو كانت ماء ... سقط في غصونها وتلاشى وغاب عن ناظرَي الصبي إلى الأبد.

"إلى أين ذهبت بك السقطة يا مستر بونس؟ هذا موكب وصل لتكريمك بالموسيقى والمشاعل.... هنا جاء النساء والرجال الذين تعرف أسماءهم ... لقد تيقظ الجبل، ولقد تيقظ النهر، وفيما وراء مضمار السباق يوقظ البحر تلك الدرفيلات. وكل تلك الأشياء من أجلك ... إنها تبتغيك".

ولمس جبين الصبي أوراق شجر غضة .... لقد توجه بعضهم.

نهاية

من كنجستون جازيت، وسرتيون تايمز ودينس بارك أبزرفر"[1]" وجدت جثة المستر سبيتماس بونس في حالة تشوية فاجعة بالقرب من مصنع برمندزى للغاز. ووجد في جيوب المتوفي كيس للجنيهات الذهبية وعلبة "سجاير" فضية وقاموس ناطق صغير مزركش وتذكرتان من تذاكر الأمنيبوس. والظاهر أن السيد المنكود تدهور من علو شاهق. ويشتبه في أن يكون قد دفع إلى هذا غدراً. وتجرى السلطات استقصاء دقيقاً.

(1) أسماء ثلاث جرائد تصدر في المنطقة التي يسكنها المستر بونس والصبي.

عالم آخر

-١-

"**quem** "كويم" من"

"**fugis** "فوجيس" تجتنب أنت"

" **ah demens**"آه ديمنز" أيها الحمار الأحمق"

" **habitarunt di quoque**"هابيتارونت دى كوكي" لقد عاشت الآلهة في"

"**Silvas**"سيلفاس" الغابات"

" أنطلق!"

تعودت دائماً أن أجلو الدراسات القديمة —وهي جزء من طريقي — ولذا ترجمت "ديمنز" ب " الحمار الأحمق". غير أن مس بومنت لم تكن في حاجة إلى أن تدون الترجمة، كما أن فورد — الذي يفوقها معرفة — لم يكن في حاجة إلى أن يردد بعدى:" من تجتنب أنت أيها الحمار الأحمق، لقد عاشت الآلهة كذلك في الغابات".

فأجبت في لجلجة من يبدأ في دراسة الأدب القديم: "نعم، نعم "سيلفاس" معناها: غابات ... فضاء تكتنفه غابات. الرف عموماً. نعم و"ديمنز" بطبيعة الحال مكونة من "دي— و — منز" ومعناها: الناس العديم الإدراك! والآلهة.... أقول: وحتى الآلهة عاشت في الغابات قبل الآن".

فقالت مسز وورترز معترضة درسنا المرة الثانية والعشرين فيما أظن:" لقد كنت أحسب الآلهة تعيش دواماً في السماء".

ورددت الفتاة قولها:" لا لا مسز وورترز، ليس على سبيل الدوام". ثم تابعت درسها في المفكرة وتلت ما يلي" الآلهة. أين. أشهر المعبودات — جبل أوليمبوس"[١]. بان "[٢]"— غالبية

(١) أولمبيوس اسم لجبال متعددة عند الإغريق أشهرها يقع بين مقدونيا وتسالي. وتقول الأساطير إنه مقر الآلهة.

(٢) بان إله قطعان الماشية ويمثل الطبيعة المجدة كافة.

الأماكن حسبما تدل عليها أسماؤها الأورياد "[١]"— جبال. السيرين "[٢]"، التريتون "[٣]"، النيرايد"[٤]"— ماء "أجاج نایاد "[٥]" — ماء "فرات". ساتير "[٦]"، فاون"[٧]"، الخ— غابات درایاد"[٨]"— شجر".

" حسن أيتها العزيزة، لقد تعلمت الكثير، فهلا أخبرتني الآن أي خير أفدت منه؟".

فتلجلجت مس بومنت قائلة:" لقد أعانني —"، إنها لم تكن هازلة في تعلم الإغريقية واللاتينية، وودت لو أمكنها أن تقول أي خير أفادت منها.

وجاء فورد لخلاصها:" لقد أفادتك بلا ريب. والعلوم الإغريقية واللاتينية تعلم الإنسان أشياء كثيرة وهي تعلمك المراوغة".

ورجوت صديقي الصغير السن ألا يراوغ في درسه عن فرجيل "[٩]"

فصاح قائلا:" ولكنها فعلا تعلمك كيف تراوغ. هب أن ذلك البهيم الطويل الشعر المسمى أبوللو "[١٠]" يرغب في تلقينك درساً في الموسيقى، إنك في هذه الحالة ستعصف بغصن الغار الذي يطوق بينه. أوهب أن الطبيعة الكونية تقدمت إليك وأنت لا تعيرها التفاتا خاصاً، إنك ستنقلب إلى قصبة".

فاستفهمت مسز وورترز: هل جن جاك؟

وفظت مس بومنت إلى التلميحات التي يجب التسليم ببراعتها، واستفهمت قائلة:" وكروشيوس؟ ما الشيء الذي كان المرء ينثني فيه ليهرب منه؟"

---

[١] نادیا إلهة البحيرات والأنهر.

[٢] السيرين جبارة خرافية نصفها آدمية والنصف عصفورة وسمكة.

[٣] التريتون أحد آلهة البحر وهو ولد نبتون وأمفترت.

[٤] النيرايد: ابنة إله البحر.

[٥] نایاد إلهة البحيرات والأنهر.

[٦] سانير أو مينيبية فيلسوف إغريقي من مدرسة سنيكا. وسانير أيضا شخص خرافي نصفه الأعلى من البشر والأسفل من الماعز.

[٧] فاون إلهة الخلوات — على صورة بان وسلفان — ومن اختصاصها تربية الماشية.

[٨] درایاد إلهة الغابات.

[٩] فرجيل أشهر شعراء اللاتينية وله أسلوب آية في السمو وروح شفاف حلو حساس

[١٠] أبوللو إله الوحي والشعر والفنون عند الإغريق والرومان وهو ابن جوبيتر ولانون وأخو ديانا إلهة الصيد.

فسارعت إلى تصحيح معلوماتها في الأساطير قائلا:" ميداس "١" يامس بومنت وليس كروشيوس، فأنت لا تحولين نفسك إلى ذهب بل يفعل ذلك ميداس".

وقال فورد:" لا يوجد ميداس المراوغ؟".

فقالت مس بومنت:" يقيناً –" وكانت قد بدأت تتعلم اللاتينية قبل أقل من أسبوعين، ومع ذلك كان لها أن تصوب الأستاذ الممتاز "٢"

وبدأ يغيظها فقال:" أوه، لا يوجد ميداس المراوغ. إنه يأتي ويلمسك فتدفعين له فوراً بضعة آلاف في المائة لأنك من ذهب، لأنك – إذا لمسك – تصبحين سيدة ذهبية".

فصرخت مرتدة إلى رعونتها المألوفة:" لن يلمسني أحد!"

" بل سيلمسك"

" لن يفعل"

" لن يفعل "

" سيفعل"

فتناولت مس بومنت كتاب فرجيل وأهوت به على رأس فورد.

فقالت مسز وورترز:" إفلين إفلين! أنت الآن تنسين نفسك، كما تنسين سؤالي: أي خير جنيت من اللاتينية؟"

" يا مستر فورد، أي خير جنيت من اللاتينية؟"

" يا مستر إنكسيب، أي خير جنيت من اللاتينية؟"

وعلى هذا أتيحت لي المشاركة في الجدل. نعم كانت الحجج التي تدعم دراسة اللاتينية معقولة جداً غير أن تذكرها جد عسير. ثم إن عصر ذلك اليوم كان حاراً وأنا في حاجة إلى تناول الشاي. إلاّ أنه كان على إثبات وجودي بوصفي مدرساً، لذلك خلعت منظاري وتنفست

---

(١) ميداس ملك فريجي الذي استعار من باكوس السلطان علي تحويل كل ما يلمس إلى ذهب. فلما تحول الطعام – بناء على هذا – إلى ذهب وأرادت الآلهة نجدته أمرته بالاستحمام في الباكتول، وهو نهر صغير في ميديا، فأخذت مياهه تخرج شباكا من الذهب.

(٢) في الأصل الإنجليزي: الأستاذ الملكي (أو الملوكي حسبما تقول العامة).

على زجاجتيه قائلا: ما أصعب هذا السؤال يا عزيزي فورد".

وقالت مسز وورترز:" إنه يناسب جاك، إذ عليه أن ينجح في امتحان الدخول. ولكن بالله ماذا تجني منه إفلين؟ لا شيء إطلاقاً".

وأصررت مشيراً إليها بمنظاري وأنا أقول:" لا يا مسز وورترز، لا سبيل إلى موافقتي إياها لأن مس بومنت — على صورة ما — جديدة على مدينتنا. وهي تتخطى عتبتها، واللاتينية إحدى المواد التي ستختبر فيها في امتحان الدخول أيضاً. ولن يستطيع امرؤ أن يدرك الحياة الحديثة ما لم يتوفر على بعض المعلومات عن أصولها".

فقالت المرأة المتِعبة:" ولكن فيم لها إدراك الحياة الحديثة؟

فأجبت في عنف وأنا أطوي منظاري:" حسن، ها أنت ذي ثانية!"

" يا مستر أنسكيب، لست أشاطرك الرأي، فتفضل بإخباري ما الفائدة من كل ذلك. أوه، لقد خبرت بنفسي جوبيتر وفينوسل "١" وجونو "٢" وعرفت الجماعة كلها، ووجدت أن كثيراً من قصصهم غير مناسبة".

وقلت مجافياً:" العلوم القديمة لا تقتصر على أساطير الأقدمين، وإن تكُن لهذه الأساطير قيمتها. إنها أحلام، إذا أردتها على أن تكون كذلك، ولكن للأحلام قيمة".

وقالت مسز وورترز:" وأنا أيضا أري في منامي أحلاماً ولكني لم أبلغ من البلاهة حد ذكرُها بعد ذلك".

ورحمنا صوت قريب وراءنا ممتلئ يبدو منه الإخلاص، بقوله مقاطعاً:" أحيطوا أحلامكم بالإعزاز"... لقد انضم إلينا مضيفنا هاركورت وورترز ابن مسز وورترز وخطيب م أمر فورد، ومخدومي، ولابد لي من أن أسميه مستر وورترز.

وردد قوله:" فلنُحط أحلامنا بالإعزاز! لقد كنت طوعالية.م أكافح وأشارت وأساوم، وكان انطلاقي ومجيئي إلى هذه المرجة ورؤيتي إياكم جميعاً تدرسون اللاتينية وأنتم في مثل هذه الغبطة

(١) فينوس الزهرة (بضم ففتح) كوكب الصباح أو المساء" وفينوس ربة العشق والجمال

(٢) جونو السيار زحل، وجونو زوجة جوبيتر وابنة المشتري وهي إلهة الزواج، وبنعتها الشعراء بالتعالي والغيرة وحب الانتقام.

والاطمئنان والنعيم المقيم "[١]".

ولم يتم عبارته بل غرق في الكرسي المجاور لمس بومنت، واستولى على يدها. وما إن فعل هذا حتى أخذت تغني:" آه، أنت أيها الحمار الأحمق، إن الآلهة تقيم في الغابات!"

فقال المستر وورترز في شيء من العبوس:" ماذا يجري هنا؟"

فأشارت إليّ بيدها الأخرى.

فقلت متلعثما:" فرجيل — هذه ترجمة دارجة له".

قال:" أوه، فهمت، ترجمة شعر دارجة". وعودته الابتسامة ثم قال:" ربما يرجع حبنا الغابات إلى سكني الآلهة إياها ... لقد اشتريت تواً كتاب "أجمة في عالم آخر"!".

صيحات فرح عالية ... وفى الحق أن شجر الزان في تلك الأجمة لطيف كشجرة في هيرتفوردشير. وفوق ذلك فإنها مع المرج الذي يناهزها كانا أبداً ثلمة في الحدود المستديرة التي تحف بضيعة وورترز. ولذا أفعمنا سروراً أن المستر ووتر اشترى" عالماً آخر: ولم يمسك منا عن الكلام غير فورد الذي أخذ يمر بيده على رأسه — حيث أضناه كتاب فرجيل — ويبتسم إذ يصنع ذلك.

ورنا إلى مس بومنت قائلا:".... وإذا اتخذتُ الثمن الذي دفعتهُ مقياساً، حق لي أن أقول إن في كل شجرة إلهاً. غير أن الثمن في هذه المرة ليس هو المهم ...." ورنا إلى مس بومنت وقال:" أنت يا إفلين من الذين يستهويهم شجر الزان. أليس كذلك؟".

"أنا أنسى دائماً أيّ الشجر هو الزان، أيكون مثل هذا؟".

ورمت بيديها متلاصقتين عاليتين فوق رأسها فبدت كالقصبة الهيفاء. ثم تمايل بدنها وارتعش جلبابها الأخضر الرقيق ارتعاشاً يمثل ورق شجر لا حصر له.

فهتف محبها:" يا فتاتي الغالية!"

وقال فورد:" كلا، فهذا يمثل شجر ألقان".

---

[١] في الأصل الإنجليزي:" النعيم الأركادمي". وأركاديا منطقة جبلية في بلاد الإغريق القديمة بالمنطقة الوسطى من البيلوبونيز يسكنها الأكاديون، وهم قوم من الرعاة يعيشون في بساطة وبراءة وطهر وسعادة لا يكدرها صفو.

فأجابت بقولها:" أجل صحيح، ورفعت أطراف ثوبها فانتشرت لحظة راقات مستوية كراقات شجر الزان.

ووجهنا لمحة إلى البيت، فألفينا أن أحداً من الخدم لا يرانا. فضحكنا وقلنا:" إنها أهل للرقص فوق مسرح المنوعات".

فصاحت:" هذا هو النوع الذي يروقني!" ومثلت من جديد شجر الزان.

وقال المستر وورترز:" هذا ما أظنه. هذا ما أظنه... إن "أجمة عالم آخر" لِك".

" لي أنا .. ؟" إنها لم تحظ قط بهدية كتلك طوال حياتها ولذا لم تستوعب هذا الكلام.

" سيحرر عقد الشراء باسمك، وستمهرين الوثيقة بتوقيعك.... فتقبلي الغابة مع حبي على أنها خاتم الخطوبة الثاني".

"ولكن – هل هي – هل هي لي؟ وهل يسعني أن أصنع بها ما أريد؟".

فقال المستر وورترز مبتسما:" يسعك ذلك".

فاندفعت إليه وقبلته، وقلبت مسز وورترز، ولو لم أكن وفورد قد دفعنا مرافقنا لقبلتنا كذلك، لأن فرح التملك أدار رأسها. "إنها لي! يسعني أن أمشي هناك، وأن أشتغل هناك، وأن أعيش هناك. غابة هي ملك لي! ملك لي إلي أبد الآبدين".

"هي ملك لك على كل حال ... إلى تسعة وتسعين عاماً".

"تسعة وتسعين عاما؟" ويؤسفني القول بأن صوتها أبرز لوناً من خيبة الأمل.

" يا فتاتي الغالية. هل تأملين أن تعيشي أطول من هذه المدة؟".

فأجابت في شيء من الاستحياء:" أظني لا أقدر على ذلك. لست أدري".

"تسعة وتسعون عاماً تبدو لأغلب الناس مدة كافية الطول. لقد أخذت هذا البيت وهذه المرجة التي تقفين عليها بإيجار مداه تسعة وتسعون عاماً، ومع ذلك فأنا أحسبهما ملكاً لي، وأظن أني في هذا محق، أليس كذلك؟".

" نعم نعم "

" تسعة وتسعون عاماً تعد، فعلاً، إلى الأبد. أليس كذلك؟".

وعند فورد مفكرة، تبعث على أشد الاهتياج، معنونه في الخارج" شخصي" وفي الداخل " كتاب فعلا"، رأيته يدون فيها الآن مدخلا هذا نصه:" إلى الأبد، فعلا، تسعة وتسعون عاماً".

أبدي المستر وورترز ملاحظة كأنما يسرها إلى نفسه، قال:" يا الله يا الله! كم ارتفعت أثمان الأرض! مذهل جداً"

ورأيت أنه في حاجة إلى شخص مثل بوزويل، فقلت؛" وهل ارتفعت يقيناً؟".

" تصور، يا عزيزي أنسكيب، ما كنت أستطيعه لو أني استأجرت هذه الغابة لعشر سنوات خلت! ولكني أبيت. خمّن لماذا؟".

" نحن لا يسعنا التخمين".

" لأن الصفقة كانت ستصبح غير قويمة". وعمت وجهه – إذ ينطق بهذا اللفظ النبيل – حمرة خجل تناسب المقام. " غير قويمة وإن أقرها القانون، أعني أنها كانت غير قويمة في عرف الأخلاق، إذ لم يكن بد من أن نضرب على يدي مالكها إذ ذاك. غير أني أبيت، وقال لي الآخرون – وهم مهذبون على طريقتهم الخاصة – إنني متحذلق. فأجبتهم بقولي:" نعم قد أكون كذلك.

إن اسمي واضح: هاركورت وورترز، وهو ليس اسماً ذائع الصيت في غير مدينتي ومقاطعتي، ولكنه – حيث يعرفونه – اسم له بعض الوزن، وهذا من دواعي افتخاري. أنا لن أوقع على وثيقة كهذي، وهذا قصارى أمري. سموا هذا حذلقة إذا طاب لكم ذلك ولكني لن أوقع. وما ذاك من ناحيتي غير حذلقة، ولنسمها بهذا الاسم" – واحمر وجهه خجلا من جديد. ويعتقد فورد أن جسد ولي أمره عمته الحمرة جميعاً وأنك إذا استطعت تعريته ودفعه إلى الكلام النبيل فسيبدو كجراد البحر. وفى المفكرة رسم له بهذه الصورة.

واستفهمت مس بومنت إلي تتبعت الحكاية في شيء من الاهتمام:" وأذن فألكها إذ ذاك ليس مالكها الآن؟".

فأجاب المستر وورترز:" لا لا ".

فقالت مسز وورترز، غافلة، وهي تتصيد إبرة الحَبْك من بين الكلأ: " لا! قطعاً لا! لأن الأرض ملك لأرملته".

وصرخ ولدها وقفز واقفاً على قدميه مسروراً:" الشامي! إني أرمي الشامي وأبتغيه، تعالي يا أماه. إلي يا أفلين. في وسعي أن أقول لكم أن الأمر ليس مزاحا، وأن يومنا هذا يوم عسير في معترك الحياة، والحياة معركة، أنها معركة من أجل كل المقاصد والغايات. ويستثني من دخولها قليل من المحظوظين الذين يستطيعون أن يقروا الكتب، وعلى ذلك يتنكبون الحقائق. ولكني—".

وأخذ صوته يتلاشى تدريجيا وهو يقود السيدتين عبر المرجة السلسة وفوق الدرج الحجري المؤدي إلى الشرفة. وكان الخادم يصف عليها موائد ومقاعد صغيرة وركيزة فضية لغلاية الشاي. وخرج من الدار وقتئذ سيدات أخريات.

وكانت تصل إلى مسامعنا صيحات هرجهن بعد ما علمن بشراء "عالم آخر".

أنا أحب فورد ،فلهذا الصبي شيم طالب العلم وشيم "السيد المهذب "وأن اعترض هو علي التسمية .وقد أعجبتني رؤية شفتيه تتحويان بصورة تنم علي سخرية الشباب المهمة .فهو لم يقدر علي أن يفهم الخادم وركيزة الفضة المصبوبة المعدة لغلاية الشاي .والخادم وركيزة يثيران غضبه لأنه يحلم أحلاما ليست روحية بكل معاني الكلمة ،ومستر وورترز هو صاحب القدح المعلى في هذا الأمر ،ولكنه يحلم عن أمور ملوسة واقعية ،أحلاما قوية لا تحلق به في السماء بل تحمله إلي عالم آخر .وفي هذا العالم الآخر :أولا — لا وجود للخدم ،وثانيا —ركائز الغلايات ليست مصنوعة من الفضة فيما أحسب وثالثا—كل شيء حقيقة تطابق مظهره وليس مستعدا للإفصاح .ولئن سبق لي التصريح بأن "للأحلام قيمتها "فإنما فعلت ذلك لأسكت مسز وورترز.

"امض يا رجل! فنحن لن نستطيع تناول الشاي حتى نجتاز شيئا ما ".

وأدار كرسيه عن الشرفة كي يتسنى له أن يجلس بحيث يشاهد المرجة والجدول الذي يشقها، وشجر الزان الذي في "العالم الأخر" والذي يسمق وراء هذا الجدول. ثم بدأ يفسر نشيد الرعاة لفرجيل في أبلغ الجد والإعجاب.

-٢-

إن أجمة "عالم آخر" تحاكي كل المحاكاة آية أجمة أخري من شجن الزان، وعلى ذلك

أصبحت في حل من أن أوفر على نفسي عناء وصفها. والجدول الذي يجري أمامها — مثل كثير من أمثاله — لا تعبره قنطرة في المكان المناسب، ويكون على المرء أما أن يمشي حوله ميلا وأما أن يخوضه. واقترحت مس بومنت أن نخوض.

وأقر مستر وورترز اقتراحها في ضجة ثم شيء.تدريجاً أنه لن يأخذ به. " يا للتسلية! يا للتسلية! سنخوض "إلى عالمك"، آهٍ لو لم تكن أدوات الشاي".

"ولكنك تستطيع أن تحمل أدوات الشاي على ظهرك".

" نعم نعم، لا خدم. هذه نزهتي أنا، وهذا طعامي، سأدبر كل شيء .... أنا لم أخبركم، لقد استحضرت الطعام كله وكنت في القرية مع المستر فورد".

"في القرية —".

" أجل لقد استحضرنا"بسكويت" وبرتقالاً ونصف رطل من الشاي، وهذا كل ما سوف تصيبون. لقد حملها، وسيحملكم عبر النهر، ولست أرجو إلا أن تعيروني بعض أدوات الشاي — لا من أجود الأصناف — وسأعتني بها، وهذا قصاراي".

" يا أيها الإنسان العزيز—".

وقالت مسز وورترز:" يا إفلين،كم دفعن أنت وجاك ثمناً للشاي؟".

" عن نصف الرطل عشرة بنسات".

وتلقت مسز ووترز الخبر في صمت واكتئاب.

وصاح مستر وورتز:" اسمعي يا أماه! لقد نسيت. كيف يتسنى لنا أن تخوض مع وجود أمي؟".

"أوه يا مسز وورترز، نستطيع أن نحملك".

"شكرا لك يا أعز الأطفال، يقيني أنك تستطيع".

" وا أسفا يا إفلين! أمي تسخر منا، فقد تموت قبل أن نحملها. لهف نفسي! هناك أخواتي ومسز أوز جود. إنها امرأة باردة متعبة. كلا، سيكون علينا أن نلف طريق القنطرة".

فبدأ فورد يقول:" ولكن بعضنا –، وأسكته وليُّ أمره بنظرة سريعة. واستدرنا في موكب من

ثمانية تقودنا مس بومنت، وكانت مرحة جداً، أو هكذا زعمت إذ ذاك. ولكني عندما استعرضت أحاديثها فيما بعد لم أستطع أن أجد فيها أي شيء قد يبعث على التسلية.

لقد كانت على هذا النمط:" تتابعوا فرادي! تصوروا أنكم في كنيسة .... ولا تتكلموا. يا مستر فورد، أخرج أصابع قدميك. يا هار كورت! عند القنطرة ألق إلى جنية الماء بتنشيفة من الشاي لأنها مصابة بصداع منذ ألف وتسعمائة سنة". لقد كان كل ما قالته سخيفاً، ولا أستطيع أن أعرف لماذا ملت إليها في ذلك الوقت.

وقالت عندما شارفنا الأجمة:" يا مستر أنسكيب:" غنّ نغنّ وراءك: "أيها الحمار الأحمق إن الآلهة تعيش في الغاب". ثم سلّكت حلقي وأذعت العبارة الشنيعة وغنيناها جميعاً كأنها صلاة. وكان في مس بومنت شيء جذاب، ولم يدهشني أن هار كورت انتقاها من " أيرلندة" وجاء بها إلى بلاده وخطبها دون أن يكون لديها مال أو أن تربطه بها رابطة ودون مقدمات، وكانت تلك جرأة منه ولكنه كان يعرف أنه إنسان جسور.

وهي لم يجلب له شيئاً غير ما يسمعه هو أن يحلب، ولديه فيض كبير من العروض الروحية والتجارية، ولقد سمعته يقول لأمه" سترد لي إفلين مع الوقت ألف ضعف". ومما يكن ففيها شيء جذاب، ولو كان لي أن أختار مَن أحب لاخترتها."

فصاحت قائلة:"كف عن الغناء!". ودخلنا الغابة:" مرحباً بكم جميعاً".

فحنينا رؤوسنا. وانحني فورد حتى الأرض دون أن يضحك:" والآن تفضلوا بالجلوس ... يا مسز وورترز: هلا تفضلت بالجلوس هناك مستندة إلى تلك الشجرة الخضراء الجذع! إنها ستظهر ثوبك الجميل! ..."

فقالت مسز وورترز:" حسن جداً يا عزيزتي، سأفعل".

"يا أنّا: هناك ... يا مستر أنسكيب اجلس بعدها، ثم روث ومستر أوز جود ... يا هار كورت: اجلس إلى الأمام قليلا لتحجب البيت فما أود رؤيته البتة".

وضحك محبها قائلا:" ما أنا بفاعل، فأنا أيضاً أود أن أسند ظهري إلى شجرة".

واستفهم فورد:" يا مس بومنت، أين أجلس؟" وكان واقفاً وقفة "انتباه" كالعسكري.

فصاحت:" انظر إلى كل أولئك الوورترز يتوسطهم فورد واحد صغير!".

قالت ذلك لأنها كانت مثقفة تثقيفاً يجعلها تدرك التورية.

"أ أقف يا مس بومنت؟ وهل أحجب البيت عنك إذا وقفت!"

وصاح ولي أمر جاك به مقاطعاً في غلظة لا مبرر لها:" يا جاك، اجلس أيها الطفل، أجلس!".

قالت مس بومنت:" في وسعه أن يجلس إذا أراد. أسحب قبعتك الناعمة إلي وراء يا مستر فورد تجعلها كالهالة ... أنت تحجب الآن كل شيء حتى الدخان من المداخن... إنها تجملك".

"يا إفلين يا إفلين! أنت شديدة جداً على الصبي، وستنهكينه. إنه أحد المغرمين بالمطالعة وهو ليس قوي البنية، فدعيه يجلس".

فسألته:" أقويّ أنت؟".

فصاح:" أنا قوي". وهذا جد صحيح. وليس من حق فورد أن يكون قوياً ولكنه كذلك. وهو لم يتمرن قط بالدمبلز"[١]" ولم يشارك في مدرسة فرقة الخمسة عشر. ولمن عضلاته ظهرت. وهو يزعم أنها ظهرت وهو يطالع كتاب بندار.

"وإذن فيسعك – بالمثل – أن تقف إذا أردت".

"إفلين إفلين، يأيتها الصبية الأنانية التي تتصرف تصرف الأطفال! إذا أنهك جاك المسكين فسأحل محله. لماذا لا تودين أن تري البيت؟".

وكانت مسز ومس وورترز تتحركان في شيء من القلق بعدما رآنا أن هاركورت هما لا يبدو كامل السرور ... أما كونه هار كورتهما فلا تسل عن سبب ذلك ... وبما أن إفلين هي التي تستطيع أن تزيل استياءه فقد رنتا إليها.

" اسمعي. لماذا ترغبين عن رؤية بيت المستقبل؟ إن واجبي ليقتضيني أن أقول – وإن كنت واضع "تصميم" البيت بنفسي – عن منظرة من هنا جميل جداً، وإن سقفه الهرمي "الجملون" يعجبني يا آنسة! أجيبي!".

واستشعرت شعور مس بومنت. فالسقف الهرمي المصنوع في البيت شيء فظيع. ودار هار

---

[١] الدمبلز كرتان من حديد تربط بينهما قصبة، لتنمية العضلات.

كورت تلوح، من انتفاخها، ككوخ يشكو مرض الاستقصاء. ولكن ما عساها أن تقول؟

فلم تقل شيئاً.

"حسن؟".

فتصرفت كأنه لم يتكلم أصلا، وظلت بهيجة باسمة جميلة كشأنها أبداً، ولم تقل شيئاً غير مدركة أن كل سؤال يستتبع جواباً.

وأضحي الموقف بالنسبة لنا لا يطاق، فتحتم عليّ أن أنقذه بإشارة لبقة إلى المنظر الذي قلت إنه يذكرني قليلا بالإقليم القريب من فيبي"[١]"، وهذا التشبيه ليس صحيحاً ولا يمكن أن يصبح كذلك لأني لم أرتحل قط بالقرب من فيبي. غير أن بعض طريقتي أن ألمع إلى الأدب القديم. ومهما يكن فقد أنقذت الموقف.

وفي الحال ظهر الجد والتعقل على مس بومنت وسألتني التأريخ ل"فيبي" فأجبت الإجابة المناسبة. وأعلمتنا بقولها:" إني أحب كتب الأدب القديم"الكلاسيكي"، فهي خالية من التكلف وهي مجرد تسجيل للحوادث".

فقلت أنا" نعم ولكن كتب الأدب القديم فيها شعر ونثر، وهي أكثر من تسجيل للحوادث".

قالت مس بومنت:" إنها تسجيل للحوادث وحسب" وابتسمت كأنما سرها التعريف السخيف.

وأفاق هار كورت وقال:" نقد بالغ الدقة. وهذا ما أستشعره دواماً بالنسبة للعالم القديم. هي لا تتقدم بنا إلا القليل لأنها لا تزيد على تسجيل الأشياء".

واستفهمت إفلين:" ماذا تعني ؟".

"أعني ما يلي، وإن يكن من الجرأة الكلام في حضرة المستر أنسكيب، إليك ما أعنيه: كتب الأدب القديم "الكلاسيكي" القديمة ليست كل شيء. نعم نحن مدينون لها بالكثير، وأنا آخر من يبخسها قيمتها، وقد درستها أنا أيضاً بالمدرسة، وكلها رشاقة وجمال، ولكنها مع ذلك

---

(١) فيبي مدينة قديمة في إنروريا بإيطاليا بين نهر التيبر وجبال الابنين أخضعها كميل الروماني سنة ٢٩٥ ق. م.

ليست كل شيء.

ذلك لأنها كتبت قبل أن يبدأ الناس في الإحساس بالشعور الحقيقي". ثم احمر وجهه وقال:" ومن هنا البرود الذي يتمشى في الفن القديم ... افتقاره إلى شيء ... إلى شيء ما، بينما الأشياء التي وردت فيما بعد مثل دانتي "[١]" وعذراء رفائيل"[٢]" وفاصلات مندلسون الموسيقية "[٣]" " وأخذ صوته يتلاشى تدريجا في احترام. وجلسنا نغض من أبصارنا كي لا تقع على مس بومنت. ومن الأسرار التي قدر لها بعض الذيوع أنها، هي أيضاً، تفتقر إلى شيء. إن روحها لم تنضج بعد.

وكسر الصمت صوت مسز وورترز الضئيل الذي أعلن أن قواها خارت من الجوع.

ووثبت ربة المنزل الصغيرة ولم تتح لأحد منا الفرصة لمساعدتها إذ كانت تلك وليمتها.

فحلت أربطة السلة وأخرجت "البسكويت" والبرتقال من الأكياس، وأوقدت تحت الغلاية، وصبت الشاي. وهو لم يكن سائغاً على الإطلاق. غير أنا مع ذلك ضحكنا وتحدثنا في خفة تناسب الهواء الطليق، وحتى مسز وورترز كانت تبتسم وهي ترد الذباب. ووقف يعلونا جميعاً فورد الصامت النبيل يشرب الشاي في حذر خشية أن يسيء إلى ملامحه، وقد عمد وليُّ أمره الماجن إلى مماحكته ودغدغة رسغيه وسمانتي رجليه.

قالت مس بومنت" حسن" هذا لطيف، وأنا أشعر بالسعادة فقالت السيدات:" غابتك يا إفلين!".

فصاح المستر وورترز قائلا:" غابتها أبد الآبدين! ويمتد عقد إيجارها تسعة وتسعين عاماً، وتلك تسوية لا ترضى ولا توحي بالاستقرار. وقد بدأت أنفاوض من جديد واتبعت لها الغابة تملكها إلى الأبد ... السمع والطاعة يا عزيزتي، السمع والطاعة! ولكن كفيّ عن إحداث الضوضاء".

---

[١] دانتي الليجيري أبو الشعر الإيطالي (١٢٦٥-١٣٢١) ولد في فلورنسة ولعب في سياستها دوراً هاماً ثم نفاه خصومه وعاد ليموت في رافين.

[٢] رفائيل:مهندس معماري ومثال ومصور ذائع الصيت في إيطاليا ومن صوره الشهيرة عذراء رفائيل وهي أم المسيح.

[٣] منلون موسيقار مشهور عاش من ١٨٠٩ إلى ١٨٤٧.

" فصاحت قائلة:" لابد من ذلك! لأن كل شيء علي خير ما يرام! أنتم جميعاً قوم كرام مع أبي منذ سنة واحدة لم أكن أرف معظمكم. أوه، إنه لمدهش! والآن غابة، وغابة أتملكها، غابة إلي أبد الآبدين. وها أنتم أولاء جميعاً تتناولون الشاي معي في هذا المكان! أيها العزيز هار كورت، أيها الأعزاء؟ هاك المستر فورد حيث يوجد البيت الذي يفسد علينا مباهجنا".

فضحك المستر وورترز " ها ها!" ودس يده عالية مطوقا بها مرفق الصبي. ولست أعرف ما جري ولكن فورد انهار ووقع على الأرض مع صرخة مدوية قد يردها الغريب إلى الغضب أو الألم. أما نحن الذين نعرفه أكثر مما يعرفونه فقد علا ضحكنا....

"أنه يهبط! إنه يهبط!" واعتركوا يلعبون ويركاون الطين وورق الشجر الناشف.

فصاحت مس بومنت" لا تؤذوا غابتي".

وصرخ فورد صرخة عنيفة أخري. وسحب المستر فورد يده وهتف:

" انتصار! يا إفلين! إليك مقعد الأسرة!" ولكن مس بومنت –على غرار الفراشة–زايلتنا وطفقت تسير في غابتها بخطي واسعة.

وبعد أن حزمنا أدوات الشاي انقسمنا جماعات، وانضم فورد إلى السيدات" وشرفني المستر وورترز بصحبته.

وقال مجارياً الصيغة المألوفة." حسن! وكيف حال الدراسات القديمة؟".

" لا بأس".

"وهل تبدي مس بومنت أيَّ اقتدار؟

"تطيع أن أقول إنها تفعل، ومهما يكن ي تبدى حماسة"." ألا تظن أن تلك حماسة الأطفال؟ إني مصارحك يا مستر أنسكيب بأن مس بومنت طفلة في كثير من نواحي تصرفاتها، وينبغي لها أن تتعلم كل شيء. إنها تعتد بنفسها كثيراً، وحياتها الجديدة جد مغايرة وجد غريبة، وعليها أن تتدرب على عاداتنا وأفكارنا جميعاً".

إلى ما رمي إليه – وأنا لست أبله – فأجبته بقولي:" وأي تدريب خير من الإلمام بالدراسات القديمة؟".

قال المستر وورترز:" بالضبط تماماً". وفي هذه الأثناء سمعنا صوتها وهي تحصى شجر الزان." والسؤال الوحيد في موضوع الدراسات القديمة "اللاتينية الإغريقية" هو: ما الذي ستصنعه بها؟ أيسعها أن تفيد منها شيئاً ما؟ أيسمعها ذلك؟ ... لا يبدو أنها قد تلقنها الآخرين يوماً ما".

"هذا صحيح". وربما يكونون قد لاحظوا الحيرة على قسمات وجهي." أنا أسلم أن لديها الحماسة. ولكن – ما دامت لا تعرف إلا القليل – ألا يجدر بالمرء أن يحول هذه الحماسة إلى الأدب الإنجليزي مثلا؟ إنها لا تكاد تفقه شيئاً عن تنيسون "[١]". لقد قرأت لها بمعهد التمثيل المشهد العجيب الذي دار بين آرثر وجينيفر. نعم إن الدراسات القديمة كلها طيبة جداً ولكنى أشعر أحياناً أنّنا ينبغي لنا أن نبدأ من البداية".

فقلت:" أنت تشعر – بالنسبة لمس بومنت – أن الدراسات القديمة لا تعدو أن تكون كمالية".

"كمالية. هذه هي الكلمة الدقيقة يا مستر أنسكيب. كمالة وهْم. ولكنها بالنسبة لجاك فورد على ما يرام. ولتنتقل إلى نقطة أخري. هل من المؤكد أنها تعوق جاك؟ لابد من أن تكون معلوماتها أولية".

" حسن. معلوماتها أولية. فيجب إذن أن أقول إن من الصعوبة تلقينهما معاً. فلقد قرأ جاك قدراً طيباً على صورة م الصور بينما مس بومنت، وإن تكن نشطيه متحمسة–".

"كنت أشعر بمثل هذا. فهل هذا النظام يجحف بجاك نوعاً ما؟"

" حسن. يجب أن أسلم بأن... ".

"بالضبط وما كان لي إطلاقا أن أشير به، ولابد أن ينتهي. وإن سحب تلميذ لن يحدث لك أي فرق يا مستر أنسكيب".

" ستتوقف الدروس فوراً يا مستر وورترز".

وهنا صعدت إلينا:" يا هار كورت، وهناك ثمان وسبعون شجرة، وهكذا أل إليها

---

(١) لورد ألفرد نيسون (١٨٠٩–١٨٩٢) شاعرا إنجليزي اشتهر بالقصص والشعر الوطني.

مبتسما.... وحصيتها".

فأومأ إليها مبتسما.... وإني لأود أن أذكر أنه طويل وسيم، حاد الذقن، صافي العينين، مرتفع الجبين، وأن شعره ليس رماداً كله، وأن قليلا من الأشياء هي التي تسترعي النظر أكثر مما تسترعيه صورة فوتوغرافية للمستر هاركورت وورترز.

"ثمان وسبعون شجرة؟ ".

"ثمان وسبعون ".

"أراضيه أنت؟".

"أوه يا هاركورت ..".

وبدأت أحزم أدوات الشاي. وسمعني كلاهما ورآني. والخطأ خطؤهما لأنهما لم ينأيا أكثر مما فعلا.

"إني أعلل النفس بتشييد قنطرة، قنطرة ريفية في الدرك، وقد أشتق بعد ذلك ممرا من الأسفلت، من البيت عبر المرج، حتى يتسنى لنا في كل الأجواء أن نمشي هنا غير مبتلي الأقدام. وبما أن الأولاد يأتون إلى هذه الغابة–ألقي بالك إلى كل تلك الحروف المحفورة على الشجر — فقد فكرت في إقامة سور بسيط لنحظر الدخول على غيرنا —".

"هار كورت "

واستأنف الكلام قائلا: "سور بسيط، تماما كالذي خففت به حديقتي وحقولي. وفي طرف الأجمة الآخر — بمنأى عن الدار — سأقيم بابا كبيرا واستحضر له مفاتيح، مفتاحين فيما أظن، واحدا لي وواحدا لك، مفتاحين لا أكثر. وسأشق إليه ممر الأسفلت — ".

"ولكن يا هار كورت .."

"ولكن يا إلفين! ".

"أنا — أنا — أنا — ".

"أنت — أنت — أنت —؟ ".

"أنا لا أرغب في ممر من الأسفلت ".

"لا؟ ربما كنت علي حق. قد تكون طريقا مطروقة، نعم، أو حتى من الحصباء "الحصى".

"ولكني يا هار كوت لا أرغب في ممر ألبته. أنا — أنا — أنا لا أستطيع أن أنالسؤال إني".

فانفجر ضاحكا ضحكة المنتصر:"يا أعز مخلوق! كأنما سوف أسبب لك ضيقا. إن الممر جزء من هديتي ".

قالت مس بومنت:" الغابة هديتك. فاعلم أني لا آبه لمر.وإني لأوثر أن أجئ دائما كما جئنا اليوم . ولست أريد قنطرة، لا ولا سورا. ولن يضايقني الأولاد والحروف التي يحفرونها. لقد كان الأولاد والبنات يجيئون دائما إلى "عالم آخر" ويحفرون في لحاء الشجر الحروف والأولي من أسمائهم.

وأنا أسمي هذا المرة الرابعة في السؤال إني لا أود أن أمنع أحدا ".

فأشار إلي قلب كبير وشق فيه سهم وقال " أخ! أخ! أخ " وأغلب الظن أنه أراد أن يكسب وقتا.

"يحفرون أسمائهم وينصرفون. ولدي ولادة الطفل الأول يعودون ليعمقوا الحروف المحفورة، وهكذا تباعا لدي ولادة كل طفل آخر. هكذا يفعلون، فالحروف الأولي البالغة العمق ترمز لآباء أسر كبيرة وأمهاتها. أما خدوش اللحاء التي تلتئم بعدد وقت قصير فترمز للأولاد والبنات الذين لم يتزوجوا إطلاقا ".

"يا أيتها الشخصية المدهشة! لقد قضيت هنا حياتي كلها ولم أسمع قط كلمة من هذا. تصوري وجود أساطير شعبية في هيرتفوردشير! لابد لي من أعلام رئيس الشمامسة بذلك فسيسره — ".

"هار كورت! أنا لا أرغب في وقف هذه التقاليد ".

"يا فتاتي العزيزة! سيجد القرويون شجرا غير هذا الشجر! و "عالم آخر" ليس فيه شيء نادر ".

"ولكن ! ".

""عالم آخر" سيكون لنا، أنت وأنا، ولن يحفر فيه إلا الحروف الأولي من اسمينا " وخفت

صوته حتى صار همسا.

"أنا لا أود أ، أحيطه بسور ". واتجه وجهها إلى فألفيته مرتبكا مذعورا "إني أكره الأسوار، والقناطر، وكل الممرات. هذه غابتي. أرجوك. لقد أعطيتني الغابة ".

ورغب في تسكين روعها مع أنه غاضب، قال:" أجل، بالطبع. ولكن اسمعي يا إلفين. المرج مرجي وأنا في حل من أن أقيم سورا بين أرضي وأرضك ".

"أقم السور وإذا راقك ذلك، ولكن عل، ينبغيكون أنا خارجة عنه، فلن أكون في داخله أبدا ياهاركورت، أجل لن أكون بداخله. ينبغي لي أن أكون في الناحية الحرة،ينبغي لي أن أكون حيث يتسنى لأي امرئ أن يصل إلي.إن تعميق الحروف سنة بعد سنة هو الشيء الوحيد الذي يستأهل أن يستشعره المرء، فإذا انطمست تلك الحروف بعد ذلك فسيكون قد سبق لي الإحساس بها ".

فتمتم، مستندا إلى العبا، قلبلوحيدة التي فهمها والتي كانت في مصلحته:

"الحروف الأولي من اسمينا! فلنحفرها الآن، أنت وأنا،قلب، إذا راقك، وسهم وكل شيء "هـ.و– ا . ب." ".

وأعادت ""هـ.و.– ا.ب."".

واستخرج مديته وسحب فتاته في طلب شجرة غير ملطخة:"ا.ب." بركه دائمة، لي أنا وحدي! ملاذي من الدنيا! معبدي الطاهر! أوه، يا للعظمة الروحية! أنت لا تدركينها ولكنك سوف تفعلين! أوه، الجنة المعزولة. سنة بعد سنة. معا بمفردنا. كل منا للأخر، قلبا وقالبا. عاما بعد عام. روح لروح. ا.ب.البركة الدائمة!" ومد يده ليحفر الحروف.وعندما هم بذلك لاحت كمن استيقظ من حلم ثم صاح:"هار كورت! هار كورت! ما تلك؟ ما تلك المادة الحمراء التي تلون إصبعك وإبهامك؟".

-٣-

"ياللسماء! يالآلهة كافة ذكورا وإناثا؟ لقد نبتت مشكلة لأن المستر وورترز قرأ في مفكرة فورد المتأججة ".

قال فورد:" الخطأ خطئ، فقد كان ينبغي لي أن أعنونها "شخصية وخاصة". ولكن أني له أن يدرك أنه ليس المعني بقراءتها؟".

فتكلمت في صراحة كما قد يتكلم الموظف، قلت:"يا أيها الصبي العزيز، لا شيء من هذا. لقد سقطت بطاقة العنوان، ولذا فتح المستر وور ترز المفكرة، ولم يدر بخلده قط أنها شخصية. انظر! لقد سقطت البطاقة ".

فأجاب فورد متحديا وهو عابس: "لا، بل انتزعت انتزاعا ".

قلت وقد تظاهرت بعدم الفهم "المهم هو هذا: يفكر المستر وور ترز في الأمس مدي أربع وعشرين ساعة. وإذا استمعت إلي نصحي فاعتذر قبل انقضاء تلك الفترة ".

"وهل اطلع على صفحات الشعر؟".

"الشعر؟".

"هل تحدث عن الشعر؟".

"كلا، هل كان الشعر فيه؟".

"لا،لم يكن فيه".

"وإذن فليست هنالك أهمية إذا كان قد رآه ".

قال فورد رافعا بصره إلي:"أحيانا يكون ذكر المرء تحية له ".وفاح من هذه الملاحظة أريج لاذع كالشذى الذي يع، وأسفتفم إثر شرب نبيذ ممتاز.ولم يكن وقع هذه الملاحظة كوقع ملاحظات الصبيا، وأسفتت على أن تلميذي عرض مستقبله للدمار،وقلت له ثانية إن الأولي به أن يعتذر.

"ما أنا بمتحدث عن الاعتذار الذي يطلبه المستر وورترز،فهذا وحيه أوثر عدم مساسه.والمهم هو أنك إذا لم نعتذر وجب أن تذهب —إلى أين؟"

"لدي عمة لي في بكهام ".

فأشرت إلى المنظر الخلوي المبهج الذي تكثر فيه الأبقار ومركبات الخيل على الكلأ في العراء ولدي السواس "السياس" — والذي يتوسطه المستر وور ترز ويشيع فيه النشاط والثروة،

وقلت: "يا عزيزي فورد،اعتذر ولا تستمسك بالبطولة ".

وكان من سوء الحظ أني رفعت صوتي بعض الشيء،وسمعتني مس بومنت التي كانت تحت علي المرجة.

وصاحت قائلة:"يعتذر؟ عن أي شيء؟ وزايلها اهتمامها باللعبة وصعدت الدرج إلينا تجرر وراءها مضرب الكروكت، وكانت خطواتها أقرب إلى التثاقل وصوتها أميل إلى الانخفاض.

فهمست:"تعالي ندخل الدار إذ يتحتم الخروج مما نحن فيه ".

فقال فورد:"وأنا أبي كل الإباء ".

وسألت وهي واقفة إلى جواره على الدرج: "ما خطبك؟"

فرفع بصره إليها وابتلع شيئا ما. وفجأة فهمت، فقد عرفت طبيعة أشعاره وموضوعها.ولم أعد الآن موقنا كل اليقين من أن الاعتذار خير له،إذ بقدر البكور في طرده تحسن حاله.

وحدثها عن الكتاب مع اعتراضي على ذلك، فكانت أولي ملحوظاتها:

"أوه، أرجوك أن ترخص لي الاطلاع عليه!" ولم يكن لديها أي نوع من الإحساس بحقيقة الأمر. ثم قالت:"ولكن لماذا يبدو عليكما الآسي؟".

فقلت:"نحن في انتظار قرار المستر وور ترز".

"أي هراء هذا يا مستر أنسكيب! هل يصح في خلدك أن هار كورت قد يكون غاضبا؟"

"إنه غاضب بطبيعة الحال،وهو في هذا علي حق ".

"ولكن لماذا؟".

"لأن فورد سخر منه ".

"ولكن ما هذا؟" وكانت تلك المرة الأولي التي فيها نم صوتها على الغضب. "أتريد أن تقول إنه يعاقب امرءاً يسخر منه؟ لماذا إذن، لأي آمر آخر لأي سبب أذن نحن هنا؟ أليس لكي يسخر كل منا من الآخر؟

أنا مثلا أسخر النهار كله من الناس، من المستر فورد، منك. وهكذا يفعل هار كورت. أوه لقد أسأتم فهمه! إنه لن يغضب من أناس يداعبونه".

فقال فورد: "لم تكن دعابتي مما يسر، وان يسامحني في يسر ".

وتهكمت به قائلة: "أنت صبي أحمق.أنت لا تعرف هار كورت،إنه كريم من كل وجه وإنه ليغضب –كما قد أغضب أنا – إذا أنت اعتذرت.أليس الأمر كذلك يامستر إنسكيب؟"

"أظن أن له الحق في اعتذار منك ".

"حق؟ وما الحق؟أنت تستعمل كثيراً من الألفاظ الجديدة:

"حقوق – اعتذار – المجتمع –مقام"وأنا لا أستطيع متابعتك.ومهما يكن فلماذا أتينا إلهنا؟".

لقد حلفت محاضرتها بالأضواء والظلال الراجفة،فهي مستخفة لحظة،متسائلة في اللحظة التي تليها لماذا وجدت الإنسانية هنا.وأنا لم أحصل على مرتبة الشرف في علم الأخلاق،ولذا لم أستطيع أن أجيبها.

"ولكني عرفت شيئاً واحداً وهو أن هاركورت ليس في مثل حماقتكما،بل هو يسمو فوق التقاليد ولا يأبه ل "حقوق" و"اعتذارات" ويعرف أن كل دعابة مستحبة،وأن الأشياء المستحبة الأخرى هي المال والروح وما إليها ".

الروح وما إليها!لقد عجبت من أن هاركورت – هنالك في المروج – لم يصب بنوبة من نوبات الصرع.

واستأنفت الكلام قائلة: "تعساً لحياتكم جميعاً إذا انقضت بين الإساءة والاعتذار! أربعون مليوناً في إنجلترا كلهم سريعو الغضب! وإذا صح هذا فكيف يضحك المرء؟ تصور!". وضحكت فعلا ثم قالت:"انظر إلى هاركورت، إنه خير مما تقول،إنه ليس تافهاً إلى هذه الدرجة يامستر فورد ... إنه ليس تافهاً إلى هذه الدرجة. فهل بعينك قذي؟".

ورأسي رأسه على ركبتيه مرة أخري، فلم نعد نستطيع رؤية عينيه.وأعلنتني في نغم رزين بأنها تحسبه يبكي.ثم نقرت بمضربها على شعره قائلة: "بكاء أيها الطفل!بكاء للا شيء!". وهبطت الدرج ضاحكة، وصرخت من المرج قائلة: "طيب! اطلب إلي الطفل الباكي أن،يسكت فأنا ذاهبة لأتحدث إلى هاركورت ".

ورقبناها تذهب في صمت ...ولم يكد فورد يبكي،ولكن كانت عيناه تتسعان في غضب،

مستعملا كل ما استوعب من ألفاظ السباب،ثم ينهض فجأة ويدخل الدار.وأظن أنه لم يكن يطيق رؤيتها خائبة الأمل. وأنا لم أكن في مثل حنانه،ولذا كنت أرقب في اهتمام، وهيورمس بومنت وهي تدنو من سيدها. ومشت عبر المرج في ثقة،تنحني للعمال كلما رفعوا قبعاتهم لها.وزايلها استرخاؤها،واختفي معه الطابع المصطنع الذي يميزها.وعادت إلى شخصيتها الساذجة الفطرية التي اختارها هاركورت من أيرلندة،تلك الشخصية الجميلة الفكهة إلي أقصي حد.أما إذا نشدت الحنان فهي الغاية فيه.

وآيتهما يلتقيان، ولم تلبث أن تعلقت بذراعه.وفهم من تعبي يده أنه يشرح لها كيفية إنشاء القناطر.واعترضت كلامه مرتين وكان عليه أن يعاود الشرح.ثم اقتحمت كلاماً تبته أحداث تفضل كثيراً رواية تمثيلية.افترق جسداهما الصغيران ثم التقيا وافترقا من جديد،وهي تعبر بيديها بينما لاح هو بالغ الزهو والهدوء. واستمرت تتوسل وتدافع وتجادل وتحاول أن تغلو في التهكم، وإنوراء.تهكم تمكن متابعته إلى مدي نصف ميل.ولكي تبرز صفاتها المشابهة لصفات الأطفال تأخرت خطوتين إلي وراء...رشاش! ثم أخذت تتخبط في الجدول الصغير.

وكان هذا إيذانا بانتهاء المهزلة. فخف هاركورت إلى نجدتها. وتزاحم العمال من حولها كأنهم فرقة مرتلين. وعلا البلل حتى ركبتيها كما توحل رسغاها. واقتيدت صوبي، وهي في هذه الحال، وأخذت مع مرور الوقت أسمع عبارات: "أنفلونزا...غطس خفيف. لا أهمية للملابس إذا قبمخلوق.حة ...أرجوك ألا تقلقي يا أعز مخلوق ...نعم لا بد من أنها كانصدمة. ...الفراش الفراش !!أنا ألح في ذهابك إليه، أتعدين؟ أنت فتاة طيبة ...فاصعدي الدرج إلى فراشك ".

وافترقا على المرج،وأذعنت وصعدت الدرج وقد أفعم وجهها رعباً وارتباكاً.

"وهكذا أصابك البلل يا مس بومنت!".

"بلل؟ نعم نعم،ولكني يا مستر أنسكيب لست افهم،فلقد أخفقت ".

وأعربت عن عجبي.

"يجب أن يذهب مستر فورد من فوره،فلقد أخفقت ".

"آسف ".

"لقد أخفقت مع هار كورت، فلقد أسئ إليه،وهو لن يضحك؟ولن يخلي بيني وبين عمل

ما أريد...كانت البداية اللاتينية والإغريقية ...رغبت في أن أعرف شيئاً عن الآلهة والأبطال ولكنه لم يمكنيّ من ذلك.ثم رغبت عن إقامة سور حول "عالم آخر" وعن إنشاء قنطرة وممر. فانظر!وأنا أطلب الآن ألا يعاقب مستر فورد الذي لم يخطئ وحتم عليه مع ذلك أن يذهب إلى الأبد".

"الوقاحة ليست "لا شيء" يا مس بومنت،ويجب أن أتفاهم مع هاركورت ".

وصاحت: "الوقاحة ليست شيئاً!إذ لا وجود لها. إنها تمويه مثل "المطالب"و"المقام" و"الحقوق". إنها جزء من الأحلام الكبرى ".

فسألت محاولا عدم الابتسام: "أية "أحلام كبري"؟".

"خبر المستر فورد – هاك هار كورت آتياً – بأنني ينبغي لي أن أذهب إلى فراشي. عبر له عن مودتي واطلب إليه أن يخمن، وسوف لا أراه ثانية، وهذا ما لاحتمله، أطلب إليه أن يخمن، وأنا آسفة على أني أسميته "الطفل الباكي" وهو لم يبكي كالطفل بل كشخص ناضج. ولقد نضجت الآن أنا أيضاً".

وقدرت أن من الصواب أن أعيد هذه المحادثة على مخدومي.

-٤-

شيدت القنطرة، وأكمل السور، وشد "عالم آخر" إلى بابنا الأمامي بأشرطة من الأسفلت وأما الثمان والسبعون شجرة المحاطة فقد بدت بلا مراء أكثر قرباً. وقد وسعنا في الليالي العاصفة التي أعقبت سفر فورد – أن نسمع تأوهات غصونها وأن نجد في الصباح أن ورق شجرة الزان قد نفخ فيه حتى لطم الدار لطماً. ولم تحاول مس بومنت الخروج – وهذا ما خفف عن السيدات – لأن هار كورت حتم عليها ألا تخرج غير متبوعة، ولاسيما أن الجو العاصف يشوش وزراتهن "أي الجونلات". فلبثت داخل المنزل دون أن تقرأ أو تضحك، ولم تعد ترتدي الملابس الخضراء بل البنية.

وأطل المستر وورترز علي داخل المنزل – غير متنبه إلى وجودها – وقال متنهداً في ارتياح:" الأمر على ما يرام، فلقد اكتمل الشمل".

فأجابت:" هو ما تقول من دون ريب".

"أنت هنا، يا أيتها الفأرة البالغة الصغر! لقد رميت فقط إلى أن سادتنا العمال البريطانيين تعطفوا أخيراً وتجزوا أعمالهم، وعزلونا عن العالم بهذا السياج. أما أنا فقد كنت أخيراً متجراً مستبداً "عفريتاً" وعصيتك، ولم أقم الباب الكبير عند طرف الأجمة الآخر! فهلا عفوت عني؟"

"أي شيء يروقك يا هار كورت يسرني من دون ريب".

وابتسمت السيدات بعضهن للبعض. وقال المستر وورترز:" عظيم هذا. وعندما تهبط الريح سنتقدم جميعاً إلى غابتك ونحتلها رسمياً، لأن المرة السابقة لم تدخل الحساب".

فرجّعت مس بومنت الصدى قائلة:"كلا، في الحق أنها لم تدخل الحساب".

ولاحظت مسز وورترز قائلة:" تقول إفلين إن الريح لن تهبط أبداً، ولست أدرى كيف عرفت هذا".

لن تهبط الريح ما بقيت بالمنزل".

فقال فرحاً:" أحقاً، وإذن فاخرجي الآن تهبط الريح".

ولفوا لفات قليلة مصعدين الشرفة ومنحدرين. وهجعت الريح لحظة غير أنها في أثناء تناول الغداء هبت في أعنف قوة ولم نكد ننتهي منه حتى هدرت لنا وصفرت وهي تهبط المدخنة. وأرغى"[1]" شجر "عالم آخر" كما قد يرغي البحر، وطار منه الورق والغصون، وعصفت بغصن كبير من أغصان الشجر على ممر الأسفلت الناعم، ثم ارتدت فعلا فوق القنطرة وعلى المرج وعبر مرجتنا بالذات. وأجسر على تسميتها" مرجتنا" لأني حاضر الآن بوصفي كاتم سر هار كورت أي سكرتيرة". ولولا الدرج الحجري لبلغ ذلك الغصن إلي يدها، وجرت إلى الخارج ومسته.

منتزع الشرفة ولكان من المحتمل أن يكسي نافذة حجرة الطعام. ووثبت مس بومنت، وفوطة المائدة في يدها، وجرت إلى الخارج ومسته.

وصرخت السيدات:" أوه يا إفلين–".

---

[1] أرغي هنا صوت وضج.

وقال المستر وورترز في تسامح:" دعوها تمر. إنها بلا ريب حادثة جديرة بالاعتبار، ولنتذكرها لنبلغها إلى رئيس الشماسة".

وصرخت مع أول إيذان بعود اللون إلى خديها:" يا هور كورت، ألا يصح أن نذهب – أنت وأنا – إلى الأجمة بعد الغداء؟".

وفكر المستر وورترز.

"يقيناً، إذ فضلت ذلك".

"وما رأيك يا أنسكيب؟".

وأدركت راية وصرخت قائلا:" أوه، فلنذهب! هذا وإن كرهت الريح بقدر ما يكرهها أي إنسان".

" حسن جداً يا أمي، يا أنّا، يا روث، يا مستر أوزجود، سنذهب كلنا".

ولم نعتم أن خرجنا في موكب مكتئب. وأكرمتنا الآلهة في هذه المرة، إذ لم نكد نبدأ المسير حتى سكنت العاصفة وصدر عن سكونها هدوء غير عادي. ومهما يكن فإن مس بومنت لا تكاد تخطيء في التنبؤ بالجو، فلقد أخذ روحها المعنوي في كل لحظة يزداد سمواً. وتقدمننا على طول ممر الأسفلت، ولم تنفك في فترات جد متقاربة تزجي لحبها عبارات كلها جمال وإغراء. وأثار ذلك عجبيّ إذ يعجبني الناس الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف "[1]".

" تعالي إلي يا إفلين!".

"بل تعال أنت".

"أعطيني قبلة".

"تعال وخذها إذن".

وأخذ يجري وراءها وهي تفلت بمنأى عنه، وأخذنا نحن نضحك على إيقاع عذب.

وصاحت:" أوه؟ أنا جد سعيدة، وأظن أني نلت كل ما أبتغيه من

([1]) الأصل الإنجليزي يقول" الناس الذين يعرفون على أية ناحية من خبزهم يدهن الزبد"

هذه الدنيا. أوه يا عزيزي! يا لتلك الأيام الأخيرة التي قضيناها داخل المنزل! ولكن ما أسعدني الآن". وكانت قد استبدلت بثوبها البني ثوبها الأخضر القديم الفضفاض. وأخذت ترقص بوزرتها في المرج الرحب الذي استضاء بومضات مباغتة من أشعة الشمس، وكان المنظر جميلا حقاً. ولم يصوب المستر وورترز امرأته، ولعله استبشر بأنها بدأت تستعيد روحها المعنوي وإن تخلت عن صوتها. لم تكد قدماها تتحركان ولكن جسدها تمايل وثوبها انتشر من حولها في بهاء فستخفنا الطرب .... رقصت على أغنية عصفور شدا مشغوفاً في "عالم آخر" وكأن النهر كبح أمواجه ليراقبها، وكأن الرياح رقدت مسحورة في مغوارها، وكأن الغمائم الكبرى انعقدت على السماء. رقصت بمنأى عن معاشرنا وعن حياتنا وارتدت ساهجة بين العصور السحيقة حتى بليت المنازل والأسوار وحتى أقفرت الأرض تحت الشمس. لقد كساها ثوبها كما يكسو الشجرة ورقها، ولاحت أطرافها كالفروع الكبيرة، وجيدها كالغصن الأملس العلوي الذي يحيي الصباح أو يتألق في المطر. والورق يتحرك ويخفي الغصن كما تحجب جيدها حركة شعرها. ويعاود الورق الحركة كما عاودنا صوتها مرة أخري عندما زايلها الخيال واتجهت صوبنا صائحة:" أوه! أوه يا هار كورت! إنا لم استشعر السعادة قط كما أستشعرها الآن، لأني نلت كل ما في العالم".

أما هو فقد أضواء هيام الحب ونسي الطائفة الممتازة من تماثيل العذراء لرافاييل، ونسي نفسه فيهما يخيل إلى، فوثب ليطوقها بذراعه قائلا:" إفلين! إفلين يا أيتها البركة السرمدية! يا من أملك أبد الآبدين!"، ولكنها أفلتت وزادت الألحان شاعرية الموقف عندما غنت:" أوه يا فورد، أوه يا فورد! بين جميع أفراد أسرة وورترز أجيء أنا إلى مملكتي عن طريقك. أوه يا فورد يا من تحبني! إنني — ما بقيت لي صفات النساء — لن أنساك، كلا، لن يكون نسيان ما بقيت لي أفرع تقبيلك الشمس بظلالها الوارفة". وفيما كانت تغني عبرت النهر.

أما لماذا تبعها مدفوعاً بكل تلك الحماسة فهذا مالا علم لي به ... لقد كانا يلعبان، وهي في أرضه الخاصة التي يطوقها السور وليس في وسعها أن تهرب منه. غير أنه استدار عند القنطرة وانقض عليها كأنما تعرض حبهما جميعه للخطر، ولاحقها فوق الجبل ملاحقة عنيفة. وهي تحسن الجري ولكن النتيجة مفروغ منها. وإنما قام الخلاف في التكهن على: هل يقبض عليها داخل الأجمة أو خارجها؟ ... وأخذ يتداركها بوصة حتى أضحيا تحت ظلال الشجر. وكاد أن

يمسكها فعلا لولا أنها أفلتت واستخفت بين الأدواح، وهو في إثرها.

فقالت مسز أوزجود وأنّا رووث:" وهار كورت، روحه المعنوي عال". وسمعناه يصيح من الداخل:" إفلين!".

وتقدمنا على ممر الأسفلت.

"إفلين؟ إفلين!!".

" جلي أنه لم يقبض عليها بعد".

"أين أنت يا إفلين؟"

وبرز المستر هار كورت صائحا:" لابد من أن مس بومنت قد استخفت في مهارة. اسمع هل رأيت إفلين؟"

"كلا كلا! هي في الداخل، ما في ذلك شك".

" هكذا أظن".

" لا معدي عن أن تكون إفلين زائغة حول جذع دوحة من الأدواح. أذهب فوقنا.هذا الاتجاه ولأذهب أنا من ذاك، وسنجدها من فورنا".

وبحثنا – مبتهجين أول الأمر – مستشعرين دائماً أن مس بومنت عن كثب منا، وأن أطرافها الرقيقة وراءنا مباشرة خلف هذه الشجرة، وأن شعرها وملابسها تترقرق بين أوراق الشجر هذى ... إنها إلى جوارنا ... إنها فوقنا ... ها هي ذي آثار خطواتها على الأرض البنية الأرجوانية ... صدرها .... جيدها ... إنها في كل مكان وليست في أي مكان .... وانقلب الابتهاج غيظاً وارتد الغيظ غضباً وخوفاً .... لقد تجلي أن مس بومنت مفقودة. فلقد ظللنا ننادي:" إفلين! إفلين! أوه، إن هذا فوق حدود المزح".

ثم هبت الريح، وبرز عنفها بعد سكون، وساقتنا إلى البيت عاصفة مروعة.

فقلنا:" ستعود الآن كيفما كانت الحال". ولكن إفلين لم تؤب. وهسس المطر" وعلا من المروج الجافة كالدخان الكثيف. وقرع ورق الشجر المرتعد فتهلل. ثم أشرق الكون فعلت صيحات السيدات، ورأينا "العالم الآخر" وكأنه شخص يصفق بيديه، وسمعناه، وكأنه امرؤ يضج

ضاحكاً بين الرعود ... وإن رئيس الشماسة نفسه لن يستطيع أن يتذكر عاصفة كهذي. لقد تلف كل ما شرع ينبت من زرع هار كورت. وطارت قوالب القرميد يمنه ويسرة من فوق السقوف الهرمية "الجالونات" ... إذ ذاك جاءني –ابيض الوجه شاحبة – قائلا:" هل لي أن أعتمد عليك؟".

" لك ذلك، يقيناً".

"ساورني الريب طويلا، لقد هربت مع فورد"

فقلت لاهثاً:" ولكن كيف –".

" المركبة معدة، وسنتكلم إذ نسوقها". ثم صرخ في مواجهة المطر:" ليس للسور باب كبير، وأعلم ذلك، ولكن ما رأيك في سلم؟". وبينما كنت أبحث على غير هدي كانت هي على الجانب الآخر من السور وكان هو – " ولكنك كنت جد قريب، والوقت لم يتسع".

فقال وقد استثارة الضغن:" حيث توجد امرأة خائنة يتسع الوقت لكل شيء. لقد وجدت أنها ليست أفضل من امرأة همجية، فهذبتها وعلّمتها ... إني محطمها كليهما، وذلك في مقدوري، سأحطمها روحاً وجسداً".

" لا أحد يقدر الآن على تحطيم فورد. هذا مستحيل ... ولكنى ارتعدت من أجل مس بومنت"

فاتنا القطار وقد استقله من الشباب أزواج، أزواج عديدون منهم، وقد سمعنا عن وجود أزواج من الناس في لندن، فكأن العالم يسخر من وحدة هار كورت ... وعندما يئسنا فتشنا في الضاحية القذرة التي يقطنها فورد الآن. وانطلقنا مارين بالخادمة القذرة والخالة المرعوبة، وأسرعنا إلى الطبقة العليا لنقبض عليه متلبساً بجريمته فألفيناه جالساً إلى المنضدة يقرأ قصة أوديب في كولونيوس لسوفوكليس "١".

فصاح هار مورت قائلا:" هذا لن يخدعني، مس بومنت عندك وأعلم ذلك".

---

(١) سوفوكليس شاعر تراجيدي إغريقي ذائع الصيت كتب سبع قصص قوية منها (أويديبوس ملكاً). وهي قصة مغترب ولى الملك لقوته وطرد منه لأنه تزوج امرأة تبين أنها أمه بعد أن أنجب منها طفلتين هما ابنتاه وأختاه في وقت معاً، ومن ثم عرف مثل هذا التصرف بعقدة أوديب

فقال فورد:" لم يواتني مثل هذا الحظ".

فقال متلجلجا من الغضب:" يا أنسكيب! استمع إلى هذا "لم يواتني مثل هذا الحظ" اتل عليه البنة فما أستطيع كلاماً".

فرددت أغنيتها:" أوه يا فورد! أوه يا فورد! بين جميع أفراد أسرة وورترز أجيء أنا إلى مملكتي عن طريقك. أوه يا فورد يا من تحبني! إن – ما بقيت لي أنوثتي – لن أنساك. كلا، لن يمون نسيان ما بقيت أفرع تقبيك الشمس بظلالها الوارفة وقد فقدناها تواً عقب ذلك".

وفى مناسبة أخري أرسلت مس بومنت رسالة بهذا المعني، وإنسكيب على ذلك من الشاهدين، وكان عليه أن "يخمن" شيئاً".

فقال فورد:" لقد خمنته".

" وإذن فأنت، علي وجه التقريب ".

"كلا يا مسز وورترز. أنت مخطئ فهمي، فأنا لم أخمن على وجه التقريب، بل لقد خمنت، ويسعني إخبارك إذا أردت، ولكن لأخير في ذلك لأنها لم تفلت منك على وجه التقريب، بل أفلتت نهائياً ودواماً، وإلي أبد الآبدين، ما بقيت أفرع تقى الناس الشمس بظلالها الوارفة".

صديق الخوري

لم يعرف على وجه التحقيق كيف ألفون "١" إلي ولتشير "٢". وربما يكون قد وفد مع فرق جيش روما ليعيش مع صحبه في المعسكر متحدثاً إليهم عن لوكريتيليس "٣" أوجارانجوس "٤" أو عن منحدرات إثنا "٥" وقد أنساهم شدة فرحهم باستدعائهم ي أوطانهم أن يعيدوه معهم علي ظهر السفينة. فبكي في منفاه، ولكن وجد آخر الأمر أن تلالنا أيضا تفهم أحزانه، فأمسي يتهلل طالما طابت نفسه. وربما تأتي وجوده هناك لأنه كان دائما هناك، ولم يعف في الأدب القديم شيء عن ألفون على وجه التحقيق. وكل ما في الأمر أن الإغريق والإيطاليين تميزوا منذ الأزل بأنهم أحد الناس أبصاراً. وإنك لتجد ألفون ف "العاصمة" "٦" أو " صلاة البركة "٧" " وفي أي صقع يحوي أدغالا من شجر الزان ومروجاً منحدرة من الكلأ، وقد تخلقه الجداول البالغة الصفاء.

أما كيف تأتت لي رؤيته فأمر أكثر عسرا. ذلك أن رؤيته هناك تستلزم التوفر على خلة بذاتها، خلة لا تمكن تسميتها ب"الاستقامة" لأن هذا الاسم فاتر جداً بالقياس إليها، كما لا يمكن وصفها ب"الروح الحيواني" لأن هذه العبارة بالغة الغلظة.

وآلفون وحده يعرف كيف توافرت لي هذه الصفة. ومع أن أحداً ليس له أن ينعت نفسه بأنه "أحمق" فأنا أجسر على القول بأنني إذ ذاك شابهته كل المشابهة، إذ كنت مازحاً دون دعابة وجاداً دون اقتناع. وكنت —كل يوم أحد –.

---

(١) ألفون: إله الحقول والرعاة عند الرومان.

(٢) ولتشير مقاطعة في إنجلترا شهيرة بمراعيها، حاضرتها ساليسبوري

(٣) لوكرتيبا اسم سيدة رومانية عظيمة خلع الإمبراطور تاركوين العظيم بسبب جمالها ووفائها لزوجها.

(٤)جارانجوس قمة جبل عالية في آبوبلا بإيطاليا

(٥) إثنا بركان في الشمال الشرقي من جزيرة صقلي كثير التوازن وقد زعموا أنه موئل العمالقة والإعصارات.

(٦) العاصفة (ذي تمبست) تمثيلية لشكسبير تعرض، فيما تعرض، للأرواح التي يخضعها السحر.

(٧) صلاة البركة(بينيديسيتية) صلاة كاثوليكية لأتينه تتلى قبل الطعام مبتدئة بلفظ (البركة). وفى متحف اللوفر بباريز صورتان بهذا الاسم من عمل أبران وشاردان.

أتحدث إلى أبناء "الأبرشية" "١" الريفيين عن العالم الآخر بأسلوب شخص عاش خلف المشاهد أو أبين لهم أخطاء البلاجيين "٢"أو أنذرهم بعواقب الهرع إلى الإسراف بين ألوان الملذات، وفي كل ثلاثاء ألقي ما أسميته" أحاديث مباشرة إلى أبنائي"، أحاديث ترشد مباشرة إلى سبيل تنكب الحرج، وفي كل خميس أحاضر اتحاد الأمهات في وأجباب الزوجات أو الأرامل مقدماً لمحات عملية عن إدارة الأسرة ذات العشرة الأشخاص.

حملت نفسي على الدخول في فترة معينة حملت أملي — في يقين–على أن تدخل. وأنا لم أر قط فتاه تواظب على حضور مواعظي بمثل هذا الاهتمام، أو تضحك على دعاباتي، من كل قلبها بمثل ذلك الإخلاص. فلا عجب إذا أنا خطبتها وإذا هي أضحت زوجة ممتازة تمعن في تصويب سخافات زوجها على ألا نتيح لغيرها كائناً من كان أن ينال من هذه السخافات بكلمة واحدة، زوجة يتسنى له في غرفة الاستقبال أن تتحدث عن ذات العقل الباطن وأن تعير مع ذلك سمعها الأطفال الباكين في غرفتهم الخاصة أو الأطباق المتكسرة في المكان المعد لغسلها ولحفظها، زوجة عظيمة بلغت شأواً هو أعلى من أي مستوى سبق لي تصوره هلي الإطلاق. غير أنها "من ناحية الانعطاف الروحي" لم تتزوجني.

ولو كنا لبثنا داخل الدار في عصر ذلك اليوم ما حدث شيء. ولكننا خرجنا تلبية لرغبة والدة أملي التي ألحت في أن تشرب الشاي خارجها. وكان في مواجهة القرية، عبر الجدول، أرض كلية "طباشيرية" واطئة نتوجها أجمة شجر الزان وبضعة من متاريس التراب الرومانية "حاضرت في نشاط وحماسة عن تلك المتاريس، وثبت منذ ذلك الوقت أنها سكسونية"؟ وهنالك استخرجت سلة"٣" شاي وسحبت "بطانية" ثقيلة لوالدة أملي بينما تقدمت أمامنا أملي وصديق صغير لها. أما الصديق الصغير — الذي صرف الوقت كله في اللعب والذي هو أقل أهمية مما يزعم إلى حد كبير — ففتي ظريف يفيض ذكاء وشاعري وبخاصة فيها أسماء هو شعر الأرض، فهو مولع بأن يستخلص من الأرض أسرارها، وقد رأيته يضغط وجهه — في انفعال — على الكلأ حتى عندما كان يزعم أن أحداً لا يراه. وكانت أملي — إذ ذاك — مفعمة

(١) الأبرشية (بفتح الهمزة) ما كان تحت ولاية به أسقف من أماكن،أشخاص.

(٢) أتباع بلاجياس الذي كفر بالخطيئة.

(٣) السلة والسل (بفتح السين) الجون وهو ما يسميه العامة (السبت) والجمع سلال (بكسر وبفتح)

بالأماني الغامضة. وع أني كنت أفضل أن تتركز كل هذه الأماني في شخصي ففج لاح من غير المعقول أن ننكر عليها فرصاً أخرى لتثقيف نفسها بقد ما تسمح به ظروف البيئة.

وكان ديدني وقتئذ —كلما بلغن ذروة أي مرتفع — أن أهتف متفكها:" ومن الذي سيقف على جانبي ويحمي القنطرة معي؟". وفى الوقت نفسه أخذت أحرك ذراعي في عنف أو أصب جام يقظتي البالغة على عدو وهمي.

وتقبلت أملي والصديق دعابتي بمثل ما دراجو على تقبلها، كما أني لم أشك في إخلاصهم كلما داعبوني. وإلى ذلك كنت مقتنعاً بأن شخصاً من الحاضرين لم يتبادر إلى ذهنه أنني مضحك ... وأن أي خطيب ليقدر اضطر أبي المتزايد.

ابتهجت بعض الابتهاج من والدة أملي التي أطرتني وهي تهتف:" كرم منك يا هاري أن تحمل الأمتعة. ما الذي كنا نستطيعه بدونك، حتى هذه اللحظة! أوه، ما أجمل المنظر! هل يسعك أن تتبين الأبرشية المحبوبة؟كلا، فهي غير واضحة للرؤية. والآن، سأجلس على "البطانية" مباشرة". وضحكت ضحكة غامضة ثم قالت:" يا لمنظر البراري في سبتمبر!" إعجاباً متكلفاً بالمشهد الذي لا يحلو إلا في عيون أولئك الذين تروقهم الأرض والذين يحسبونها أروع مشاهد إنجلترا. فها هنا جسم العنكبوت الكلسي الكبير الذي يفج "١" فوق جزيرتنا أرجله الخبوت "٢"الجنوبية والخبوت الشمالية ومناطق تشلترز، وأطراف أصابع أقدامه تمتد في كرومر ودوفر. إنه كائن نظيف ينبت أشجاراً قليلة جهد استطاعته يربيها في أدغال أنيقة، وهو يتعشق أن تدغدغه الجداول المتدفقة، علي أن جسده يتبثر"٣" بالمتاريس الترابية لأن الرجاء في بدء التاريخ حاربوا ليستأثروا بالوقوف فوقه، وعلي ظهره يعلو أقد معابدنا.

وأنا أحب بلادي كما كانت في تلك الأيام: مريحة جميلة تعج ببيوت الكبراء وبالطلل والظليلة وبالناس الذين يلبسون قبعاتهم "٤" وأما الرحاب "المتعة الكبيرة — التي قد يتمشي

---

(١) أفج ما بين رجليه فتح وباعد

(٢) الخبوت والأخبات جمع خبت (بفتح فسكون) وهو ما اتسع واطمأن من الأرض

(٣) البثر الدمل الصغير وجمعه بثور.

(٤) في الغرب لدى مرور المعارف بعضهم ببعض في الطريق يمس الرجل المهذب قبعته كأنه يهم برفعها للتحية.

المرء أميالاً فلا يكاد يجد تبايناً ملحوظاً في معالمها ولا يكاد يلقى واحداً من السادة المهذبين — أما هذه الرحاب فقد ظلت، إذ ذاك، مما لا طاقة لي به. فانثنيت — أول ما سمحت لي اللياقة بأن أنثني — قائلا:" هل لي الآن أن أعدّ الفنجان المنعش؟".

فأجابت والدة أملي:" كرم منك أن تعينني أيها الرجل، وأنا ما أنفك أقول: إن أتناول الشاي خارج المنزل يستحق المزيد من الجهد الذي يبذل في هذا السبيل. وكنت أتمنى أن تكون حياتنا أكثر بساطة مما هي عليه". وأمنّا على كلامها، ونشرت الطعام:" ألا تريد الغلاية أن تستقر؟ هي لها الاستقرار!" فامتثلت. ثم سمعت صرخة ضعيفة، صرخة خافتة ولكنها بينة، كأنما شيء يتألم.

وقالت أملي:" ما أكثر سكون كل شيء هنا!"!

وألقيت على الحشيش عود ثقاب مشتعل، وسمعت الصرخة الضعيفة من جديد.

واستفهمت:" ما هذا؟"

قالت أملي:" قلت "ما أكثر سكون كل شيء هنا!" ولم أزد".

فأجاب الصديق الصغير:" وأي سكون!".

سكون المكان تملؤه الضوضاء. ولو أن عود الثقاب سقط في غرفة استقبال لما كانت الحال شراً منها الآن، وكان أجهر الضوضاء يصدر عما يجاور أملي بالذات. وكنت أشعر تماماً كأني أقصد وليمة كبري وأنتظر إعلان اسمي في البهو الذي ترجع إليه أصداء الضجة، حيث أسمع أصوات الأطياف ولما أر وجوههم، وتلك لحظة يهتاج لها أعصاب الرجل الهياب وبخاصة إذا كانت الأصوات جميعها غريبة عليه ولم يكن قد لقي رب الدار قط.

قالت كبري السيدتين:" يا عزيزي هاري! لا عليك من عود الثقاب فسيخمد ولن يؤذى أحداً ... شأ آ آي! إني أقول دائماً — وستجد أملي مثلي تماماً — إن الساعة الخامسة السحرية لا تكاد تقترب، كيفما حسن طعام الغذاء. حتى يبدأ المرء في استشعار ضرب من أل".

وآلفون الآمن من النوع الذي ينط على الجهات الناتئة في أثيك "١" الجديدة فإذا لم ترقب

---

(١) الأتيك هي اليونان القديمة — الواقعة في الشمال الشرقي من البيلوبونيز في مواجهة جزيرة أوبيه — وكانت عاصمتها أثينا. وكان يطلق عليها اسم (أكتي) وعلى سكانها (أكتينين) وهذا مصدر اشتقاق كلمتي (أتينا) و (أتينيين).

أذنيه أو تر ذيله خلته رجلا وتملكك الرعب.

فصرخت صرخة وحشية:" سباحة! شيء كهذا يناسب صبيان القرية، مع مراقبة أشد. أوافق تماماً وأنحي باللائمة على نفسي، فارحل عنا أيها الولد السيئ، أرحل عنا".

قالت أملي وقد انتصب المخلوق الذي إلى جوارها واقفاً وأومأ إلي:" ما الذي سيفكر فيه بعد ذلك!". وتقدمت – مناضلا معبراً بيدي – في خطوات جد قصيرة وصرخات مخوفة وأنا أطرد الأشباح الشريرة بحركات من قبعتي. وهكذا كان شأني أمس عندما قادتني بنات أخت أملي لرؤية خنازير جينيا التي تربينها، وقد لقيني بمثل ما لقي به الآن من الضحك الصادر من أعماق القلوب. وإلى أن أطبقت على الأصابع الغريبة كنت أظن أن هنا أحد أتباع أبرشيتي ولم أكف عن الهتاف:" دعني أذهب أيها الولد "العفريت"، يجب أن أقر بأنهم أولاد من "العفاريت" وأنه لا سبيل إلى إنقاذ أذاهم".

وهنا وقع نظري على الذيل فصحت صرخة عاتية وهربت في أجمة شجر الزان التي من خلفنا.

وفيما كنت أزيلهم قالت والدة أملي:" لو أن هاري احترف التمثيل لأفلح".

أدركت أن أزمة كبيرة في حياتي على وشك أن تقع وأنني – إذا أخفقت – فقد أفقد إلى الأبد الاعتبار في نظر نفسي. وقد حدث قبلا أن أقلقتني مجموعة من الأصوات: أصوات التل من تحتي، والشجر من فوق رأسي، والحشرات ذاتها المتداخلة في الحاء الدوحة. وقد وصل إلى سمعي حتى صوت ماء الجدول يلعق بقع أرض من أطراف المروج، والمروج تحتج وادعة. وفوق الطنين، الذي لا يزيد علي طنين النحل الطائر، علا صوت ألفون قائلا:" أيها القسيس، كن رابض الجأش، ممّ تخاف؟".

فقلت، ولم أكن في الحقيقة خائفاً:" لست فزعاً ولكني مغتم لأنك أخزيتني على مرآي من السيدات".

قال وهو يبتسم في تكاسل:" لم يرني غيرك أحد. فالنساء أحذيتهن محكمة والرجل شعره طويل، وهذه الأصناف لا تتاح لها الرؤية أبداً. وقد انقضت سنوات طويلة تحدثت فيا إلى الأطفال فقط، فإذا ما كبروا غبت عن نواظرهم أما أنت فلن أغيب على ناظرك وستكون صديقي إلي آخر عمرك ... وها أنذا أبدأ في إسعادك: استلق على ظهرك، أو اجر في المسابقات،

أو تسلق الشجر، أم تراك تفضل أن آتيك بتمر العليق "١" أو الجريسات "٢" أو بزوجات؟".

فأجبته في صوت مرعب:" سر ورائي!". فسار ورائي ثم استأنفت الكلام قائلا:" أمر حاسم: دعني أخبرك أن لا جدوى من غواية شخص يجد سعادته في إسعاد الآخرين".

قال مهموما:" إني لا أستطيع فهمك، زما الغَواية؟".

فقلت متحولاً عنه:" يا رجل الغاب المسكين! أني لك أن تفهم؟".

لقد كان زجري إياك باطلا، فليس في طبيعتك الزهيدة ما يجعلك تفهم حياة إنكار الذات. آه ليتني أقدر على الوصول إليك!"

التل:" لقد وصلت إليه".

"ليتني أقدر على لمسه!"

قال التل:" لقد لمسته"

فصاح ألفون قائلا في صوت مرتفع:" ولكني لن أخلي سبيلك: سأكنس لك كنيستك، وسأصحبك إلى اجتماعات النصف "٣" من المتزوجات، وسأوفر لك الغني عن طريق التجارة".

فهززت رأسي قائلا:" تلك الأشياء لا تسترعي اهتمامي بتاتاً. وفى الحق أنني كنت ميالاً لأن أبي كليةً ما عرضت من خدمات، وأنا في هذا كنت مخطئاً، لأنك ستعينني، ستعينني على إسعاد الآخرين".

"أيها القسيس العزيز، أية حياة غريبة تلك! فيم أسعد أناساً لم أرهم قط، أناساً ليس في مقدورهم أن يروني؟".

" يا ولدي المسكين، ربما تفقه السبب مع الوقت. أما الآن فانطلق، ابدأ ... فوق هذا التل بالذات تجلس شابة لها عندي مقام كبير ... ابدأ بها ... آها، إنك تغض من بصرك، وذلك ما قدرته فليس في مقدورك صنع شيء وهذا قصارى الأمر جميعاً!".

---

(١) تمر العليق (بتشديد اللام) فاكهة في الغابة تشبه" التوت الأسود" كما ينم عليه الاسم الإنجليزي (بلاك بري).

(٢) الجريسات (بضم ففتح) جمع مصغر، والاسم الإنجليزي (أجراس الأرنب) وهي من نبات الغاب.

(٣) النصف (بسكون الصاد أو ضمها) والأنصاف: جمع نصف (بفتحها) من فات حسن الشباب.

فأجاب:" يسعني إسعادها إذا أنت أمرت، وإذا ما صنعت أنا هذا فقد توليني ثقة أكبر".

كانت والدة أملي قد بدأت تشق الطريق إلى بيتها. أما أملي والصديق الصغير قد بقيا حتى ذاك الوقت إلي جوار أمتعة الشاي وكانت – هي – تلبس ثوباً من البيكة "١" البيضاء وقبعة من القش الهش وهو في بذلته الصيفية الحسنة التفصيل وإن خشنت، وشمخت صورة ألفون الوثنية العظيمة فوقهما في صلف.

كان الصديق يقول:" أولم تستشعري قط الوحشة المروعة لحشدٍ من الغوغاء؟".

فأجابت أملي:" استشعرت كل هذا وأكثر منه".

ثم وضع ألفون يده عليهما ... لقد استطاع أولئك الذين لم يرموا إلي أكثر من المغازلة المهذبة البسيطة أن يقاوموه ما وسعتهم المقاومة، ولكنهم دفعوا شيئاً فشيئاً إلي أحضان بعضهم البعض وتبادلوا قبلات الهيام الحلوة.

فانفجرت صارخاً من الغابة:" يا جاحد الجميل! لقد غدرتني".

فصاح الصديق الصغير قائلا." أنا أعلم ذلك ولا أهتم. تنح جانباً وأنت الآن في حضرة من لا تفهمه. ولقد وجدنا أنفسنا في العزلة الكبيرة آخر الأمر".

فزعقت في ألفون:" أرفع يديك اللعينتين!".

فأطاع. واستأنف الصديق الصغير الكلام في مزيد من الهدوء:" من الباطل زجر الناس ... وما مبلغك علمك، أنت أيها المخلوق الكهنوتي المسكين، بسر الحب بين الرجل الأزلي والمرأة الأزلية، وبسمو النفس إلى الكمال؟"

وقالت أملي مغضبة:" هذا حق هاري .... أنت لم تكن لتقدر على إسعادي. وسأتعامل وإياك على أنك صديق، إذ كيف يمكنني أن أسلم نفسي إلى رجل يمزح مزاحاً سخيفاً كهذا. وأنت عندما تصرفت تصرف المهرج عند تناول الشاي قضيت على نفسك. والواجب أن تعاملني معاملة جدية: ينبغي لي أن أري اللانهائيات تنفسح حولي عندما أشرق "أو أتجلي". قد لا يكون هذا رأيك ولكن هكذا خلقت، وأنا في العزلة الكبرى وجدت نفسي آخر الأمر".

---

(١) البيكة – قماش قطني.

فصرخت قائلا:" العزلة الكبرى! أيتها الفتاة الشقية! أيتها الدميتان اللتان لا حول ولا قوة".

وبدأ الصديق الصغير يحرس أملي في طريقها. وقد سمعتها تهمس في أذنه:" أيها العزيز، لا يمكننا بعد هذا أن نترك السلة لهاري. و "بطانية" أمي، هل يضيرك مسكها باليد الأخرى؟"

وعلى هذا ارتحلا، وألقيت أنا بنفسي على الأرض في كل مظاهر اليأس.

قال ألفون." أهو يبكي؟"

فأجاب التل:" إنه لا يبكي، فعيناه أكثر ما تكونان جفافاً".

وجعلني معذبي أنظر إليه وقال:" أري السعادة في أعماق قلبك".

فأجبت قائلا في جفاء:" أوقن بأن عندي مواردي السرية". وإذ ذاك أعددت تشهيراً مبرحاً، ولكني – من بين كل الكلمات التي كان يمكنني قولها – لم ألفظ إلا واحدة تبدأ بحرف الشين".

فصرخ صرخة الفرح قائلا:" أنت الآن تنتمي إلينا حقاً. وأنت، إلى آخر حياتك، ستعلن كلما غضبت وستضحك كلما سعدت. فاضحك الآن!".

وكان سكون عميق. لقد وقفت الطبيعة كلها تنتظر، بينما يحاول خوري أن يخفي أفكاره، لا عن الطبيعة وحدها بل عن نفسه كذلك. فكرت في كبريائي الجريحة، وفي أريحيتي المخيبة، وفي أملي التي أخذت أفقدها، مع أن خطأً لم يصدر عنها، لا ولا عن صديقها الصغير الذي اندس إذ ذاك تحت سلة الشاي الثقيلة، وهذا ما جعلني أبت في الأمر ثم أضحك.

وفي تلك الأمسية سمعت، أول مرة، الخبوت الكاسية، يغني بعضها للبعض عبر الأودية كما يحدث في كثير من الأحيان عندما يهدأ الهواء، وقد قضت الخبوات يوماً طيباً. واستطعت من نافذة مكتبي أن أري صورة ألفون، التي أضاءتها الشمس، جالسة أمام أجمة شجر الزان كما قد يجلس الرجل أمام بيته.

ولما هبط الليل أدركت يقيناً أن الكري لم يزره وحده بل خيم على التلال والغابات. أما الجدول فما عرف النوم قط بأكثر مما عرف التجمد. ولا ريب في أن مواقيت الإظلام هي مواقيت الماء الذي تيبس بعض الشيء طول النهار نتيجة للنبضات الخافقة التي تصدر عن الأرض. ولهذا يسعك أن تحس بها وأن تسمعها ليلا من مسافة مديدة، ولهذا يسمي الاستحمام

بعد غروب الشمس من أعجب العجب.

على أن الابتهاج الذي استشعرته في تلك الأمسية الأولي ما يزال مائلا في ذاكرتي مع كل الأعوام الطويلة التي تلتها. لقد عاودتني ذكري الابتهاج عندما كنت ارتقي منبر الخطابة في أبرشيتي "أما الآن فأنا بالمعاش" وأخفض بصري علي صفوة الناس التي تشغل المقعد تلو المقعد كرماء راضين. وعي لي حثالة الناس المحتشدة في مماشي الكنيسة، وعلي صادحي[1] جوقة المرتلين ذوي الشوارب الكبيرة، وعلى القساوسة ذوي الحواجب العالية، وعلى وكلاء الكنيسة يرفعون أكياسهم من أربطنها بأصابعهم، وعلى الشمامسة المتشامخين الذين يردون عند الباب من وصلوا متأخرين. وتعاودني الذكري كذلك عندما كنت أجلس في أبرشية غير المتزوجين المريحة بين أخفاف [2] البساط التي صنعها لي شباب السيدات الطيبات، ومساند البلوطية الكتب التي حفرها من أجلى شباب الرجال الطيبون وسط مجموعات أباريق الشاي المهداة، وبين عطايا الشكر المضاءة وسائر القرابين من أولئك الذين يعتقدون أنني مددت لهم يد المعونة والذين هم في واقع الأمر، قد أعانوني عل الخروج من الوحل. ومع أنني أحاول أن أنقل هذا الابتهاج إلى الآخرين، كما أحاول أن أنقل إليهم كل ما يبدو حسناً، ومع نجاحي أحياناً في ذلك، مع هذا لا يسعني أن أبين لأحد علي وجه الدقة كيف يتأتى لي ذلك. لأنني إذا تنفست بكلمة واحدة منه فستنتهي حياتي الحالية الكبيرة النفع والربح. وإذ ذاك تذهب عني جماعة المصليين ويكون لزاماً عليّ أن أذهب أنا أيضا، وقد أجد نفسي عبئاً على الأمة بدلاً من أعمد إلى الوجدانيات وإلى البلاغة التي تناسب الموضوع وتوائم مهنتي –أكرهت على اللجوء إلى الأسلوب القصصي وإلى تضليلكم بإعلاني أن هذه قصة صغيرة تصلح للقراءة في القطار .

(١) الصادح – في الغناء ذو الصوت المثلث (تينور).

(٢) الأخفاف والخفاف (بكسر الخاء) جمع خف وهو هنا ما يلبس في القدم بالبيت وما يسمي بالشبشب.

الطريق من كولوناس

-١-

لأمر غير جلي تماماً هرع المستر لوكاس متقدماً جماعته. وربما يكون الآن قد بلغ السن التي فيها يصبح الاستقلال أمراً ذا بال لأنه فاقدة عما قريب. ولما كان قد مل من الدعاية والاحترام رغب في أن يفلت ممن يصغرونه منهم ليمتطي دابته ويترجل عنها دون عون من أحد. وربما يكون أيضاً قد استطاب ذلك السرور الخفي ألا وهو إجباره على انتظار الغداء، وإخبار الآخرين لدي وصولهم أن هذا لا يهمه.

لذلك عمد – في مثل ضجر الأطفال – إلي وخز جني الدابة بكعبيه وإلى استحثاث البغال علي ضربها بعصاً غليظة ونخسها بأخرى مدببة. وانحدر وهو يهتز فوق البغل على جوانب الجبل – عبر أدغال من الشجيرات المزهرة ورقع ممتدة من شقائق النعمان "١" والبروق "٢"– إلى أن سمع خرير الماء الجاري ورأي مجموعة من شجر الدلب "٣" كان متفقاً أن يتناولوا غذاءهم بينها.

وهذا الشجر يسترعي النظر حتى في إنجلترا. فهو هناك آية في الضخامة والتشابك وبهاء الاتشاح بالأخضر المتموج. وهو هنا في اليونان منقطع النظير، إنه المكان الرطيب الوحيد في ذلك الصقع الحلوى المشرق الذي تلفحه حرارة الشمس حتى في إبريل. وكان يستر في وسطه "خان" أو نزل قروي صغير واه بني من الطين وله شرفة خشبية عريضة. وفى هذه الشرفة جلست عجوز تغزل، وإلى جوارها وقف خنزير بني صغير يطعم من قشر البرتقال. وعلى الأرض المبلولة تحت، جلس طفلان القرفصاء يلعبان بأصابعهما نوعاً من الألعاب القديمة، وأمهما – التي لم تكن بالغة النظافة كذلك – تطهو في الداخل خبيصاً من الأرز. وكان كل شيء –كما قالت مسز فورمان –يونانياً بحتاً. وشعر المستر لوكاس – الذي يصعب إرضاؤه –

---

(١) شقائق النعمان أو زهرة الريح نبات أحمر مبقع بنقط سوداء

(٢) البروق (بفتح فضم) أو السيراس زهر بري.

(٣) الداب شجر عظيم عريض الورق لا ثمر له.

بارتياح عظيم إذ أحضروا معهم طعامهم ليأكلوه في الهواء الطليق.

وإلى ذلك كان وجوده هناك من دواعي سروره. فقد ساعده البغّال على الترجل، كما سر لأن مسز فورمان لم تكن هناك فتقاطع آراءه، بل لأنه لن يري "أثل" في مدي نصف ساعة على الأقل. وأثل هذه صغري بناته، لم تتزوج بعد، ولا أثر عندها للأثرة. وكان مفهوماً بصفة عامة أنها وقفت حياتها على أبيها وعلى أن تصبح سلواه في سنه المتقدمة. وكانت المسز فورمان لا تكف عن الإشارة إليها على أنها أنتي جونا، كما كان الستر لوكاس يحاول أن يستقر على دور أوديب، ويبدو أنه الدور الوحيد الذي يرخص له به الرأي العام.ووجه الشبه بينه وبين أوديب أنه أخذ يكبر. وتجلي ذلك حتى بينه وبين نفسه. لقد زايلته خلة الاهتمام بشئون الغير، وقلما ألقي باله وهم يتحدثون إليه. وكان مولعاً بالتحدث عن نفسه، إلا أنه كثيراً ما ينسي ما يهم بقوله. وحتى في حالات التوفيق كان نادراً ما يبدو أن حديثه يستحق ما يبذله فيه من جهد. وأصبحت عباراته وحركاته جامدة آفلة، وفقدت نوادره رونقها بعد طلاوة، وأمسى سكوته بلا معني ككلامه. ولكنه إلى ذلك عاش حياة نشيطة، وثابر على العمل وربح أموالاً وربي بنيه. ولم يكن هناما — أو من — يعيبه، وكل ما هنالك أنه أخذ يكبر.

وها هو ذا الآن في بلاد اليونان، وبذلك تحقق أحد أحلام حياته. فقد انتابته حمي الهيام بتلك البلاد وتملكه طوال حياته شعور بأنه ما يعيش عبثاً إذا أتيحت له زيارتها. غير أنه وجد أثينا متربة ولفي ممطرة وثرموبيلي منبسطة، وكان عليه أن يستمع — في دهشة وتهكم — لهتافات رفاقه التي تذهل العقل. ألا إن بلاد اليونان لتشبه بلاد الإنجليز. إنها كرجل أخذ يكبر، وظهور هذا الرجل عل ضفاف التمس أو اليوروناس سيان. وكان ذلك آخر أمل له في مناقضة منطق التجربة، ولكنه باء بالإخفاق.

ومع ذلك أفادته بلاد اليونان من حيث لا يدري إذ أثارت فيه التبرم، التبرم يخلف في الحياة كثيراً من الاضطراب والحركة. فلقد عرف أنه لم يكن ضحية سوء حظ مقيم، وأن شيئاً عظيماً قد لحقه الاختلال، وأنه مسوق إلى منافسة عدو ليس من الناس العاديين ولا هو بالعدو العرضي، وتمتلكه في الشهر الأخير رغبة غريبة في أن يموت مناضلا.

قال لنفسه وهو واقف تحت شجرة الدلب:" بلاد اليونان هي البلاد التي تناسب الشباب، ولكني سأدخلها وأفوز بها. وسيخضل ورق الشجر من جديد ويعذب الماء وتزرق السماء.

هكذا كانت منذ أربعين سنة خلت، وإني لظافر بها مرة أخري. إني آبه لكبر السن ولن أدعيّ بعد الآن".

وما أن خطا خطوتين إلى أمام حتى بقبقت المياه الباردة فوق رسغيه وسال نفسه:" من أين يجيء الماء؟ هتي هذا لست أعرفه".وتذكر أن جوانب الجبل جميعها جافة بينما الطرق هنا تغطيها –على غير ما ينتظر – جداول متدفقة.

وقال وقد توقف ساكناً متحيراً:" ماء يخرج من شجرة، من شجرة جوفاء؟ أنا لم أر قط شيئاً كهذا ولم أفكر ذلك أن شجرة الدلب الضخمة التي مالت صوب الخان كانت جوفاء، فقد أحرقوا ما تحتويه من خشب وحولوه إلى فحم. وكان يتفجر من جذعها القائم ينبوع يتدفق منه ماء يكسو لحاء الشجرة خنشاراً "نبات السر خس" وطحالب ويفيض على الدرب الذي تمر منه البغال ليخرج فيما وراءه مروجاً خصيبة. وقد شارك القرويون – ما وسعتهم المشاركة – في زيادة حسنها وغموضها، فاحتقروا في قشر الشجرة مزاراً مقدساً ثبتوا فيه مصباحاً وصورة للعذراء وريثة المثوى المشترك بين إلهة البحيرات والأنهر وإلهة الغابات والأحراش.

فقال المستر لوكاس:" أنا لم أر قط شيئاً يذهل إلى درجة كهذي، بل وفي وسعي أن أخطو إلي داخل الجذع لأتعرف مصدر الماء".

وتردد لحظة في انتهاك حرمة المزار ثم تذكر، مبتسما، ما كان يفكر فيه:" سيكون المكان مكاني" وإذن فسأدخله وأخوره" ووثب –كما قد يثب المغتصب – علي الحجر في داخله.

وظل الماء – دون أن يحدث صوتاً –ينبثق من بين الأصول الجوفاء لشجرة الدلب ومما استتر من فجواتها، مكوناً بركة عنبرية بديعة، هنالك قبل أن تتكسر على شفة قشرتها وتسيل على الأرض التي تحيط بها .... ذاق المستر لوكاس مياهها فوجدها حلوة. ولما رفع بصره إلى قمع الجذع رأي السماء، وكانت زرقاء، وبعض الأوراق، وكانت خضراء، وتذكر فكرة أخري من أفكاره، لقد سبقه آخرون. ولا ريب في أن أسلوبه في فهم معني المرافقة أسلوب غريب. وكانت تقدم إلى صاحبة القوة المقدسة قرابين صغيرة مشدودة باللحاء: كالأذرع والأرجل والعيون الصغيرة المصنوعة من الصفيح وكنماذج المخ والقلب غير المتقنة وككل أنواع الأمارات التي ترمز لاستعادة القوة أو الحكمة أو الحب إلى حد ما. ولم يكن هناك ما تمكن تسميته عزلة

الطبيعة، لأن أتراح الإنسانية أو أفرحها قد شقت طريقها إلي قلب الشجرة. وبسط ذراعيه وألصق نفسه بالخشب الذي تحول فحم ثم أسند ظهره رويداً رويداً حتى استقر جسده على الجذع من خلفه. وأطبق عينيه وتملكه شعور غريب كأنه يتحرك مطمئناً حتى لكأنه السابح يغالب طويلا لجحاً تصطخب ثم يجد آخر الأمر أن التيار سيجره إلى مقصده.

وعلى هذا رقد ساكناً، متنبهاً فقط إلى تيار الماء الذي تحت قدميه، وإلى أن كل ما حوله إنما هو تيار ماء يتحرك هو فيه.

وأيقظته آخر الأمر صدمة ربما كانت قدوم قادم، إذ، عندما فتح عينيه، مر شيء ما — لا يمكن تصوره ولا تحديده — جمع الأشياء وجعلها واضحة معقولة.

وكان انحناء العجوز على العمل وسرعة حركة خنزيرها الصغير وتناقض كرتها الصوفية، كان كل أولئك لا يخلو من معني. وجاء، على بغلةٍ، شاب يغني وهو يعبر الغدران وكان في مظهره جمال وفي تحيته صدق. ولم يكن منظر أشعة الشمس، على جذور الشجرة المنتشرة، من النماذج العرضية، كما كان في كتل البرواق "١" المنكسة وموسيقي النهر ما يدل على القصد. على أن المستر لوكاس — الذي لم يستكشف، في فترة قصيرة من الزمن، اليونان وحدها بل استكشف كذلك إنجلترا والعالم أجمع والحياة — لم يجد ما يدعو إلى السخرية في الرغبة في أن يعلق في داخل الشجرة قرباناً آخر سبق نذره ألا وهو مثال صغير لرجل بكامل هيئته.

"ها هو ذا يا أبي يلعب دور صقر الجراد".

ووصلوا جميعهم من دون أن يلحظ مجيئهم أحد، وكانوا: أثل والمسز فورمان والمستر جريهام والترجمان الذي يتكلم الإنجليزية. ورمقهم المستر لوكاس كمن تداخله ريبة، وقد حلت بهم الكلفة فجأة وبدا أن كل ما صنعوا كان متكلفاً خشناً.

قال المستر جريهام،وكان شاباً دائم الأدب مع من يكبرونه سناً:" اسمح لي أن أمد لك يدي".

وشعر المستر لوكاس بحرج وأجاب:" شكراً. في وسعي بمفردي أن أنصرف على الوجه الأكمل". ولم يكد يخطو خارج الشجرة حتى زلقت قدمه إلى الينبوع.

---

(١) البرواق (بفتح فسكون) نبات يقال إنه يخضر من دون مطر كلما غامت السماء.

فقالت أثل:" أبت! ما تصنع؟ أحمد الله على أني استحضرت لك فوق البغل تغييره ملابس".

ورعته في عناية وأمدته بجوربين نظيفين وحذاءين عاليين ناشفين، ثم أجلسته على البطانية إلى جوار سلة الغداء، وذهبت هي مع الآخرين لارتياد الغابة الصغيرة.

وعادوا تتملكهم نشوة حاول المستر لوكاس أن يشاركهم فيها ولكنه ألفاهم لا يطاقون. فقد كانت حماستهم سطحية دارجة تشنجية، إنهم لم يدركوا ما يحيط بهم من جمال مزدهر. ثم حاول على الأقل أن يعبر عن شعوره وهاك ما قاله:

"إن رؤية هذا المكان لتملاني سروراً فهو بالغ التأثير علي. والشجر فيه بديع، بديع إلي درجة عالية بالنسبة إلي اليومان. وفي نبع الماء الصافي شيء عظيم الشاعرية. ويبدو أن الناس أيضاً يتصفون بالرقة واللطف، والمكان جذاب، ما في ذلك شك".

ولامته المسز فورمان على مديحه الفاتر.

وصاحت:" أوه، هذا المكان هو الواحد في الألف! وإني لأود أن أعيش هنا وأموت هنا! ولو لم يكن علي أن أعود إلي أثينا لبقيت حقاً! فالمكان يذكرني بكولوناس موطن سوفوكليس".

قالت أثل:" حسن، ينبغي لي أن أبقي. إني باقية يقيناً".

" نعم ابقي! أنت وأبوك! أنتي جونا وأوديب! يقيناً يجب أن تبقيا في كولوناس!".

وكادت أنفاس المستر لوكاس أن تتوقف وتملّكه الانفعال. لقد خال – عندما احتواه جذع الشجرة – أن سعادته ير مرتبطة بمكان. غير أن الحديث الذي جرى في تلك الدقائق القليلة أمرات.لى الحقيقة، فلم يعد يؤمن نفسه على أن يضرب في الأرض لئلا تدركه أفكار عتيقة ومتاعب قديمة فور مزيلته شجر الدلب وموسيقي الماء البكر. وإن ليلة يقضيها في الخان مع القرويين الكرام ذوي العيون الرحيمة ويرقب فيها الخفافيش تسبح هائمة في دنيا الظلام ويري فيها القمر يرد النماذج الذهبية فضية، إن ليلة كهذي لتنأي به عن الانتكاس وتثبته أبدآ في الدنيا التي استردها. وكان قصارى ما استطاعت شفتاه أن تقولا:" سأبقي لقضاء ليلة هنا".

" أنت تعني أسبوعاً يا أبت، فقضاء ما يقل عن هذه المدة انتهاك لقدسية المكان".

" أسبوع إذن، أسبوع" بهذا نطقت شفتاه وقد ضايقه التصويب وإن قفز قلبه من الفرح

... ولم يعاود التحدث إليهم طوال فترة الغداء بل أخذ يرقب المكان الذي ينبغي له أن يعرفه كل المعرفة والناس الذين سيغدون في القريب العاجل رفقاءه وأصدقاءه. وكان مجموع نزلاء الخان: عجوزاً وامرأة نصفاً"[١]" وشاباً وطفلين، ولم يوجه الحديث إلي أيّ منهم ولكنه مع ذلك أحبهم كما أحب كل شيء تحرك أو تنفس أو وجد تحت ظل أشجار الدلب المبارك.

وهنا قالت المسز فورمان بصوتها الحاد:" إلى الطريق! يا أثل! يا مستر جريهام! إن أحسن الأشياء حتم أن تلقي نهايتها".وفكر المستر لوكاس:" سيوقدون الليلة المصباح الصغير في المزار المقدس وقد يخبرونني – عندما نجلس كلنا معاً في الشرفة – أي قربان يعلقون".

وقال المستر جريهام:" عفواً مستر لوكاس، إنهم يريدون أن يطووا البطانية التي تجلس عليها".

ونهض المستر لوكاس وهو يقول لنفسه:" ستذهب أثل إلى الفراش أولا، وعندئذ أحدثهم عن قرابيني أنا أيضاً، وذلك شيء ينبغي لي القيام به، وأظن أنهم سيدركونه إذا تركت وإياهم بمفردي".

وربتت أثل خديه قائلة:" يا أبت، لقد ناديتك ثلاث مرات ... البغال كلها حاضرة".

"البغال؟ أيّ بغال؟".

"بغالنا. كلنا في الانتظار. أوه يا مستر جريهام، أرجوك أن تعين أبي على الركوب".

" لست أعلم عم تتكلمين يا أثل".

" ينبغي لنا أن نبدأ الارتحال أيها الوالد العزيز، وأنت تعلم أن علينا أن تبلغ الليلة أولمبيا".

فأجاب المستر لوكاس في نغمة ملؤها الثقة والزهو:" طالما تمنيت يا أثل أن يصبح تفكيرك في تدبير المشروعات خيراً مما هو الآن، أنت تعلمين كل العلم أننا سنقضي هنا أسبوعا، والاقتراح من لدنك أنت".

فقالت أثل، وقد فزعت فزعاً أنساها أدبها:" ما أعظم سخافة هذه الفكرة، كان عليك أن تدرك أنني كنت مازحة. لقد عنيت يقيناً أنني وددت لو استطعنا البقاء".

فتنهدت المسز فورمان وقد ركبت بغلها وقالت:" آه ليتنا نقدر على أن نفعل كل ما نريد!".

---

[١] النصف (بفتحتين) متوسطة العمر.

واستأنفت أثل كلامها قائلة:" يقيني أنك لم تدرك أني عنيت ذلك".

"أدركته بكل تأكيد ورسمت خطتي على افتراض بقائنا، ولا ريب في أنني يضايقني جداً، بل يتعذر عليّ كلية، أن أرتحل".

ألقي هذه الملاحظة في هيئة المقتنع المتثبت، واستدارت المسز فورمان والمستر جريهام ليخفيا ابتسامتيهما.

"آسف على أني تكلمت على هذا النحو من الإهمال، لقد كان ذلك خطأ، ولكنك تعلم أننا لسنا في حل من أن ننقسم على الجماعة، والبقاء هنا ولو ليلة يفوت علينا الباخرة في باتراس".

وانتحت المسز فورمان بالمستر جريهام ناحية ولفتت نظره إلى الأسلوب الممتاز الذي به ساست أثل والدها.

"أنا لا آبه لباخرة باتراس. لقد قلت أن علينا أن نتريث هنا، وإنا لفاعلون".

ولاح أن نزلاء الخان تكهنوا بطريقة خفية بأنهم قد أصابهم مس من الخصام، فتوقفت العجوز عن غزلها بينما وقف الشاب والطفلان خلف المستر لوكاس وكأنهم يسندونه.

إلا أنه لم يحركه الجدل أو التوسل ... تكلم قليلا ولكنه بدا كمن عقد النية بعزم أكيد، إذ رأي — أول مرة — أن حياته اليومية قد استقامت له ... وما حاجته بالعودة إلى إنجلترا؟ ومن ذا الذي سيفتقده؟.... فأصحابه بين ميت وشيخ. وأثل تحبه على صورة ما ولكنها تهتم لأشياء أخري، وهذا من حقها. أما بنوه الآخرون فهو لا يكاد يراهم. وليس له بعد ذلك من ذوي قرباه غير أخته جوليا التي يمقتها ويخشاها في وقت معاً. فهو إذن في غني عن مجاهدة نفسه. وإنه ليكون أحمق جباناً إذا أنقلب عن المكان الذي حباه السعادة والسلام.

ولكي تلاطفه أثل — وهي غير كارهة أن تستعرض ما تعرف من اليونانية الحديثة — دخلت أخيراً إلى الخان، يرافقها الترجمان الحائر، لتلقى نظرة على الحجرات. فاستقبلتهما المرأة التي في الداخل بالترحاب في صوت عال. بينما أخذ الشاب يجر بغل مستر لوكاس إلى الإصطبل في غفلة من الجميع.

"دعها أيها اللص!" بهذا صاح جريهام الذي طالما جاهر بأن الأجانب يسعهم أن يفهموا الإنجليزية إذا راقهم ذلك. وكان على حق لأن الرجل امتثل، وقد وقفوا جمعياً في انتظار عودة أثل.

وأخيراً ظهرت وذبول ملابسها تطبق عليها وفى إثرها الترجمان يحمل الخنزير الصغير الذي ابتاعه بعد مساومة.

"يا والدي العزيز، سأصنع من أجلك كل ما يسعني صنعه. أما المبيت في هذا الخان فلا".

فاستفهم المستر فورمان:" أفيه براغيث؟".

فأشارت أثل إلى أن" البراغيث" ليست الكلمة الصحيحة.

وقالت المسز فورمان:" أخشى أن هذا يحسم الأمر فأنا أعرف كيف يدقق المستر لوكاس".

قال المستر لوكاس:" هذا يحسم الأمر. أثل، انطلقي فلا حاجة لي بك، ولست أعرف لماذا استشرتك، وسأبقى هنا بمفردي".

فأجابت أثل وقد فقدت صوابها:" هذا محض هراء. أيجوز تركك وأنت في هذه السن؟ كيف يتسنى لك أن تأكل أو تستحم؟ ثم إن كل خطاباتك تنتظرك في باتراس وستفوتك الباخرة. ومعنى هذا أنك ستحرم من أوبرات لندن وتتشوش كل ارتباطك في هذا الشهر. ألا إنك لتتصرف كأنك تستطيع الارتحال بمفردك!".

وشاركها المحاولة المستر جريهام قائلا:" قد يطعنونك بسكين".

ولم يقل الروم "اليونانيون" شيئاً إلا إنهم كانوا يومئون صوب الخان كلما اتجه المستر لوكاس ببصره إليهم. وود الطفلان لو سحباه من سترته. وكادت العجوز التي تعلو الشرفة أن تتوقف عن غزلها كل التوقف وصوبت إليه من عينيها نظرات تنم على الغموض والتوسل. وفيما كان يناضل اتسع نطاق الخلاف اتساعاً كبيراً. وقد دخل في روعة أنه باق، لا لأنه استعاد الشباب ورأى الجمال ووجد السعادة فحسب بل لأنه –في ذلك المكان ومع أولئك الناس – ينتظره أمر جلل يغير وجه العالم. وكانت تلك اللحظة هائلة إلى حد أنه تخلى عن الكلم والمجادلات على أنها لا غناء فيها، وأخلد إلى القوة الجبارة المقنعة التي لأحلافه وهم الرجال الصامتون والماء المضموم والشجر الهامس. ذلك أن المكان جميعاً نادى في صوت موحد يستبينه هو، بينما أخذ مناوئوه الثرثارون يزدادون في كل دقيقة تفاهة وسخفاً، وهم عما قريب سيكلون ويذهبون إلى الشمس مثرثر ين وسيتركونه للبغيضة الرطيبة وضوء القمر والمصير الذي تنبأ به.

وكانت المسز فورمان والترجمان قد بدءا الرحلة فعلا بين صيحات الخنزير الصغير الحادة.

ولولا أن أثل أهابت بالمستر جريهام أن يتدخل لجاز أن يدوم النضال أبداً.

همست في أذنه قائلة:" أفي وسعك أن تعينني؟ إنه صعب المراس".

" لست من أهل الجدل، ولكن إذا وسعني مساعدتك بأية وسيلة أخري ...". وغض بصره ونظر نظرة راضية إلى هيأته السوية.

وتلعثمت أثل ثم قالت:" ساعدني بأية وسيلة في مقدورك ونحن على أية حال إنما نصنع هذا لخيره".

" وإذن فدعي بغله يقاد من ورائه".

وفيما كان يدور في خلد المستر لوكاس أنه غنم يومه، شعر فجأة أنه رفع عن الأرض وأجلس بالجنب على السرج، وفى الوقت ذاته انطلق البغل راكضاً.

ولم يقل لوكاس شيئاً لأنه لم يكن لديه ما يقوله، حتى أن انفعاله كان يسيراً عندما شعر بانتهاء الظل وسكوت صوت الماء. وكان المستر جريهام يجري إلى جواره ممتذراً وقبعته في يده.

"أعلم أنني لم أكن محقاً في التدخل، ولذا أتوسل إليك في حرارة أن تغفر لي. وآمل مخلصاً أن تشعر يوماً ما أنني كنت .... إلى الجحيم!".

وأدركه في وسط ظهره حجر رماه به الغلام الذي كان يتعقبهم في درب مسير البغال ومن خلفه أخته ترمي بالحجارة كذلك.

وصاحت أثل بالترجمان الذي تقدمهم – مسافة ما – مع المسز فورمان.

ولكن قبل أن يلحق بهم ظهر غريم جديد وهو اليوناني الشاب الذي انفصل عنهم متقدماً عليهم والذي عاد فانقض على الشكيمة"اللجام" التي بيد المستر لوكاس. ومن حسن الحظ أن جريهام كان ملاكماً بارعاً، وما هي إلا لحظة حتى ضرب الشاب فحطم دفاعه الواهن وألقاه على زهر البروق فجرّ دامي الفم.

وفى هذه اللحظة وصل الترجمان. وفزع الغلمان لمصير أخيهم فكفوا عن محاولاتهم. أما فرقة الإنقاذ – إن صح حسبانها كذلك – فقد ارتدت في غير نظام إلى الأشجار.

وضحك جريهام ضحكة الظافر قائلا:" أيها الشياطين الصغار! هذا هو جماع اليونان الحديثة

... إن بقاء والدك كان معناه حصولهم على مال، وهم يرون أننا نخرج المال من جيوبهم ".

"زما أفظعهم إن هم إلا متوحشون ... لست أدرى كيف أشكرك أبداً وقد أنقذت أبي".

"غاية ما أرجوه ألا تحسبيني فظاً غليظ القلب".

فأجابت أثل في تنهيدة قصيرة:"كلا، فأنا ممن يعجبون بالقوة".

وفي غضون ذلك انتظم الركب. أما المستر لوكاس الذي احتمل في صعوبة خيبة أمله على صورة جد مرضية —كما قالت المسز فورمان — فقد نقل بطريقةً مريحة إلى ظهر دابته. وقد عجلوا صعود صفحة الجبل خشية التعرض لهجمة أخري. ولم توأت أثل حتى زيلوا المكان المليء بالحوادث والوقائع ونأوا عنه مسافة سحيقة.

" لقد بدا لي أيها الوالد العزيز أنك، إذ ذاك، تغيرت كثيراً. ولقد رميتني بفزع كبير. ولكنى الآن أشعر أنك عدت كدأبك".

فلم يجب، وحسبت هي أنه بطبيعة الحال كان متأثراً من تصرفها".

وبخدعة من خدع النظر العجيبة التي كثيراٍ ما تلوح في المناظر الجميلة، بدا كأن المكان زايلوه منذ ساعة يقع تحتهم. واختفى الخان تحت القبة الخضراء. أما في العراء فقد ظلت ثلاثة أشباح واقفة، ومن خلال الهواء النقي سمعت صرخة واهية للتحدي أو التوديع.

وتوقف المستر لوكاس متردداً وترك السرع يقع من يده.

فقالت أثل في رفق:" هيا يا والدي العزيز".

فأذعن. وما هي إلا هنية أخري حتى ستر ننوء صخري، قائم في أعلى الجبل، ستر المنظر الخطر، إلى الأبد.

-٢-

كان الوقت وقت الفطور، ولكن مصابيح الغاز كانت مضاءة بسبب الضباب ... لقد غرق المستر لوكاس في لجة من الذكريات السيئة في الليلة التي قضاها. أما أثل — التي يحل موعد زواجها بعد أسابيع قليلة — فقد أسندت ذراعيها إلى المائدة مصغية.

" أول ما حدث: دق جرس الباب .... ثم عدت من الملهي"التياترو" ... ثم بدأ الكلب ... وتلاه القط ... وفى الثالثة صباحاً مر "عصبجي" يغني .... أجل أجل، ثم أخذ الماء يبقبق في القصبة"الماسورة" التي فوق رأسي".

قالت أثل وقد بدت منهوكة القوي:" أحسب أن هذا لم يكن غير تصريف الماء".

"مها يكن من شيء فإن أكره ما أكرهه هو الماء الجاري في القصب، لأنه يقض مضجع من يأوي إلي فراشه ويجعل مبيته البيت مستحيلا. وسوف أتخلص من هذه الحال. وسأرسل إشعاراً بذلك في ربع السنة التالي. لأخبرن صاحب البيت في صراحة: إن سبب هجري المنزل هو هذا: المبيت فيه متعذر كل التعذر. فإذا قال ... حسن ... ماذا عنده ليقوله؟".

"كسرة أخري من الخبز المحمّر"توست" يا أبت؟".

"شكراً يا عزيزتي" وتناولها، وحل فاصل من الوئام.

وما هي إلا هنية حتى استأنفت الكلام قائلا:" لن أذعن – في مثل ما ينعتونني به من خلق ذلول – إلى التدريب الذي يجري في البيت المجاور. ولقد كتبت وأخبرتهم بذلك. أليس كذلك؟"

فقالت أثل التي حرصت على عدم وصول الخطاب:" أجل لقيت المربية فوعدت أن تصلح الأمر على خلاف ما هو جارٍ الآن. ثم إن عمتي جوليا تكره الضوضاء، وسأعمل أنا على تصحيح الوضع".

وكانت عمتها – هي عضو الأسرة الوحيد المنقطع الصلة بها – قادمة لتشرف على منزل والدها حينما نتركه. على أن إشارتها إلى هذا الموضوع م تكن من دواعي السرور. فقد أخذ المستر لوكاس يطلق مجموعة من التنهدات التي لا يخفي مدلولها كثيراً، ولم يوقفها إلا ورود البريد.

وهنا صاحت أثل:" أوه، أية رزمة"طرد" هذي! لي أنا! ما عساها أن تكون! طوابع يونانية! شيء مثير جداً.

ثم ظهر أن الرزمة تحوي بصيلات زهر البروق أرسلتها المسز فورمان من أثينا لتزرع في المستنبت الزجاجي.

" ألا تعيد علينا هذه البصيلات كل الذكريات! أنت تذكر البروق يا أبت، كل البصيلات مغلفة بجرائد يونانية. وإني لأتساءل هل أنا ما زلت قادرة على قراءتها؟ لقد كان ذلك في

مقدوري قبلاً، وتعلم ذلك".

وأخذت تثرثر بقصد أن تغطي ضحكات الأطفال الذين في البيت المجاور لأنها قد تكون مصدراً مألوفاً للمشاكسة وقت الفطور.

"أصغ إليّ! "كارثة في الريف" أوه لقد أصبت خبراً محزناً، ولكن لا بأس "في يوم الثلاثاء الماضي، في بلاتانست، بمقاطعة مسينيا، وقعت مأساة فاجعة، فإن شجرة كبية" ألست أحسن الفهم؟ "وقعت في الليل و ......" رويدك لحظة يا عزيزي! "وسحقت النزلاء الخمسة المقيمين في الخان الصغير القائم هناك، ويبدو أنهم كانوا جالسين في شرفته. وقد سهل التعرف على جثتي صاحبة النزل العجوز مارية رومابيدس وابنتها البالغة من العمر ستة وأربعين عاماً. أما جثة سبطها"[١]

أوه، إن البقية لبالغة الفظاعة. ألا ليتني لم أحاول قراءة الخبر. وأنا فوق ذلك أشعر أنني سمعت قبلا اسم بلاتانست. وأظن أننا لم نلبث هناك في الربيع، أم ترانا فعلنا ذلك؟".

فقال المستر لوكاس ووجهه الماسح لا يعبر إلا عن قلق بسيط:" تناولنا غداءنا هناك. ونحن.كان تلك هو المكان الذي اشتري الترجمان منه الخنزير"

فأجابت أثل في صوت منفعل:" يقيناً، حيث اشترى الترجمان الخنزير الصغير. هذا فظيع!"

قال الأب، وكانت ضوضاء الأطفال في البيت المجاور تسترعي كل انتباهه:" فظيع جداً!". وعلى حين فجأة وقفت أثل على قدميها في اهتمام صادق.

وهتفت:" يا للرحمة! تلك جريدة قديمة. إن ذلك لم يحدث أخيراً، بل في أبريل، في مساء الثلاثاء الموافق الثامن عشر من الشهر. ونحن ... لابد أننا كنا هناك في فترة ما بعد الظهيرة".

فقال المستر لوكاس:" هكذا كنا" فوضعت يدها على قلبها ولم نكد نقوي على الكلام.

" يا أبت، أيها الوالد العزيز، لا معدي لي عن أن أقولها، أنت رغبت في المبيت هناك، وحاول كل أولئك الناس، الناس التعساء أنصاف المتوحشين، أن يحملوك على البقاء. وها هم أولاء قد ماتوا جميعاً. والمكان —كما تقول الجريدة — أصبح كله خراباً حتى إن الجدول غير

(١) السبط (بكسر السين) يطلق في الأغلب علي ولد والبنت، وهذا غير الحفيد الذي لا خلاف في أنه ولد الوالد.

مجراه .... يا أيها الوالد العزيز، لو لم أحملك أنا على الرحيل ولو لم يساعدني آرثر لكنت أنت من الهالكين".

فهز المستر لوكاس يده مهتاجاً وقال:" لا خير إطلاقاً في التحدث إلى المربية. وسأكتب إلي صاحب البيت:" إن السبب في هجري المنزل هو هذا: الكلب ينبح، والأطفال في البيت المجاور لا يحتملون، ثم إني لا أطيق صوت جريان الماء".

ولم تكبح أثل هذيانه إذ شدهتها النجاة في الفرصة الأخيرة، بل سكتت طويلاً، ثم قالت آخر الأمر:" إن نجاة عجباً كتلك لتبعث في المرء الإيمان بالقدرة الإلهية".

ولم يجب المستر لوكاس الذي كان ما يزال يصنف خطابه إلى صاحب البيت.

الآلة تتوقف

الجزء الأول

سفينة الهواء

تخيل – إذا استطعت – غرفة صغيرة سداسية الأضلاع كخلية النحل، لا تضيئها نافذة ولا مصباح ونملأ جوانحها مع ذلك أشعة خافتة، وليست فيها فتحات للتهوية ولكن هواءها نقى، ولا تحوي آلات موسيقية إلا أنها – في اللحظة التي تنطلق فيها تأملاتي – تختلج بعزف بديع الإيقاع، ويتوسطها كرسي ذو مساند يجاوره قمطر للقراءة هما كل ما تضم من أثاث .... وتجلس في هذا الكرسي كومة لحم مقطمة "[1]" هي امرأة قد يبلغ ارتفاعها الخمسة الأقدام ولها وجه أبيض كالفطر "[2]" وهي صاحبة تلك الغرفة.

ودق جرس كهربي.

ومست المرأة مفتاحاً محوّلا "سوتش" فسكتت الموسيقى.

وفكرت:" أظن أنه ينبغي لي أن أري من الطارق". وأمدت كرسيها بالحركة. وكان – كالموسيقي – تحركه آلة. فتدحرج بها إلى طرف الغرفة الآخر حيث ظل الجرس يرن في إلحاح.

فهتفت:" من الطارق؟" وكان صوتها منفعلا لأن الاستماع إلى الموسيقي قطع عليها مراراً منذ بدء العزف ... وكانت هذه السيدة تعرف بضعة آلاف من الناس، إذ سارت العلاقات الاجتماعية قدماً في بعض المناحي.

وعندما أصغت إلى جهاز الاستقبال تجعدت أسارير وجهها الأبيض، وأسفر عن ابتسامة، وقالت:

" حسن فلنتحادث. وسألوذ بالعزلة. وأنا لا أتوقع حدوث شيء ما في الدقائق الخمس التالية وأستطيع يا "كونو" أن أخصك بخمس دقائق. ولكن بعد هذا ينبغي لي أن ألقى محاضرة

---

(1) مقطمة أي ملفوفة لفاً مشدوداً.

(2) الفطر (بضم الفاء) عش الغراب.

عن: الموسيقي في العهد الأسترالي".

ومست العازل لتقطع على الغير سبيل التحدث إليها. ثم مست جهاز الإضاءة فغرقت الغرفة الصغيرة في الظلام.

وهتفت وقد عاودها الانفعال:" البدار البدار يا كونو فهاأنذا أضيع وقتي في الظلام".

وانقضت خمس عشرة ثانية كاملة قبل أن يبدأ في التوهج القرص المستدير الذي كانت تمسكه بيدها، وقد انطلق عبره ضوء خافت أزرق لم يلبث أن ارتد أراجونياً داكناً. وإذ ذاك تسني لها أن تري طيف ولدها الذي يعيش في الجانب الآخر من العالم كما أنه استطاع أن يراها.

"ما أبطأك يا كونو".

فابتسم ابتسامة وقورة.

"أعتقد حقاً أنك تستمرأي التلكؤ".

"لقد دعوتك من قبل يا أماه ولكنك كنت على الدوام في شغل أو عزلة. وعندي موضوع خاص أود أن أقضي به إليك".

"وما ذاك أيها الابن العزيز؟ عجل به. ولماذا لم ترسله إلىّ بالبريد النيومانيكي؟ "[١]".

"لأن شيئاً كهذا أفضل أن أبلغك إياه مشافهة. أريد —".

"حسن؟".

"أريدك على أن تحضري وتشاهدني".

وراقبت فأشتي وجهه في القرص الأزرق. وهتفت:" رؤيتك في مقدوري فما تريد فوق هذا؟".

قال كونو:" أريد أن أشاهدك ولكن لا عن طريق الآلة، وأود أن أتحدث إليك ولكن عن عير طريق الآلة المضنية أيضاً".

قالت الأم وقد صدمت صدمة غامضة:" أوه، اسكت، ولا تتكلم بسوء عن الآلة".

" ولم لا؟".

---

[١] البريد النيوماتيكى قصب به هواء مضغوط يعجل نقل الخطابات — فور وضعها فيه — من مكتب البريد إلى آخر".

" لأن ذلك لا يصح".

فصاح الابن:" تتكلمين عنها كأنها من صنع الله، ولعلك تبتهلين إليها في الشدة. ألا إنها من صنع الإنسان، لا تنسى هذا، صانعوها عظماء ولكنهم بشر على كل حال. والآلة شيء عظيم ولكنها ليست كل شيء. فأنا أشاهد في القرص شيئاً يشبهك ولكنى لا أشاهدك، وأسمع في التليفون صوتا كصوتك ولكنى لا أسمع صوتك، لهذا أريدك على أن تأتي إليّ. تعالى والقيني، زوريني نلتق وجهاً لوجه ونتحدث عن الأماني التي تختلج في صدري".

فأجابت بأن وقتها لا يتسع للزيارة.

"إن سفينة الهواء تقطع المسافة بيني وبينك في يومين".

"أنا أمقت سفينة الهواء".

"لماذا؟".

" لأني أمقت رؤية الأرض السمراء الداكنة المخوفة والبحر والنجوم، عندما تظلم الدنيا. ثم إنى – في سفينة الهواء تنقطع أفكاري، إنها لا تخطر لي إلا في سفينة الفضاء".

" أي نوع من الأفكار يمكن أن يوحي لك به الهواء؟".

فاستأن لحظة.

"ألست تعرفين أربعة نجوم كبيرة تشكل مستطيلا تتوسطه ثلاثة أخرى متجاورة تتدلى منها ثلاثة أخر؟".

" كلا، لست أعرف، وأنا أمقت النجوم، ولكن هل توحي إليك بأفكار؟ ما أكثر ما يشوقني هذا. خبرني".

"كانت لي فكرة، هي أنها تشبه رجلا".

"لست أفهم".

"النجوم الأربعة الكبرى مَنكبا الرجل وركبتاه، والثلاثة التي في الوسط تشبه الأحزمة التي درج الناس حيناً على لبسها، والثلاثة المدلاة تشبه السيف".

"السيف؟".

"كان الناس إذا خرجوا يحملون سيوفاً يقتلون بها الحيوان وغيرهم من بني الإنسان".

"هذه الفكرة لا تدخل في روعي على أنها فكرة عظيمة، ولكنها مبتكرة يقيناً ... متى هبطت عليك أول مرة؟".

"في سفينة الهواء – "، فأنهى الحديث. وخالت هي أنه بدا مكتئبا وإن لم تستطع التثبت من هذا. ذلك أن الآلة لا تصور التفاوت في التعبيرات. ولكنها لا تزيد على أن تعطى فكرة عامة عن الناس، فكرة بأس بها في الأغراض العملية كافة، وهذا ما كان يدور بخلد فأشتي. ذلك لأن الآلة تنكر – بحق – الازدهار الذي لا يؤبه له والذي تجاهر في صده فلسفة فقدت اعتبارها قائلة إن جوهر العلاقات الاجتماعية تنكره الآلة تماماً كما ينكر أصحاب مصانع الفواكه الصناعية ازدهار الكروم الذي لا يؤبه له. وقد سلم الإنسان – بعد هذا، منذ أجل طويل – بالأشياء التي "لا بأس بها".

واستأنف الكلام قائلا:" الحقيقة أني أود رؤية هذه النجوم من جديد. إنها نجوم غريبة أود رؤيتها –لا من سفينة الهواء ولكن من سطح الأرض كما كان يفعل أسلافنا منذ آلاف السنين". وصدمت مرة أخري.

"يا أماه. لا معدي عن أن تجئيني – على الأقل – لكي تبيني لي ما الضرر من زيارة سطح الأرض".

فأجابت وهي تضبط عواطفها:" لا ضرر منها ولكن لا فائدة، فسطح الأرض إن هو إلا تراب وطين، ولا بقاء لحياة فوقه. وستكون أنت عندئذ في حاجة إلى قناع تنفس وإلا قتلتك برودة الهواء الخارجي، إذنيه يموت الإنسان من فوره".

"اعرف ذلك، وسأتخذ دولة جميع الاحتياطات".

"وإلى هذا ".

"حسن؟".

فتبصرت ودققت في اختيار ألفاظها. ولما كانت دي ابنها سجية شاذة رغبت في أن تثنية عن الرحلة.

فأكدت:" إنها تخالف روح العصر".

"أبهذا تعنين أنها تخالف الآلة؟".

"نعم، من ناحية ولكن —".

وهنا حالت صورته التي على القرص الأزرق.

"كونو؟".

لقد لجأ إلى العزلة.

وفجأة شعرت فأشتي أنها في عزلة.

ثم استنبطت النور فأنعشها منظر غرفتها وقد غمرها الضياء ورصعتها الأزرار. لقد وجد في كل مكان منها أزرار ومفاتيح محولة"سويتشات" فأزرار تستحضر الطعام أو الموسيقى أو الملبس، وزر للحمام الساخن تضغطه فيطلع من أرض الغرفة حوض من رخام صناعي مترع بسائل دافئ منقى من الروائح الخبيثة، وآخر للحمام البارد، وزر يولد الإنتاجات الأدبية، وتوجد بطبيعة الحال الأزرار التي بها تتحدث إلى أصدقائها. والغرفة وإن لم تحو شيئاً تتصل بكل ما يهمها الاتصال به في العالم.

وتلا ذلك أن فأشتي أقفلت مفتاح العزلة فانهمر علإليها.ما تجمع في الثلاث الدقائق الماضية، وملأ الغرفة ضوضاء الأجراس والقصب الذي يستخدم في الكلام .... ما حال الطعام الجديد؟ هل في وسعها أن توصي بما تريد منه؟ هل هبطت عليها أفكار جديدة في المدة الأخيرة؟ هل يستطيع امرؤ أن يبين لها أفكاره الخاصة؟ هل في مقدورها أن تحدد موعداً لزيارة الدور العامة لتربية الأطفال في أي تاريخ باكر، في هذا اليوم أو الشهر مثلا؟

فأجابت عن أغلب الأسئلة في اهتياج، والاهتياج صفة تتزايد مع السن التي تكر كراً سريعاً: قالت إن الطعام الجديد شنيع، وإنها ما تستطيع أن تزور دور تربية الأطفال وذلك بسبب ضغط الالتزامات، وإنها ليست أفكار من لدنها وإن تكن واحدة قد أزجيت إليها. تلك أن تشبيه النجوم الأربع التي تتوسطها ثلاثة — ليست على كثير من الوجاهة. ثم أقفلت مفتاح مراسيلها فقد حل وقت إلقائها المحاضرة عن الموسيقي الأسترالية.

وكان أسلوب الاجتماعات العامة الفج قد تبدل منذ زمن طويل فلم يكن على فأشتي أو مستمعيها أن يتركوا غرفهم. ذلك أنها كانت تتحدث جالسة على كرسيها ذي المساند كما

أنهم، إذ يجلسون في مثل هذا الكرسي، يحسنون رؤيتها والاستماع إليها .... افتتحت محاضرتها ببيان فكاهي عن العهد السابق على العصر المغولي. ثم استطردت تصف انتشار المغاني الهائل الذي حدث في أعقاب الفتح الصيني. وقالت إنها تشعر بأن أساليب "إي – سان – سو" ومدرسة برزبين "[١]" – مع إنها عتيقة أو من عهود القرون الوسطى – قد تجزي المشتغلين بالموسيقي في أيامنا هذه، ففيها نضرة وفيها أفكار عالية القيمة.

وقد حظيت محاضرتها – التي دامت عشر دقائق –بحسن الاستماع.

وبعد ذلك أصغت هي ومستمعوها إلى محاضرة عن البحر – والبحر يلهم أفكاراً مفيدة – وكان المتحدث قد رداه أخيراً لابساً قناع التنفس.

ثم طعمت، وتحدثت إلى الكثيرين من أصحابها، واستحمت، وتحدثت من جديد، ثم استدعت فراشها.

ولم يكن الفراش وفق مرماها إذ كان بالغ العرض بينما هي تميل إلى الفراش الضيق. وكانت الشكاة لا تجدي لأن الفُرش كانت متساوية الأبعاد في العالم طرأ، ثم إن طلب حجم مغاير يستتبع إجراء تغيرات عظيمة في الآلة. وأخلدت فأشتي إلى عزل نفسها، ولم يكن بد من ذلك لأنه لا وجود للنهار والليل تحت الأرض. واستعادت عرض كل ما حدث منذ استحضرت سريرها آخر مرة ... هل من أفكار؟ أفكار قليلة جداً. أحداث؟ هل دعوة كونو تعد من الأحداث؟

وكان إلى جوارها علي قمطر القراءة شيء من مخلفات عصر المحفة، وهو كتاب، وكان كتاب الآلة، وبه إرشادات لمعالجة كل ما قد يعرض لها من طوارئ. فإذا منيت بحرارة أو برد أو تخمة أو أعوزها الكلم راجعت الكتاب لتعرف منه أي زر تضغط. لقد طبعت الكتاب اللجنة المركزية، وكان مجلداً تجليداً فاخراً كما قضت بذلك عادة آخذه في الرسوخ.

جلست في فراشها وتناولته بين يديها في تبجيل. وأدارت بصرها حول الغرفة المتوهجة كأنها ترتاب في أحداً يرقبها. ثم تمتمت بين الاستحياء والابتهاج قائلة:" أيتها الآلة! أيتها

---

[١] برزوبين عاصمة مقاطعة كوبين لاند في أستراليا.

الآلة!". ورفعت المجلد إلى شفتيها وقبلته ثلاثاً وحنت رأسها ثلاثاً واستشعرت ثلاثاً حميّ الإدغام. ولمّا أنجزت طقوسها المحاضرين.١٣٦٧ التي تبين مواعيد سفر سفن الهواء من جزيرة نصف الكرة الأرضية الجنوبي، التي كانت هي تعيش تحت أرضها، إلى جزيرة نصف الكرة الجنوبية الشمالي التي كان ابنها يعيش تحت أرضها.

وفكرت:" ليس لدى الوقت".

وأعتمت حجرتها، ونامت، واستيقظت، وأضاءت الحجرة، وطعمت، وبادلت أصدقاءها الأفكار، وأصغت إلى الموسيقي، واستمعت إلى محاضرات، وأعتمت حجرتها، ونامت، وكانت الآلة تطن – من فوقها ومن تحتها ومن تحتها ومن حولها –طنيناً أزلياً. غير أنها لم تلحظ الضوضاء لأنه في أذنيها منذ ولدت. وكانت الأرض التي تحملها تدوي إذ تنطلق مسرعة عبر السكون، تقلبها آنا صوب الشمس غير المرئية وآونة في اتجاه النجوم التي لا تري. ثم استيقظت وأضاءت الغرفة.

"كونو!".

فأجاب:" لن أكلمك حتى تجيئيني"

"هل صعدت سطح الأرض منذ تحادثنا آخر مرة؟".

وتلاشت صورته.

وراجعت الكتاب من جديد فانفعلت انفعالاً شديداً واضطجعت إلي خلف خافقة القلب ... تخيلها وقد تعرت عن أسنانها وشعرها.... وفي تلك اللحظة حولت الكرسي صوب الحائط وضغطت زراً قليل الاستعمال. فترجح الجدار مستأنياً وانفلق. فرأت من خلال الفتحة نفقاً انعرج قليلاً بحيث تعذرت رؤية مؤدّاه، ولئن أرادت الذهاب لرؤية ولدها فهذا مبتدأ الرحلة.

لقد كانت تعرف بطبيعة الحال كل شيء عن جهاز المواصلات الذي لم يكتنفه أي غموض. وما عليها إلا أن تستدعي مركبة فتطير بها هابطة في النفق حتى توصلها إلى المصعد المؤدى إلى محطة سفن الهواء ... وقد شاع استعمال هذا الجهاز قبل أن يعم العالم استعمال الآلة وذلك بمدة مديدة، ولا مراء في أنها درست المدينة التي تقدمت مدينتها مباشرة، تلك المدينة التي أخطأت فهم خصائص الآلة فاستعملتها في نقل الناس إلى الأشياء بدلاً من نقل الأشياء

إلى الناس. حدث هذا في تلك الأيام المضحكة التي فيها كان الناس يتنقلون بعيداً لتغيير الهواء بدلاً من أن يغيروا هواء حجرهم! ولقد كانت مع ذلك تخاف النفق الذي لم تره منذ ولادة ابنها. نعم كان النفق منعرجاً ولكن ليس بالصورة التي تعيها ذاكرتها، ومشرقاً ولكن ليس بالضبط وفق ما أشار إليه أحد المحاضرين ... وتملك فأشتي رعب التجربة المباشرة فانكمشت متراحمة في الحجرة وانسد الحائط من جديد.

وقالت:"كونو، ليس في مقدوري الحضور إليك فصحتي ليست على ما يرام".

ولم تكد تنطق بهذا حتى سقط إليها من السقف جهاز ضخم، ووضع بين شفتيها تلقائياً مقياس الحرارة، ووضعت على قلبها آلياً سماعة طبيب. ورقدت واهنة. ورطب جبينها طبابات باردة. حدث هذا فور اتصال كونو بطبيبها.

وكذلك ما انفكت أحاسيس الإنسان تتذبذب في الآلة بين صعود وهبوط.

وشربت فأشتي الدواء الذي ألقاه الطبيب في فيها. ثم ارتدت الآلة إلى السقف وسمع صوت كونو يسألها عن حالها.

فقالت في اضطراب:" أحسن. ولكن لم لا تأتي إلى بدلا من ذلك؟".

"لأني لا أستطيع مزالة المكان".

"ولم؟".

"لأن شيئاً هائلا قد يحدث في أية لحظة".

"هل صعدت سطح الأرض بعد؟".

"كلا، لم أصعد بعد".

"فما خطبك إذن؟".

"لن أنبئك بنبته عن طريق الآلة".

واستأنفت عيشتها.

غير أنها فكرت في كونو طفلا: في مولده وفى نقله إلى الدور العامة لتربية الأطفال وفى زيارتها الوحيدة له هناك وفى زيارته إياها، تلك الزيارات التي توقفت عندما حددت له الآلة

حجرة في الجانب من الأرض .... جاء في كتاب الآلة" الوالدان وسقوط واجباتهما لدي الولادة، صفحة ٤٢٢٣٢٧٤٨٣" صحيح أن هناك شيئاً بذاته اختص به كونو — وكذلك الحال مع سائر أبنائها ، فلم يعد لها مفر من اجترائها على الرحلة إذا كانت تلك رغبته. هذا فضلا عن" أن شيئاً هائلا قد يحدث". فما معني هذا؟ لا ريب في أنه هراء في غض الإهابة ولكن لابد لها مع ذلك من الذهاب. وضغطت الزر القليل الاستعمال مرة أخرى فترجح الجدار من جديد ورأت النفق الذي يتعرج فلا تري بقيته، وأقفلت الكتاب وشبكت دفتيه ونهضت وترنحت إلى الطوار "الرصيف" وطلبت مركبة، وانفلقت الحجرة من خلفها، وبدأت رحلتها إلى نصف الكرة الأرضية الشمالي.

وليس من شك في أن الرحلة كانت بالغة اليسر. دنت المركبة فوجدت فيها كراسي ذوات مساند تشبه كرسيها تمام الشبه. وعندما أومأت هي توقفت المركبة عن السير. ثم ترنحت السيدة حتى دخلت المصعد، ولم يكن به غير راكب واحد هو أول آدمي رأته وجهاً لوجه منذ شهور. وقليل هم الذين كانوا يرتحلون في تلك الأيام، لأن البلاد—بفضل العلم — أصبحت كلها متماثلة

وقد أفضى الاتصال السريع —الذي كان أمل المدينة السابقة فيه كبيراً—أفضى إلى قهر نفسه. وما جدوى الذهاب إلي بكين ما ظلت تماثل شرور بري تمام التماثل؟ وفيم العود إلى شرور بري وهي لا تختلف عن بكين في كبيرة أو صغيرة؟ نعم ... كثيراً ما كان الناس يتحركون بأجسادهم ولكن الاضطراب كله يتركز في الروح.

وسفينة الهواء من مخلفات العصر البائد، وقد أبقوا عليها لأن الإبقاء عليها أيسر من توقيفها أو الإقلال منها. وقد تجاوزت الآن — إلى درجة كبيرة — حاجة السكان.... وتقوم السفينة تلو السفينة في مراكز قذف الطائرات: في رأي أو كرايستتشرش "أستعمل هنا الأسماء العتيقة" وتسبح في السماء المزدحمة وتصطف فارغة في مرافئ الجنوب. وقد بلغ النظام من دقة الأحكام ومن الاستقلال عن الأحوال الجوية جداً جعل السماء—صافية غائمة — تحاكى منظاراً للأشكال والألوان الجميلة شاسعاً تتوافر عليه نماذج متشابهة في مواعيد دورية. وقد درجت السفينة التي أقلت فأشتي على أن تقوم تار لدى غروب الشمس وطوراً إبان بزوغها. ولكنها

كلما مرت على ريمس "١" جاورت سفينة تسبح بين هلسنجفورز "٢" والمناطق البرازيلية. وكلما اعتلت جبال الألب، مر في كل ثلاث رحلات، كان أسطول بالرمو "٣" يتخذ سبيله في إثرها. ولم تعد الرياح أو الزوابع، ولا حركة المد والجزر أو الزلازل، عقبة تعوق الإنسان لا في الليل ولا في النهار، ذلك لأنه أصبح يملك عنان حوت يونس، وبهذا أمسى الأدب القديم يرن رنيناً باطلا كرغاء"ثرثرة" الأطفال.

غير أن فأشتي مع ذلك – رأت أن جانبي سفينة الهواء الفسيحين قد تلطخا بسبب التعرض للهواء الخارجي، عاودها رعبها من التجربة المباشرة. ولم تكن وجوه الشبه كاملة بين تلك وبين سفن الهواء التي نراها في الصور السينمائية. ومن ذلك أن رائحة انبعثت منها، نعم إنها لم تكن قوية ولا كريهة ولكنها رائحة على كل حال.... ولقد كان ينبغي لفاشتي – وهي مغمضة العينين – أن تدرك أن شيئاً جديداً قددنا منها كل الدنو، وكان عليها أن تمشي إليه من المصعد وأن تذعن إلى نظرات غيرها من الركبان .... ثم سقط من الرجل الأمامي كتاب، وهذا الأمر، على قلة خطورته، أزعجهم جميعاً، ولو أن الكتاب سقط في الحجرات لرفع تلقائياً ولكن السلم الموصل إلى السفينة لم يكن معداً، فبقى المجلد المقدس بلا حراك .... وتوقفوا، على غير المتوقع. وبدلاً من أن يلقط الرجل متاعه تحسس عضلات ذراعه ليعرف لماذا لم تسعفه. ثم تكلم أحدهم مباشرة دون الاستعانة بجهاز ما – قائلا:" سنتأخر".... وتزاحموا في صعودهم السفينة، وعندئذ وطئت فأشتي صفحات الكتاب.

وبعد ما دخلت زاد همها، إذ وجدت الأنظمة عتيقة وعرة إلى حد أنه كانت هناك خادمة يطلب إليها راكب ما قد يعوزه في أثناء الرحلة. وامتد على طول السفينة – بطبيعة الحال–طور متحرك، ولكن كان على فأشتي أن تنتقل إلى غرفتها سيراً على قدميها. وكان بعض الغرف خيراً من البعض، ولم تظفر هي بأحسنها. فظنت أن الخادمة لم تكن عادلة واهتزت من تشنجات الغضب. وانفلت الصمامات الزجاجية فلم تستطع الرجوع. ورأت في آخر الدهليز – المصعد

---

(١) ريمس مدينة في مقاطعة المارن، موطن كولبير وجويلان، وفيها رسمت جان دارك شارل ملكاً علي فرنسا في سنة ١٤٢٥ .وفى الحرب العالمية الأولى دمرتها المدفعية الألمانية بما في ذلك الكاتدرائية الأثرية المشهورة

(٢) هلسنجفورز رأس في خليج فنلندا بفنلندا

(٣) بالرلمو مدينة إيطالية كانت قديماً عاصمة سيسيليا.

الذي صعد بها –يعلو ويهبط مسرعاً دون أن يكون به أحد ووجدت – تحت هذه الممرات المصنوعة من القراميد اللامع –غرفاً تنخفض كل طبقة منها عن الطبقة التي تحتها حتى تبلغ بطن الأرض عمقاً سحيقاً. وقد جلس في كل غرفة آدمي يأكل أو ينام أو ينتج أفكاراً. ولما كانت غرفتها مدفونة على عمق مديد فقد داخلها الخوف ودمدمت:" أيتها الآلة! أيتها الآلة!" وربت كتابها فهدأت نفسها.

ثم بدا أن جانبي هذا الدهليز يذوبان، كل منهما على الآخر، كما هي الحال في الممرات التي في الأحلام. وتلاشى المصعد. وزلج الكتاب – الذي كان قد سقط – إلى اليسار واختفى عن النظر. وتدفق القرميد المحلو كأنه جدول ماء. ثم هزة يسيرة، وخرجت سفينة الهواء من النفق مدومه فوق ماء أرقيانوس استوائي.

وكان الوقت ليلا فرأت – لحظة – شاطئ سومطرة الذي تحف به أمواج فسفورية وتكلله منارات ما انفكت ترسل إلي بعيد، أشعتها التي لا يأبه لها أحد. واختفت هذه أيضا؟ ولم يبق لتسليتها غير النجوم التي لم تهدأ بل أخذت تترجح فوق رأسها إقبالاً وأدباراً، متدافعة من كوة إلى كوة كأنما الكون هو الذي يتمايل لا سفينة الهواء ... وعلى نحو يحدث في الليالي الصافية كانت تلك النجوم تلوح: تارة في مرمي النظر، وطوراً كأنها على مستوى مسطح، وآنا تتراكم في الآفاق اللانهائية طبقة فوق طبقة، وآونة تحجب الأبدية كأنها سقف يحد، سرمداً، أبصار الناس. وبدا في الحالين أنها لا تطاق. فهتف الركبان غاضبين:" هل يتحتم علينا أن نسافر في الظلام؟". فما كان من الخادمة التي كانت قبلاً مهملة –إلا أن استنبطت الإضاءة، وأرخت الستائر المصنوعة من المعدن القابل للطيّ إذ أن الرغبة في النظر إلى الأشياء دون الاستعانة بآلة، كانت ما تزال تتريث في العالم وقتما بنيت سفينة الهواء... وهذا هو السر في العدد البالغ الكثرة من النافذات وفى المضايقة النسبية التي يتعرض لها أولئك الذي كانوا متمدنين مترفهين. هذا إلى حد أن غرفة فأشتي أطل عليها نجم من ثلة في الستر. وأزعجها –في أعقاب إغفاءة نوم مضطربة – ضياء غير مألوف، هو الفجر.

أسرعت السفينة غرباً. ودارت شرقاً في سرعة أكبر وجذبت فأشتي ورفاقها إلى الوراء صوب الشمس، وتوصل العلم إلى إطالة مدة الضوء إلا أن الفرق كان وجيزاً. وانقشعت تلك الآمال الكبيرة التي استهدفت تجريد دوران الأرض، اليومي حول مركزها، من التأثير. انقشعت

مع تبدد الآمال التي كان من المحتمل أن تربو على تلك الآمال. فلقد كان هدف المدنية التي تقدمت تلك هو "مسايرة الشمس" بل سبقها. فبنت طائرات سباق – تقدر على الانطلاق في سرعة هائلة– يقودها أكبر مفكري العصر. دارت هذه الطائرات حول الأرض... ودارت ثم دارت ... غرباً ثم غرباً ودارت ثم دارت وسط تهليل الإنسانية. غير أن كل ذلك كان عبثاً لا طائل تحته. فقد اتجهت الأرض غرباً في سرعة أكبر وحدثت حوادث مروعة، وأعلنت لجنة الآلة – التي أخذ نفوذها يعظم إذ ذاك – أن هذه المطاردة تخالف القانون وأن ممارستها محظورة، وجعلت التشريد عقوبة من يقدم على ذلك.

وسأتحدث عن التشريد فيما بعد.

ولأمراء في أن اللجنة كانت علي حق. وإلى ذلك فإن محاولة"قهر الشمس" أثلر الاهتمام العام الذي بدأ أخيراً، والذي يأشره جيلنا، بالتجربة على الأجرام السماوية، أو على أي شيء إطلاقا. وكانت تلك هي آخر مرة تعاهد فيها جيلنا على التفكير في قوة خارج الكرة الأرضية. كانت الغلبة للشمس. وآذن هذا بانتهاء سيطرتها الروحية. على أن الفدر والظهر والغسق ومدار منقطة البروج لم تؤثر جميعها لا في حياة الناس ولا في قلوبهم. وارتد العلم إلى الأرض ليركز جهده على القضايا التي يوقن من كسبها.

وتضايقت فأشتي عندما رأت بصيصاً من النور الوردي يغزو غرفتها فحاولت أن تحكم إرخاء الستر، ولكن الستر ارتفع كله. وإذ ذاك رأت من الكوة سحباً وردية صغيرة تترجح تحت سقف أزرق. وكلما زحفت الشمس مصعدة إلي أعلي نفذ بهاؤها رأساً، متفيضاً علي سفح الجدار كأنه بحر ذهبي. وكان هذا يعلو ويهبط مع حركة السفينة كما قد ترتفع الأمواج وتنخفض ولكنه أخذ يتقدم رويداً كأنه المد، فكان عليها أن تلوذ بالحذر حتى لا يصفعها، وهزها تشنج الرعب فدقت الجرس في طلب الخادمة. وذعرت الخادمة كذلك ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لأن هذا خارج عن اختصاصها. وكان كل ما وسعها عمله هو أن تشير على السيدة باستبدال غرفتها، فعملت بمشورتها وتأهبت للتنفيذ.

ولقد كاد الناس أن يتماثلوا في العالم أجمع، ولكن خادمة سفينة الهواء تعدت المألوف بعض الشيء، بسبب واجباتها الاستثنائية، فداخل طباعها بعض الشذوذ ... لقد اقتضتها واجباتها أن تخاطب الركبان مباشرة دون الاستعانة بآلة، فهيأ لها هذا نوعاً من الخشونة ومخالفاً العرف. ومن

ذلك أنها – عندما انحرفت فأشتي صارخة لتنأي عن أشعة الشمس – تصرفت تصرفاً همجياً بأن وضعت يدها لتهدئ من روعها.

فصرخت الراكبة:" ما أشد جرأتك! لقد نسيت نفسك!"

واستخزت المرأة واعتذرت عن عدم تركها إياها تسقط. فلقد درج الناس على ألا يمس بعضهم بعضاً على الإطلاق، وتقادمت العادة بفضل الآلة. واستفهمت فأشتي متعاظمة:" أين نحن الآن؟".

فأجابت الخادمة مبتغيه أن تتأدب:" نحن فوق آسيا"

"آسيا؟".

"أرجو أن تغفري لي أسلوبي الدارج في التكلم فقد اكتسبت عادة تسمية الأماكن – التي أمر فوقها – بأسمائها قبل عصر الآلة".

"أوه، أذكر آسيا. لقد انحدر منها المغول".

" تحتنا – في العراء – مدينة كنا نسميها سملا".

" هل سمعت إطلاقاً بالمغول وبمدرسة برزبين؟".

"كلا".

وبرزبين أيضاً في العراء".

" وتلك الجبال الواقعة إلى اليمين، دعيني أريك إياها". ودفعت الستر المعدني فانكشف أهم حلقة من سلسلة لهملايا:"كانوا – حيناً – يسمون هذه الجبال سقف الدنيا".

" ما أسخف الاسم!"

" عليك أن تتذكري أنها – قبل بزوغ فجر المدنية –كانت تبدو كالحائط الأصم يلامس النجوم. ولقد زعموا أن الآلهة وحدها هي التي تستطيع أن تعيش فوق هذه الذري. أما كيف تقدمنا فالفضل فيه للآلة!"

وقالت فأشتي:" أما كيف تقدمنا فالفضل فيه للآلة!".

" وتلك المادة البيضاء التي في الشقوق؟ ما هي؟"

"نسيت اسمها".

" أرجوك أن تغطي النوافذ فتلك الجبال لا توحي إلي بأفكار جديدة".

وكان وجه جبال لهملايا الشمالي في ظلام دامس، بينما انتشرت الشمس لتوّها على المنحدرات الهندية. ولقد أبيدت الغابات في أثناء العصر الأدبي وذلك لصنع لباب لورق الجرائد. غير أن الثلوج أخذت تصحو استعداداً لبهاء الصباح، والسحاب ما يزال يتدلى على نهود الكنشتجونجا. وفي السهل رأيت خرائب المدن، والأنهار المتضائلة تزحف مجاورة حوائطها. وإلى جانب تلك كانت تري أحياناً بعض معالم مراكز قذف الطائرات التي تشير إلى مدن هذا العصر. وتدافعت فوق المنظر جمعيه سفن الهواء تعبر وتتقاطع في ثقة ذاتية لا تصدق، وترتفع متراخية كلما رغبت في تجنب اضطراب حركة السير بالهواء الجوي الأسفل كي تجتاز سقف الدنيا.

ورددت الخادمة بعد أن حجبت جبال الهملايا خلف الستر المعدنية:" لقد تقدمنا يقيناً، والفضل في ذلك للآلة".

وسار النهار إلى أمام متثاقلاً في كلال. وجلس الركبان، كل في غرفة منحنين بعضهم البعض في ضجر يكاد يمزج بدمائهم، يحدوهم الشوق من جديد إلى أن يعودوا تحت الأرض. وكانوا ثمانية أو عشرة — أغلبهم من شباب الذكور — أرسلوا من دور التربية العامة ليعيشوا في حجرات الذين ماتوا في أماكن شتي من الأرض. وكان الرجل الذي سقط منه الكتاب في سبيله إلى وطنه، وذلك بعد أن أوفد إلى سومطرة لتكثير الجنس. أما فأشتي فهي الوحيدة التي سافرت بمحض إرادتها.

وفى الظهيرة حدجت الأرض بنظرة ثانية. وكانت سفينة الهواء تعبر سلسلة جبال أخري ولكنها لم تتبينها كثيراً بسبب السحاب. وكانت تحوم تحتها كتل من الصخور السود انغمست في الغبش انغماساً مبهماً. وكانت أشكالها خيالية، حتى أن إحداها شابه رجلا منبطحاً.

قالت فأشتي:" لا أفكار جديدة" وحجبت القوقاز خلف ستر معدني.

وفى المساء أرسلت نظرة أخرى. وكانوا يحلقون فوق بحر ذهبي ترقد فيه جزر صغيرة كثيرة وشبه جزيرة واحد.

ورددت:" لا أفكار جديدة هنا" وحجبت بلاد اليونان خلف ستر معدني.

الجزء الثاني

جهاز الاستصلاح

توسلت فأشتي بدهليز ومصعد وبسكة حديد أنبوبية وطوار وباب منزلق وبعكسها لمراحل رحلتها جميعاً، توسلت بهذا كله حتى بلغت حجرة ولدها التي شابهت حجرتها أيما شبه. وقد حدثتها نفسها بأن تجاهر بأن هذه الزيارة كانت ناقلة لا تحتمها الضرورة. فالأزرار والأكر وقمطر القراءة الذي يعلوه الكتاب ودرجة الحرارة والهواء الجوي والإضاءة، كل أولئك يطابق نظائره في حجرتها تمام المطابقة. ولئن كان كونو نفسه — وهو من صلبها — قد وقف آخر الأمر إلى جوارها فأية فائدة من ذلك؟ فلقد بلغت من حسن التربية مبلغاً جعلها تتمتع عن وضع يدها في يده للسلام عليه.

حولت عنه بصرها ونطقت بما يلي:

"هأنذي. قمت بأسوأ رحلة، وعوقت تطور روحي في معارج الارتقاء. وليس هناك ما يبرر هذا يا كونو، نعم ليس هناك ما يبرره. ووقتي أثمن من أن يضيع في شيء كهذا. ولقد كاد ضوء الشمس أن يمسني، ولقيت أرذل الناس. وما أستطيع البقاء أكثر من دقائق معدودات، فقل ما ترغب في قوله وعلى بعد ذلك أن أرجع".

قال كونو: "لقد هددت بالتشريد".

وإذ فاك نظرت إليه.

"لقد هددت بالتشريد، ولم أكن لأنبئك بشيء كهذا عن طريق الآلة".

والتشريد معناه الموت، لأن الضحية تعرض للهواء، وهو قائلها.

"منذ تحدثت إليك آخر مرة خرجت، ووقع الحدث العظيم. وأحاطوا به علماً".

فصاحت: "وما يمنعك من الخروج؟ إن زيارة الأرض لا تخالف اللوائح في شيء ولا تجافي قانون الآلة. وأنا خرجت أخيراً وحاضرت عن البحر، ولا اعتراض عن ذلك. وليس على المرء

إلا أن يطلب جهاز تنفس ويحصل على رخصة بالخروج. نعم ليس هذا من الأشياء التي يعند إليها الذين يفكرون تفكيراً روحياً، وقد توسلت إليك ألا تفعل، ولكن اللوائح لا تعترض على ذلك".

ولم أحصل على رخصة بالخروج".

"فكيف خرجت إذن؟".

"استكشفت درباً خاصاً فسلكته".

ولما لم تنقل إليها تلك العبارة أي معنى كان عليه أن يعيدها عليها.

فهمست: طريقاً خاصة؟ إن كنت فعلت هذا فأنت مخطئ".

"لماذا"؟

وصدمها هذا السؤال صدمة تجاوز حد الوصف.

وقال في فتور: "لقد بدأت تعبدين الآلة وتظنين أني خالفت الدين باستكشافي درباً خاصاً. وهذا هو ما زعمته اللجنة تماماً عندما هددتني بالتشريد".

غاظها هذا فصاحت: "كلا، لست أعبد شيئاً! فأنا قد بلغت أبعد مراتب التقدم، ولست أتهمك بالخروج على الدين، فلم يبق هناك شيء اسمه الدين، لأن الآلة قضت على كل الخوف والخرافة الذي سيطر ردحاً من الدهر، وإنما رميت إلى استكشافك درباً خاصاً كان.. وإلى هذا فليست هناك دروب خاصة يتاح الخروج منها".

"هذا هو الاعتقاد السائد".

إلا طريق مراكز القذف الذي لا يستطاع الخروج منها إلا بعد الحصول على ترخيص بالخروج. هكذا يقول الكتاب".

"لقد اخطأ الكتاب، لأني خرجت على قدمي".

ذلك أن كونو سيطر عليه نوع من قوة الجسد.

وكانت القوة في تلك الأيام قد أصبحت من عوامل النقص.. يفحص عن كل الأطفال لدى ولادتهم ويباد منهم كل من يلوح عليه قيض من القوة. وقد يحتج المنتصرون للمثل

الإنسانية، ولكن ليس من الشفقة الحقة أن يسمح لمصارع بأن يحيا لأنه لن يجد السعادة إطلاقاً في ذلك الضرب من العيش الذي تنادي له الآلة، فلسوف يحن إلى أشجار يتسلقها، وأنهار، يسبح فيها، ومروج وتلال يستعرض فيها قوة جسده. هذا مع أن الإنسان قد فرض عليه أن يتكيف ليلاءم بيئته. أليس كذلك؟ وإنه ليتحتم على الضعفاء في فجر دنياهم أن يعرضوا في جبل تايجيتاس"[١]" وفي غسقها تكابد آذان الأقوياء من العبارة التي ما تنفك تعاد على أسماعهم دون انقطاع وهي: حتى تتقدم الآلة نحت تقدم الآلة، حتى تتقدم الآلة على الدوام.

"وأنت تعلمين أننا فقدنا حاسة تقدير المسافات. ونحن نقول: "أفنينا المسافة، إلا أننا في الواقع لم نفن المسافة نفسها وإنما أفنينا المعنى الذي يرتبط بها. وبذلك فقدنا جزءاً من أنفسنا، فأزمعت على استعادته. وبدأت بالمشي ذهاباً وجيئة على طوار سكة الحديد خارج حجرتي. أخذت أسير وأعود حتى مللت. وبهذا استعدت معنى "قريب"و "بعيد". ف "القريب" هو المكان الذي يسعني بلوغه في وقت قصير على قدمي وليس هو المكان الذي ينقلني إليه القطار أو سفينة الهواء في وقت قصير. ومركز قاذفات القنابل "بعيد" وإن استطاعت – باستدعائي قطاراً– بلوغه في ٣٨ ثانية. فالرجل إذن هو المقياس. كان هذا أول درس: وقدما الإنسان مقياس المسافة، ويداه مقياس الامتلاك، وجده مقياس كل ما هو محبوب ومطلوب وقوي. ثم ذهبت إلى أبعد من ذلك، وإذ ذاك ناديتك أول مرة ول ترغبي في الحضور إليَّ.

وهذه المدينة – كما تعلمين – مبنية على عمق سحيق تحت الأرض ولا تبرز منها إلا مراكز قذف الطائرات، وبعد أن قست الطوار خارج حجرتي ركبت المصعد إلى الطوار الذي يعلوه وقسته كذلك، وهكذا وهكذا حتى بلغت الطوار الأعلى الذي فوقه تبدأ الأرض، وهذه الطوارات، كافة، متشابهة تمام الشبه. وقصارى ما كسبته هو إنما حاسة تقدير المسافة عندي وتربية عضلاتي. وأظن أن هذا كان حسبي – وهو ليس بالأمر البسيط – ولكن خطر لي فيما كنت أسير مفكراً، أم مدائننا بنيت أيام كان الإنسان ما يزال يتنفس الهواء الخارجي وأنه كانت هناك أنابيب تهوية للعمال. وانحصر تفكيري في أنابيب التهوية تلك. فهل قضيت عليها أنابيب الطعام وأنابيب الدواء وأنابيب الموسيقى التي استولدتها الآلة أخيراً؟ أم ترى بقيت آثارها؟ هل

[١] تايجيتاس جبل في البيلوبونيز بالقرب من إسبارطة في بلاد اليونان

أن هناك أمراً مؤكداً وهو أنني إذا كنت صادفتها في أي مكان فهذا المكان هو أنفاق أعلى الطبقات. أما في غير هذا فالأماكن كلها معروفة.

أنا أقص قصتي متعجلاً. ولكن لا تظن أنني لم أكن جباناً أو أن إجاباتك لم تؤثر فيَّ إطلاقاً. إن ما فعلته ليس بالأمر الصائب ولا هو يطابق لوائح الآلة، وليس السير في محاذاة سكة حديد النفق مما يليق، وأنا لم أخش احتمال وطء قضيب منقد يودي بحياتي، وإنما خفت شيئاً آخر لا تدركه الحواس أبداً، وهذا الشيء هو ارتكاب ما لم يدخل في حساب الآلة، وقلت لنفسي "الرجل هو المقياس"، وذهبت. وبعد زيارات عديدة استكشفت فتحة.

وكانت النفاق مضاءة بطبيعة الحال، وكان كل شيء مضاءاً إضاءة اصطناعية، والظلام هو الاستثناء.

ولهذا فإنني عندما رأين فجوة سوداء بين قوالب القراميد عرفت أنها استثناء وتهللت ابتهاجاً. ودسست ذراعي فيها بعد أن تعذر ذلك أول الأمر، وأدرته في حماسة، المرة بعد المرة. وفككت قالباً آخر. وأدخلت رأسي وزهقت في الظلام: "أنا آت، سأتم محاولتي بعد". وتردد صوتي هابطاً ممرات لا نهاية لها. وخيل إلي أنني أسمع أرواح أولئك العمال الذين كانوا يرجعون كل مساء على ضوء النجوم إلى زوجاتهم، وأن كل الأجيال التي كانت تعيش في الهواء الطليق تقول لي: "نعم، ستتمها، وستأتي إلينا".

وتوقف لحظة، وهزها كلامه على سخفه، لأن كونو طلب في المدة الأخيرة أن يصبح أباً ولكن اللجنة لم تجبه إلى طلبه بحجة أنه ليس من الصنف الذي ترغب الآلة في رعايته.

"ثم مر قطار وهف بجواري. فغززت رأسي وذراعي في الفجوة. وكنت قد فعلت ما يكفي يوماً ولذا زحفت ما يكفي يوماً ولذا زحفت عائداً إلى الطوار وهبطت بالمصعد واستدعين فراشي. آه يا للأحلام! وطلبتك من جديد ولكنك أبيت على ذلك مرة أخرى".

فهزت رأسها وقال: "اسكت لا تتكلم عن تلك الأشياء الفظيعة فذلك يشفيني، إنك تطيح بالمدينة".

"غير أني استعدت حاسة تقدير المسافة. وفي مثل هذه الحالة ليس في وسع إنسان أن يهدأ. فأزمعت ولوج الفجوة وصعود أنبوبة تجديد الهواء. ودربت ذراعي لهذا الغرض وأخذت،

يوماً بعد يوم، أصنع حركات تدعو إلى السخرية حتى آلمني لحمي وحتى استطعت أن أتعلق بيدي وأمسك بوسادة فراشي مبسوطة مدى دقائق عديدة. ثم استدعيت جهاز تنفس وبدأت.

وكان المر ميسراً في أوله. فقد عطب الملاط "المونة" على صورة ما فما لبثت أن دفعت إلى الداخل بعض قوالب الآجر وتسلقت وراءها في الظلام، وواستني أرواح الموتى. أنا لا أدري فحوى هذا وإنما أعبر عن إحساسي ليس إلا. استشعرت — أول مرة — أن احتجاجاً على الرشوة قد أودع وأنني كنت أواسي من لم يولد بعد حتى وقتما كان الموتى يواسونني. أحسست أن الإنسانية باقية وأنها موجودة في غير كساء. فكيف أقدر على شرح هذا؟ لقد كانت الإنسانية عارية.. يلوح أن الإنسانية عارية وأن هذه الأنابيب والأزرار والعدد جميعاً لم تصحبنا في حضورنا إلى الدنيا ولن تتبعنا في خروجنا منها وأنه ليس لها من هدف أسمي في حياتنا، ولو كنت قوياً لمزقت كل كساء لدى ولخرجت في الهواء عارياً. ولكن شيئاً كهذا لن يتسنى لي وقد لا يتسنى لجيلي. وصعدت بجهاز التنفس وبملابسي الصحية وبأقراص التغذية الطبية أو كان هذا خيراً من عدم وجود شيء معي على الإطلاق.

ووجدت هناك سلماً مصنوعاً من معادن العصور الأولى يقع نور سكة الحديد على درجاته السفلى. ورأيت أن يؤدي مباشرة إلى مكان علوي خارج الأنقاض التي في قاع قصبة تجديد الهواء. وربما كان أسلافي — في مدة بناء هذه القصبة — يجرون فوقه، مصعدين منحدرين، في كل يوم عشر مرات أو تزيد. وفيما كنتا أتسلق قطعت حواشيها الخشنة قفازي وأدمت يدي. وأسعفني النور قليلاً ثم حل الظلام. وحل ما هو أسوأ منه وهو السكون الذي نفذ في أذني كما قد ينفذ السيف. وللآلة همهمة! فهل عرفتها؟ ألا إن همهمتها لتتغلغل في دمائنا وتؤثر فينا إلى حد أنها قد توجه أفكارنا. ومن يدري؟ فقد أخذت أخرج على سلطانها". وضحك قائلاً: "ثم دار في خلدي أن هذا السكون يعني أنني خاطئ فيما أعمل. غير أني سمعت في السكون أصواتاً بعثت في القوة من جديد، وكنت في حاجة إليها. وفي اللحظة التي نلت ذلك اصطدم رأسي بشيء ما وسمع له صوت كالطقطقة".

فتنهدت.

"وبلغت إحدى تلك السدادات النيومانيكية التي تقينا الهواء الخارجين وربما تكونين قد لحظتها في سفينة الهواء. ولست أستطيع أن أشرح كيف عشت في تلم المرحلة في ظلام حالك

كالزفت مع وجود قدمي على درجات سلم غير مرئي ومع جرح يدي. غير أن الأصوات ظلت تواسيني وشعرت بالحاجة إلى وثاق. وكان عرض السدادة فيما أظن يناهز الثمانية الأقدام. وقد أمررت يدي عليها قدر ما وصلت إليه كفي، فوجدتها ملساء تماماً. تحسستها إلى ما يقرب من وسطها ولكني لم أبلغه لأن ذراعي تقصر دون هذا، ثم نادي الصوت: اقفز فالأمر يستأهل، وقد يكون في الوسط مقبض وقد تستطيع التعلق به والمجيء إلينا بوضعك الخاص. وإذا لم يكن هناك مقبض سقطت واصطدمت وتحطمت كسفاً – لهذا السبب – فالأمر يستأهل أيضاً، لأنك ستجيء إلينا مع ذلك بوضعك الخاص، وعلى هذا قفزت، وكان هناك مقبض فـ –".

وتوقفت عن الكلام، وتزاحمت الدموع في عيني أمه، علماً بأن موته محتوم – فهو إن لم يمت اليوم ماءت غداً– وبأنه لا مكان في الدنيا لمثله، وخالط نفورها منه إشفاقها عليه. واستحت من أنها ولدت ابناً كهذا وهي التي كانت على الدوام جد محترمة تفعمها الأفكار. أما حقاً هو الولد الصغير الذي علمته ممارسة سداداته وأزراره والذي لقنته الدروس الأولى التي في الكتاب؟ على أن الشعر الذي يعيب شفته ليدل بذاته على أنه أخذا يرتد إلى طراز من الأجناس الهمجية، والآلة لا ترحم الناس في حالات الارتداد إلى الأسلاف.

"وحدث أن كان هناك مقبض وأمسكته فعلاً وتعلقت به مذهولاً فوق الظلام، وسمعت همهمة الآلات كأنها آخر همسات حلم أخذ يهمد، وبدا لي أن كل الأشياء التي آية لها والناس والذين كلمتهم مستعيناً بالقصب، بدا لي أنهم قليل عددهم إلى حد بعيد. وفي غضون ذلك دار المقبض لأن ثقلي قد حرك شيئاً، ودومت مستأنياً، ثم–.

لست أستطيع وصف ما حدث.. كنت مستلقياً متجه الوجه إلى ضوء الشمس ، وتصبب الدم من أنفي وأذني، وسمعت قصفاً عجاباً، فالسدادة – وأنا عالق بها – نفخت خارج الأرض نفخاً، فاخذ الهواء الذي نضعه هنا – تحت – يتسرب من المنفذ إلى الهواء العلوي، وانبجس غلى محل كالنافورة، فزحفت راجعاً إليه لأن الهواء العلوي مؤذ، ورشفت منه رشفات كبيرة، إذ أن جهاز التنفس الذي كان معي طار إلى حيث لا يعلم أحد، وتمزقت ملابسي ولم يسعى إلا الرقاد بالقرب من الفتحة. وظللت أرشف حتى توقف النزف. ولن تستطيعي تصور شيء في مثل هذه الدرجة من الغرابة: تلك الفتحة التي في الكلا، وإني محدثك عنها بعد لحظة.. ولمعان

الشمس فيها، لا في إشراق ولكن من خلال سحب مرمرية.. والأمان.. والاسترخاء.. وحاسة تقدير المسافات.. والهف على خدي.. الذي نبعثه نافورة هوائنا الصناعي الهادرة! ثم استطلعت على عجل جهاز التنفس يتذبذب صعوداً وهبوطاً في التيار الذي كان يعلو رأسي كثيراً. وفوق علو أبعد، كان يطير عدد كبير من سفن الهواء، إلا أن أحد لم يكن يطل منها. وعلى أية حال فإنها لم تكن لتستطيع أن تلقطي. فلقد جنحت هناك. ثم إن الشمس لم تلمع تحت أنبوبة تجديد الهواء إلا إلى مسافة قصيرة، وقد أبانت عن أعلى عوارض السلم. ولم يكن ثمة أمل في محاولة بلوغي إياها. ولو فعلت لقذف بي من الفتحة أو لوقعت – تحت – ومت. فلم يسعني إذن إلا الرفاد على الكلا ومداومة الرشف وإلا النظر حولي بين الحين والحين.

عرفت أنني في وسكس لأني كنت قبل بدء الرحلة عنيت بالاستماع إلى محاضرة عن الموضوع. ووسكس نقع فوق الحجرة التي تتحادث فيها الآن.وكانت يوماً دولة ذات شأن، يحكم ملوكها الشاطئ الجنوبي جميعاً من أندردز وولد إلى كورنوول، بينما كان آل فاسنديك يحمون ذمارهم من الشمال الممتد فوق الأرض العالية. وقد قصر المحاضر كلامه عن دولة إسكس فلم أعرف إلى متى ظلت قوة دولية. على أن معرفة ذلك ما كانت لتسعفني. والحق أنني في هذه المرحلة لم أستطع غير الضحك، إذ كان ناك: أنا، والسدادة النيومانيكية إلى جانبي، وجهاز التنفس يتذبذب فوق رأسي وكنا نحن الثلاثة محبوسين في فجوة يكسوها الكلا ويحف بها نبات الخنشار".

ثم تجهم ثانية.

"ومن حسن حظي أنها كانت فجوة، لأن الهواء أخذ يهبط من جديد ويملؤها كما قد يملأ الماء الطاس. وكان من الميسور أن أزحف حولي. ولكني إذ ذاك وقفت. وصرت أتنفس مزيجاً يغلب فيه الهواء المؤذي كلما جهدت في تسلق الجوانب. ولك يكن موقفي هذا بالغ السوء. فأنا لم أفقد أقراصي، وظللت مبتهجاً على صورة تثير الضحك. أما الآلة فقد نسبتها كل النسيان لأنني لم استهدف في تلك اللحظة غير بلوغ القمة حيث كان الخنشار، وغير رؤية كل ما قد يكون هناك من أشياء.

واندفعت أصعد المنحدرات. وكان الهواء الجديد ما زال شديد المرارة بالنسبة لي، وعدت متدحرجاً إلى خلف بعد ما رأيت – برهة يسيرة – شيئاً آخر. ووهنت الشمس، وتذكرت أنها

وقتئذ في سكوربيو، فقد كنت استمعت أيضاً إلى محاضرة عن هذا، وإذا كانت الشمس في سكوربيو وكنت أنت في وسكس فمعنى هذا أنه ينبغي لك أن تسرع ما وسعك الإسراع وإلا دهمك الظلام. "وهذه أول معلومة نافعة أفدتها من أية محاضرة على الإطلاق، وقد تكون الأخيرة". وحدنني هذه المحاضرة إلى بذل جهد يقرب من الهوس، فتنفس الهواء الجديد، وإلى التقدم – قدر ما تسعفني به جرأتي – في الخروج من بركني. وكانت الفجوة تمتلئ رويداً رويداً حتى خلت أن النافورة أمست أقل قوة في قذفها. وبد أن جهاز التنفس يتراقص على علو هو أقرب ما يكون إلى الأرض، كما أن الهدير أخذ يتناقص".

ثم انقطع لحظة.

"ولا أظن أن هذا يسترعى اهتمامك. ولعلك أقل اهتماماً بما بقى إذ ليست فيه أفكار. وكم كنت أتمنى ألا أتعبك في الحضور، فنحن مختلفان يا أماه".

وطلبت إليه أن يستمر.

"رحل المساء قبل أن أصعد الجرف. وإذ ذاك كادت الشمس أن تفلت من السماء. فلم أحسن الرؤية. وأنت يا من فرغت تواً من غبور سقف الدنيا ما تودين أن تستمعي إلى بيان عما رأيته من تلال صغيرة، تلال واطئة لا لون لها. ولكني كنت أحسب أنها على قيد الحياة، وأن العشب الذي يغطيها جلد تتموج تحته العضلات، وأن تلك التلال تنادي الغابرين من بني الإنسان في قوة لا تدخل تحت حصر، وأن الناس قد أحبوها. أما الآن فهي في سبات قد يمتد أبد الآبدين. ألا أنها لتشارك الإنسانية أحلامها. فطوبي للرجل الذي يوقظ جبال وسكس أو طوبي للمرأة التي تفعل هذا. إن هذي التلال تنام ولكنها مع ذلك لن تموت".

وعلا صوته منفعلاً وهو يقول:

"ألا تستطيعين أن ترى – أولاً يستطيع محاضروك أن يروا – أننا نحن الذين نهلك وأن الشيء الوحيد الذي يعيش حقاً هنا، تحت، إنما هو الآلة. لقد خلقنا الآلة لكي تنقذ مشيئتنا ولكننا الآن لا نستطيع دفعها إلى تنفيذ تلك المشيئة. فلقد سلبتنا حاسة تقدير المسافة ولوثت كل العلائق الإنسانية وهبطت بالحب إلى مرتبة العمل البهيمي وعطلت منا الجسد والإرادة، وهي الآن تكرهنا على عبادتها. وهي تتطور ولكن على غير ما نرسمه لها. وهي تسير قدماً ولكن

لا إلى أهدافنا، ونحن موجودون فقط مثل كرات الدم التي تجري في شرايينها. ولو أمكن أن تعمل بدوننا لتر لتركتنا نموت. أوه. لا علاج عندي، أو عندي علاج وحيد وهو أن أنبئ الناس مراراً وتكراراً أني رأيت تلال وسكس كما رآها ألفرد"[1]" عندما طرد الدنمركيين.

وهكذا غربت الشمس. ولقد نسيت أن أخبرك أن نطاقاً من الضباب المنخفض وجد بين تلي والتلال الأخرى وأنه كان لؤلؤي اللون".

وانقطع عن الكلام للمرة الثانية.

فقالت أمه متضجرة: "امض في حديثك".

فهز رأسه.

"امض في حديثك، فلا شيء مما تقول يمكن أن يحزنني الآن لأن قلبي قد قسا".

"أردت أن أنبئك بما بقى ولكني لا أقدر على ذلك، نعم أنا أعرف أنني لا أقدر عليه، فوداعاً".

ووقفت فاشتى حائرة لأن كفره خدر أعصابها جميعاً، ولكنها إلى ذلك تملكها الفضول.

وشكت قائلة: "أنت لم تنصفني. لقد جئت بي عبر الدنيا لأسمع قصتك وإني لسامعتها. خبرني في غاية ما يسعك من إيجاز لأن هذه مضيعة للوقت تجلب النوائب. خبرني كيف رجعت إلى المدينة".

فانطلق يقول: "إنك – يقيناً – تودين أن تسمعي شيئاً عن المدينة. فهل كنت وصلت إلى حيث سقط جهاز تنفسي؟"

كلا، ولكني أدرك كل شيء الآن: ليست جهاز التنفس واستطعت أن تمشي على طول سطح الأرض حتى بلغت مركزاً من مراكز قذف الطائرات. أبلغوا اللجنة المركزية اقترفت".

" لا لا، مطلقاً".

وأمر يده على جبهته كأنما يصرف انطباعه قوية. ثم أجمل قصته واستعاد ذكراها من جديد.

"سقط جهاز التنفس حول وقت الغروب. ولقد سبق أن ذكرت أن النافورة بدت أقل في

---

[1] ألفرد الكير (٨٤٩ – ٩٠١) أشهر الملوك الأنجلوسكونيين، وهو مؤسس جامعة أكسفورد

قوة القذف. أليس كذلك؟".

"أجل".

وحول الغروب تركت جهاز التنفس يسقط. ونسيت تماماً كل شيء عن الآلة —كما سبق القول — ولم أعرها التفاتا كبيراً لأني انشغلت بأشياء أخرى. كان لدي حوض الهواء الذي غطت فيه كلما صارت الحدة الخارجية غير محتملة، والذي يمكن بقاءه أياماً إذاً لم تهب ريح تبدده. ولك أدرك — إلا بعد أن تأخر الوقت — فحوى إعاقة الهرب. فقد استصلحت الثغرة التي حدثت في النفق. أي: جهاز الاستصلاح، أي أن جهاز الاستصلاح جاء في إثري.

وقد تلقيت إنذاراً آخر ولكني لم آبه له، أمست السماء ليلاً أصفى مما أضحت نهاراً بينما لمع القمر — الذي كاد أن يتوسط السماء خلف الشمس — في الوهدة لمعاناً بالغ البهاء في بعض الأحيان. وكنت في مكاني المعتاد — وهو الحد بين الهواءين الجويين — وقتما زعمت أنني رأيت شيئاً قاتماً تحرك عبر قاع الوهدة ثم اختفى في أنبوبة تجديد الهواء. فهبطت جارياً في رعونة، وانثنيت. وخيل إليّ إنني سمعت ضوضاء خافتة تجري في الأعماق.

وعندئذ — وإن تأخر الوقت — تنبهت. وأزمعت أن ألبس جهاز التنفس وأن أمشي رأساً إلى الهوة. ولكن هذا الجهاز ذهب. وعرفت بالضبط أين سقط — بين السدادة والفتحة — حتى إنني استطعت أن أتحسس الأثر الذي تركه في الكلا. فلما ذهب الجهاز أدركت أنني أوشك أن أقع في مكروه وأن الإفلات إلى الهواء الآخر خير لي. وإذا لم يكن من الموت بد فلأمت جارياً صوب السحاب الذي كان لؤلؤي اللون. ولم ابدأ قط. وقد خرج من أنبوبة تجديد الهواء شيء بالغ الفظاعة. فلقد زحفت منها دودة، دودة طويلة بيضاء، وأخذت تنسل فوق الكلا الواقع تحت ضوء القمر.

فصرخت وصنعت كل ما كان ينبغي لي ألا أصنع. دست هذه المخلوقة بدلاً من الهرب منها. فالتفت من فورها حول رسغي. وتعاركنا. وتركتني الدودة أعدو في كل مكان من الهوة. ثم حفت برجلي إذ كنت أجري فصرخت: "النجدة!" "هذا الجزء مخيف جداً وهو من المرحلة التي لن تعرفيها أبداً" فصرخت: "النجدة!" ثم لويت رجلي الواحدة على الأخرى.وسقطت. وسحبت من فوق نبات الخنشار العزيز ومن التلال التي على قيد الحياة ومررت بالسدادة

المعدنية الكبيرة "ويمكنني أن أحدثك عن هذه الرحلة". وفكرت في أنها قد تنجدني مرة أخرى إذا أمسكت بالمقبض. وكانت ملفوفة هي الأخرى. أوه، كم كانت الهوة جميعاً تملأها الأشياء. وكانوا يفتشونها من كل مناحيها، ويعرونها، وأطلت الخراطيم البيضاء. لمخلوقات أخرى تطل من الخرق متأهبة لوقت الحاجة إليها. وكل ما يمكن تحريكه أحضروه كأغصان الخنشار المبتورة وغيرها. ووصلنا جميعاً إلى الجحيم متشابكين. وكان آخر ما رأيته — قبل إقفال السدادة من خلفنا — نجوم معينة، وشعرت أن رجلاً على شاكلتي يعيش في السماء، لأني جاهدت فعلاً، جاهدت إلى آخر النهاية. ولم أنتبه إلا عندما اصطدم رأسي بالسلم. تلاشى الدود، ووجدتني وسط الهواء الصناعي، والضوء الصناعي، والهدوء الصناعي يناديني أصدقائي مستعينين بقصب الكلام ليعلموا هل عثرت على أفكار جديدة في المدة الأخيرة".

وهنا انتهت قصته. وكان الجدل في موضوعها متعذراً، واستدارت فاشتى لتنصرف.

وقالت في هدوء: "سينتهي الأمر بتشريدك".

فأجاب كونو: "ليت ذلك يحدث".

"لقد كانت الآلة رحيمة جداً".

"أوثر رحمة الله".

"هل تعني بهذه العبارة "الخرافية" أن في وسعك العيش في الهواء الخارجي؟".

"نعم".

"ألم ترقط — حول مراكز قذف الطائرات عظام أولئك الذين رموا بعد العصيان الكبير؟".

"أجل".

لقد تركوا يهلكون من أجل تهذيبنا. وزحف بعضهم بعيداً وكلنه هلك كذلك. ومن ذا الذي يستطيع أن يماري في هذا؟ ومثل هذا جزاءالمتشردين في أيامنا هذه. فسطح الأرض لم يعد يحتمل الحياة".

"فعلا".

قد يعيش الخنشار وبعض الكلا ولكن كل ما و أرقى من ذلك مقضي عليه بالهلاك. هل

كشفتهم أية سفينة هواء؟".

"كلا".

"هل ألقيت أية محاضرة في صددهم"؟

"كلا".

"ففيم إذن هذا التصلب في الرأي؟".

فالفجر قائلاً: "لأني رأيتها".

"رأيت ماذا؟".

"لأني رأيتها وقت الغسق، إذ خفت لنجدتي عندما ناديت، وقد كانت هي الأخرى، تتشابك مع الدود، وفاق حظها حظي لأن دودة وخزت حلقها وقضت عليها".

لقد جن. وانصرفت فاشتى ، ولم تر وجهه قط في الاضطرابات التي تلت.

الجزء الثالث

الشريد

وفي خلال الأعوام التي نلت إفلات كونو منيت الآلة بتطورين هامين ثوريين في مظهرهما وإن مهدت لهما قبلاً عقول الناس بحيث لا يعبران إلا عن رغبات كامنة.

التطور الأول إلغاء أجهزة التنفس.

وكان المفكرون المتنورون، أمثال فاشتى، يرون أن زيارة سطح الأرض حماقة. نعم قد تكون سفن الهواء ضرورية ولكن ماذا يجدي الخروج لمجرد إشباع الفضول والزحف ميلاً أو ميلين في محرك آلي دنيوي؟ فتلك عادة سوقية وقد تعد غير لائقة هوناً ما، لأنها عقيم لا تلد أفكاراً ولا تمت بصلة إلى العادات التي يؤبه لها. وهكذا ألغيت أجهزة التنفس ومعها بالطبع المحركات الآلات الدنيوية. وقد تقلبوا هذا التطور في هدوء اللهم إلا نفراً قليلاً من المحاضرين الذين اشتكوا من أنهم قد حيل بينهم وبين جمع البيانات عن موضوعاتهم. أما أولئك الذين ظلوا يرغبون في معرفة شكل الأرض فلم يكن عليهم، والحالة هذه، إلا أن ينظروا إلى جهاز السينما. وحتى هؤلاء المحاضرون أذعنوا عندما وجدوا أن محاضرة عن البحر لم يقل تأثيرها وهي مستندة إلى ما جمعته من محاضرات أخرى في الموضوع ذاته. فقد هتف واحد من أرقاهم: "احذر الأفكار المبتكرة! فالأفكار المبتكرة ليس لها وجود حقيقي، وما هي إلا انطباعات جدية مبعثها الحب أو الخوف. ومن ذا الذي يسعه – على هذا الأساس غير المكتمل – أن يقيم فلسفة، فحسبك الأفكار المنقولة عمن سبقك. وليكن النقل – إذا استطعت – عن مصدر قد يتابع تسلسله عن سابق عشر مرات. لأنك بذلك تباعد كثيراً بينها وبين ذلك العنصر المقلق ألا وهو المشاهد المباشر. وعلى سبيل المثال: لا تحفظ شيئاً عن موضوع "الثورة الفرنسية" ولكن أحفظ بدلاً عنه ما أظن أنا من أن إينتشارمون ظن أن يورايزن ظن أن جوتش ظن أن هويانج ظن أن شيبوستج ظن أن لافكاديوهيرن ظن أن كارليل ظن أن ميرابو قاله عن الثورة الفرنسية. فإن الدم الذي أريق في باريز والنوافذ التي حطمت في فرساي ستتبلور – بعد توسيط هذه

العقول العشرة الكبيرة – في فكرة تفيد منها كثيراً في حياتك اليومية. وكلن كن على يقين من أن المصادر عديدة منوعة. والمصدر الوثيق في التاريخ إنما يوجد ليعارض مصدراً آخر. فيورايزن يجب أن يعارض شكوك هويانج وإينتشارمون، وأنا يجب أن أعارض حدة جونش. وأنت – يا من تستمع إلي – أنت في موقف يفضل موقفي للحكم على الثورة الفرنسية.وستكون سلالتك في موقف يفضل موقفك، ذلك لأنك ستعرف ما أظن أنني أظنه، وسيضاف – بعد – إلى السلسة وسيط جديد. ثم ارتفع صوته قائلاً: "وفي الوقت المناسب سيأتي جيل لا تؤثر فيه الوقائع أو الانطباعات، جيل لا لون له إطلاقاً، جيل،"مطهر من شائبة الشخصية طهارة الملائكة" يرى الثورة الفرنسية، لا كما حدثت ولا كما كان يود لها أن تحدث بل، كما كانت تحدث لو أنها قامت في عصر الآلة.

وقد قوبلت هذه المحاضرة باستحسان عظيم لأنها عبرت عن شعور يكمن فعلاً في عقول الناس، شعور بأن الحقائق الدنيوية يجب إنكارها، كما عبرت عن أن إلغاء أجهزة التنفس كسب لا شك فيه. وقد قدمت اقتراحات حتى بإلغاء سفن الهواء أيضاً. ولم ينفذ هذا لأن سفن الهواء قد أدمجت نفسها في نظام سير الآلة، على صورة ما. غير أن استعمالها أخذ يقل سنة بعد سنة كما أن المفكرين أخذوا يقللون من ذكرها.

أما التطور العظيم الثاني فكان العود إلى التمكين للدين، وهذا ما جاهر به أيضاً المفكرون الذائعو الصيت. وقد قدر الجميع الأسلوب الوقور الذي انتهى به حسن الختام والذي أيقظ في كل امرئ روح الاستجابة. فما كان من أولئك الذين عبدوا في سكون إلا أن بدئوا في الكلام. ووصفوا شعور السلام العجيب الذي يرفرف عليهم كلما استعملوا كتاب الآلة واستشعروا الرضى الذي بداخلهم كلما رددوا منه أرقاماً معينة على قلة ما تنقله تلك الأرقام إلى الآذان الموجهة إلى الخارج من معان ومدلولات، كما وصفوا النشوة التي تتملكهم كلما لمسوا زراً ولو قلت أهميته، أو كلما دقوا جرساً كهربياً كيفما قلت الحاجة إليه.

وهتفوا:"الآلة تطعمنا وتكسونا وتؤوينا. وعن طريقها يتحدث كل منا إلى الآخرين ويرى بعضنا البعض، وفيها وجودنا. وهي تصادق الأفكار وتعادي الخرافة، ولها القدرة والدوام ومنها البركة" وقد طبعت هذه العبارة – قبل أن ينقض وقت طويل – في أول صفحات الكتاب. وفي الطبعات اللاحقة تضخم هذا الشعار حتى صار سلسلة معقدة من التسبيح والابتهال. أما كله

"الدين" فقد اجتنبوها في مواظبة وإصرار. وقد بقيت الآلة، من الناحية النظرية، خلقة الرجل وأدانه. ولكنها من الناحية العملية معبودة نفر قليل من الرجعين. على أنه لم يكن هناك توحيد في العبادة. فمؤمن تؤثر فيه بصفة خاصة أقراص الإبصار الزرقاء التي يرى بها غيره من المؤمنين. وثاني يسيطر على إحساسه جهاز الاستصلاح الذي شبه بالدود كونو الآثم. وثالث بأية للمصاعد. ورابع يتأثر بالكتاب. ويصلي كل منهم لهذا أو ذلك مبتهلاً أن يشفع له عند الآلة بوصفها كلا. والاضطهاد الدين موجود أيضاً، ولكنه لم يتفش للأسباب التي ستقدم بعد قليل. غير أنه مضمر حتى أن جميع من لم يعترفوا بالحد الأدنى المعروف بـ "الآلة غير الطائفية" كانوا يعيشون تتهددهم عقوبة التشريد الذي يعني الموت كما تعلم.

وعزو هذين التطورين إلى اللجنة المركزية يعد نظراً إلى المدينة من أضيق زواياها. صحيح أن أعضاء اللجنة المركزية هم الذين أذاعوا نبأ التطورات ولكنهم لم يسببوها بأكثر مما سب الحرب ملوك عهد التوسع الإمبراطوري. والأقرب إلى الحقيقة أنهم أذعنوا إلى ضرب من الضغط لا سبيل إلى قهره أتى من حيث لا يعلم أحد، ولما بلغ الضغط غايته جاء في أثره ضغط جديد لا سبيل إلى قهره كذلك. ومن الملائم أن نسمى مثل هذه الحال تقدماً. ولم يعترف أحد بأن الناس فقدوا السيطرة على الآلة. فلقد كانوا يخدمونها — عاماً بعد عام — في فاعلية متزايدة وذكاء متناقص. وكانت معرفتهم بواجباتهم نحو جيرانهم تتناقص بقدر تزايد معرفتهم بواجباتهم نحو الآلة. ولم يوجد في الدنيا قاطبة من فهم الكائن الجبار على أنه وحدة. لأن تلك العقول المسيطرة قد بادت. على أنها — في الحق — قد تركت إرشادات مكتملة، ولكن خلفاءهم أتقن كل منهم طائفة تلك الإرشادات. غير أن الإنسانية ، وهي ترغب في توفير الراحة — جاوزت أغراضها وبالغت في استغلال ثروة الطبيعة. ولهذا أخذت تعزق في حمأة التدهور في هدوء ورضى وأصبح التقدم يعني تقدم الآلة.

أما فاشتى فقد ظلت حياتها تتقدم في سلام، إلى أن حلت الكارثة الأخيرة. اطفأت أنوار حجرتها ونامت، واستيقظت، وأضاءتها، وحاضرت واستمتعت إلى محاضرتها، وتبادلت وأصدقاءها العديدين أفكاراً، واعتقدت أن روحانيتها آخذة في التقدم. وبين الفينة والفينة كان أحد الأصدقاء يمنح حق الانتحار تخلصاً من العذاب ويترك حجرته — أو تترك حجرتها — المشرد الذي جفاه كل تفكير إنساني. ولم تكن فاشتى نأبه لهذا كثيراً، بل كانت في بعض

الأحيان، بعد محاضرة مخففة، تطلب لنفسها حق الانتحار تخلصاً من العذاب. غير أن نسبة الوفيات لم يسمح لها أن تربو على نسبة المواليد، فكانت الآلة – حتى ذلك الوقت – تنكر عليها هذا الطلب.

وفي هدوء بدأت المتاعب قبل أن نتنبه لها بوقت طويل .. عجبت يوماً إذا تسملت رسالة من ولدها، ولم يكن أحدهما يتصل بالآخر إذا لم يكن بينهما وزاع مشترك، وقد سمعت، عن طريق غير مباشر، أنه على قيد الحياة وأنه نقل من نصف الكرة الشمالي – حيث تصرف تصرفات شريرة – إلى نصفها الجنوبي في حجرة لا تبعد كثيراً عن حجرتها.

وفكرت: "أريدني على أن أزوره؟ لن أفعل قط، أبداً أبداً، ثم إن وقتي لا يتسع لذلك".

لا، لقد كان جنوناً من نوع آخر.. لقد أبي أن يظهر صورة وجهه على القرص الأزرق، وتكلم من خارج الظلام في خشوع قائلاً:

"الآلة تتوقف".

"ما تقول؟"

"الآلة تتوقف. إني أعرفها وأعرف مقدمات توقفها".

فانفجرت مقهقهة، وسمعها كونو وغضب، وانقطع الحديث إلى غير رجعة.

وصاحت تقول لإحدى صديقاتها: "هل يسعك أن تتصوري شيئاً أسخف من هذا؟ رجل –كان ولدي – يعتقد بأن الآلة تتوقف.. هذا إلحاد. هذا جنون".

فأجابت صديقتها: "الآلة تتوقف؟ ما معنى هذا؟ هذه العبارة لا تنقل إلى أي معنى".

"ولا إلي".

"لا أظنه يشير إلى الاضطرابات التي حدثت أخيراً في الموسيقى"..

"هل شكوت إلى السلطات؟"

"نعم، فقالوا أنها حاجات إلى استصلاح، وحولوني على لجنة استصلاح الجهاز.. فشكوت من تلك الأنات اللاهثة التي تشوع سمفونيات "إيقاعات" مدرسة برزيين فتجعلها كتأوهات المتألم. فقالت لجنة الاستصلاح إنها ستعالج الجهاز عما قريب".

وانزعجت انزعاجاً خفياً واستأنفت حياتها. أولاً، لأن خلل الموسيقى يضايقها. وثانياً، لأنها لم تستطع أن تنسى كلام كونو. ولو علم قبلاً أن جهاز الموسيقى غير مستصلح — وهو لم يكن ليعرف ذلك لأنه يكره الموسيقى — ولو علم أن بها خللاً فإن عبارة "الآلة تتوقف، عي بالضبط النوع من الملاحظات الآفكة التي تقويها. وقد تفوه بها جزافاً بطبيعة الحال. ولكن ضايقها حدوث ذلك اتفاقاً فخاطبت لجنة استصلاح الجهاز في شيء من المشاكسة.

فأجابت —كما أجابت قبلاً — بأن العيب سيستصلح عما قريب.

فردت بقولها: "عما قريب! في الحال! ولماذا أترك حتى أضيق بالموسيقى المعيبة؟ وقد جرت العادة باستصلاح الأشياء على الفور، فإذا فإذا لم تصلحوها حالاً شكوت إلى اللجنة المركزية.

فأجابت لجنة استصلاح الجهاز بقولها: "اللجنة المركزية لا تتلقى الشكاوي من أصحابها رأساً".

"فعن طريق من إذن يكون لي أن أتقدم بشكواي؟"

"عن طريقنا".

"إذن فأنا شاكية".

"ستقدم شكواك عندما يجئ دورها".

"وهل شكا آخرون؟"

وكان السؤال مخالفاً للوائح الآلة. فأبت لجنة استصلاح الجهاز أن تجيب عنه.

وهتفت فاشتى بأخرى من صديقاتها: "هذا سيء إلى حد بعيد! لم تبلغ قط امرأة ما بلغت من سوء الحظ، إذ ليس يمكنني أبداً أن أطمئن إلى سلامة موسيقاي، وكلما استدعيتها انتقلت من سيء إلى أسوأ".

فأجابت الصديقة: "لدى متاعي أنا أيضاً، لأن أفكاري تعترضها أحياناً ضوضاء مرتجة".

"وما تلك؟".

"لست أدري أفي داخل رأسي هي أم في داخل الجدار"؟

"قدمي شكواك في الحالين".

"وتقدمت بشكواي، وسترسل في دورها إلى اللجنة المركزية".

"ومر الوقت، ولم تعد تستنكر العيوب. لم تعالج العيوب ولكن نسيج أجساد الناس، في ذلك اليوم الأخير، أخضعت بحيث تطوع نفسها لكل أهواء الآلة. ولم تعد الأنات التي تأزمت بسببها سيمفونيات مدرسة برزيين تضايق فاشتى، لأنها تقبلتها على أنها جزء من الإيقاع. وكذلك لم يعد يضايق صديقاتها الضوضاء المرتجحة، في رأسها كانت أو في الجدار. وقس على هذا الفواكه الصناعية المتعفنة، وماء الحمام الذي أخذت رائحته تخبث، والقوافي المعيبة التي أخذت آلة الشعر تصدرها. فلقد تقدمت في صددها شكاوي مرة في البداية ثم أذعن الناس ونسوا.

وأخذت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، من دون أن يعترض على ذلك معترض.

أما خيبة جهاز النوم فكانت على غرار آخر إذ كان عطله أقدح. فلقد أتى حين من الدهر في العالم أجمع — في سومطرة وفي وسكس وفي مدائن فوق الحصر في كورتلند والبرازيل — فيه يطلب الأسرة أصحابها المتعبون فتعجز عن الظهور، وقد يبدو أن هذا الأمر مما يبعث عن الضحك ولكنا من بدء حدوثه نستطيع أن نؤرخ لتدهور الإنسانية. فلقد هاجمت الشكايات اللجنة المسئولة عن التعطل فحولتها كالمعتاد على لجنة استصلاح الجهاز التي أكدت بدورها بأن تلك الشكايات ستقدم إلى اللجنة المركزيي، غير أن التبرم أخذ يتزايد إذ أن النوع الإنساني لم يكن قد طوع بعد بما يكفي للاستغناء عن النوم.

وأخذوا يتحدثون: "بعضهم يتحرش بالآلة" .. "بعضهم يحاول أن ينصب نفسه ملكاً وأن يدخل في الآلة من جديد، عنصر الشخصية".

"فليعاقب ذلك الرجل بالتشريد".

"إلى الخلاص! خذوا الثأر للآلة! خذوا الثأر للآلة!".

"الحرب! اقتلوا الرجل".

و لجنة استصلاح الجهاز تقدمت الآن وهدأت حدة الذعر بكلمات مختارة، واعترفت بأن جهاز الاستصلاح هو نفسه في حاجة إلى الاستصلاح.

وكان تأثير هذا الاعتراف الصريح باهراً.

قال محاضر ذائع الصيت – وهو الذي تكلم عن الثورة الفرنسية والذي كان يخلع على كل فساد ثوب الجلال–" "بطبيعة الحال، بطبيعة الحال سوف لا نلح في طلب الاستجابة لشكاياتنا الآن: إذ أن جهاز الاستصلاح قد عاملنا في الماضي معاملة طيبة إلى درجة تدعونا إلى العطف عليه، بل سننتظر إبلاله مصابرين، ولسوف يستأنف الاضطلاع بواجباته في الوقت الملائم. فلنستعن – إلى أن يحل ذلك الوقت – عن أسرتنا وأقراص دوائنا وعن حاجاتنا الصغرى – ويقيني أن تلك هي رغبة الآلة.

وإنني عليه مستمعوه على بعد آلاف الأميال، فالآلة ما تزال تربط أواصر العلاقة بين بعضهم البعض، إذ تحت البحار وتحت أعراق "أصول" الجبال كانت تمتد الأسلاك التي بها يرون ويسمعون، ثم إن العيون والآذان الضخمة التي أورثتهم إياهان ودوى المنشآت الآلية العديدة أليست أفكارهم زيا واحداً من التبعية، ولم ينكر فضل الآلة غير الشيوخ والمرضى بعدما ذاع من أم حق الانتحار تخلصا من العذاب أيضاً لم يعد يمنح، وبدأ الألم يظهر بين الناس.

وأصبحت القراءة من الأمور العيرة، لأن الهواء الجوي داخلته آفة أعتمت إشراقه، حتى إن فاشتى عجزت في بعض الأحيان عن الرؤية عبر الحجرة.وكذلك قد الهواء، ورفع الناس عقيرتهم بالشكوى وقصرت الأدوية عن شفاء الناس، وأخذ المحاضرون يناشدونهم البطولة ويهيمون بهم: تذرعوا بالشجاعة! تذرعوا بالشجاعة! ولا تأبهوا الشيء ما دارت الآله فالظلام والنور يستويان في نظرها. ومع تحسن الأحوال بعد مرور بعض الوقت فإن الإشراق القديم لم يعد سيرته الأول، كما أن الإنسانية لم تتعاف من الإعتام الذي أحاط بها.

وقيل كلام "هستري" عن "التدابير" و "الدكتاتورية المؤقتة"، وطلب إلى سكان سومطرة أن يوطنوا أنفسهم على أن يألفوا الأوضاع التي تخلفها محطة القوى المركزية، ومحطة القوى المركزية. ومحطة القوى هذي مركزها فرنسا.. غير أن الغالبية تملكها الفزع وانصرف الناس بكل قواهم يصلون لكتبهم، وهي البراهين الملموسة على أن الآلة تقدر على كل شيء. وكان فزعهم درجات: أمل في بعض الحيان. جهاز الاستصلاح كاد أن يتم استصلاحه.. أعداء الآلة غلبوا أعلى أمرهم.. "مراكز عصبية" جديدة تشتغل بحيث يصدر العمل كما كان بل أفخم مما كان، وفي ذات – من دون تنبيه وبغير إشارة إلى حدوث أي وهن – نقوض نظام الاتصال كله في العالم أجمع، وحلت نهاية العالم كما يفهمونه..

وكانت فاشتى إذ ذاك تحاضر، وقد رقمت ملاحظاتها الباكرة بالاستحسان، وفي تلك الأثناء خيم الصمت على السامعين. ولدى الخاتمة انقطعت الأصوات قلما استاءت بعض الشيء طلبت صديقاً كان إخصائياً في الجاذبية فلم يجب. الصديق نائم بلا ريب... وتكررت النتجة نفسها مع الصديق التالي الذي حاولت طلبه، وهكذا مع الي يليه إلى أن تذكرت ملاجظة كوني المستترة: "الآلة تتوقف".

وبقية العبارات لا تنقل أي معنى. وإذا كانت الأبدية في سبيلها إلى التوقف فالآلة دائرة عما قريب..

فمثلاً: ظل هنالك قليل من النور والهواء، وظل الكتاب موجوداً، وما دام الكتاب موجوداً فالأمان باق.

ثم أمست لا تقوى على العمل لأن زوال النشاط قد صاحبه فزع غير مرتقب وهو الصمت.

على أنها لم تسبق لها قط معرفة الصمت. ولذا كادت تهلك من حدوثه وهو الذي قضى على الآلاف العديدة قضاء مبرماً. فلقد أحاطت بها منذ ولادتها همهمة دائبة كانت تقع من أذنها موقع الهواء الصناعي من الرئتين. لذا خرقت رأسها الآلام المبرحة، وتعثرت إلى أمام — وهي لا تكاد تدري ما هي فاعلة — وضغطت الزر القليل الاستعمال فانفتح باب الحجرة.

وكان هذا الباب يدور على محور بسيط خاص به لا يتصل بمحطة القوى المركزية القائمة على بعد سحيق هنالك في فرنسا. انفتح باب الحجرة ففتح معه آمال فاشتى المتجاوزة الحد، وقد خالت أن الآلة قد أصلحت. وبفتحه رأت النفق المعتم الذي انعرج إلى مكان يؤدي إلى الحرية. ألقت نظرة واحدة ثم انكمشت متراجعة، ذلك لأن النفق كان يعج بالناس، ولعلها كانت آخر من ننبه في تلك المدينة.

وكانت في أي وقت تشمئز من الناس وكان كل منهم يمثل كابوساً من أسوأ أحلامها. فقد قفلوا يجوسون زاحفين، يتصايحون، أو ينشجون ويتصايحون ابتغاء التنفس، ويلامسون بعضهم البعض، ثم يلفهم الظلام، ويدفعون، دون انقطاع في لحظات متقاربة، خارج الطوار غلى القضيب الحي، وكان بعضهم يتعارك حول الأجراس الكهربية ابتغاء استدعاء القطرات التي لم

تكن سبيل غلى استدعائها، والبعض يصرخ في طلب حق الانتحار تخلصاً من العذاب أو في أجهزة التنفس أو يسفه الآلة. ووقف آخرون — مثلها — على أبواب حجرهم يخيفهم تركها ومزيلتها على حد سواء. ومن خلف الجلبة ساد الصمت الذي هو صوت الأرض والأجيال البائدة.

لا لا، لقد كان شراً من العزلة، فأقفلت الباب من جديد وجلست تنتظر النهاية. واستمر التفكك يصحبه تشقق وقهقهة مروعان. ولابد من أن الصمامات التي تكبح الجهاز الطبي كانت قد وهنت، ذلك لأنها تفسخت وتدلت من السقف على صورة مرعبة. واضطربت الأرضية وقذفت بها من فوق كرسيها. ونضجت قصبة وانسابت صوبها كما قد ينساب الثعبان. وأخيراً دنا الفزع النهائي، فقد بدأ الضوء يتضاءل وأدركت أن يوم المدنية الطويل أخذ بطبق.

ودرمت حول الحجرة تضرع بالنجاة مما هو جار، على حال ما، وشرعت تقبل الكتاب وتدق الجرس تلو الجرس. أما الجلبة الخارجية فقد أخذت تتزايد حتى نفذ عجيجها من الحائط. وبدأ إشراق حجرتها يعتم رويداً رويداً وحال بريق الانعكاسات الذي كان يشع من مفاتيح التحويل المعدنية. وتعذرت عليها الآن رؤية قمطر القراءة ورؤية الكتاب مع أنه كان في يدها. وأخذ الضوء يتبع مسار الصوت والفضاء الأصيل يرتد إلى الكهف الذي طرد منه كل ذاك المدى من الوقت. واستمرت فاشتي في التدويم —كأنها من نساء دين من الأديان الباكرة — هي تصرخ وتصلي وتدق الأزرار بيدين داميتين.

وهكذا فتحت الباب وفرت — فرت بروحها، أو هذا على الأقـل ما لاح لي قبل ختام تأمـلاتي — أما قرارها بجسدها فهذا ما لا أقدر على إدراكه. وشاءت الصدفة أن تصطدم فاشتي بالمفتاح الذي يفك الباب، فأخبرها تدفق الهواء الفاسد على جسدها والخفق القوي الذي يهمس في أذنيها بأنها تواجه النفق من جديد والطوار الهائل الذي فوقه رأت الناس يتعاركون قبلاً. ولكنهم لم يكونوا يتعاركون الآن، ولم يبق إلا الهمسات والأنات الناسجة.. لقد كانوا يموتون في الظلام الخارجي بالمئات.

وتفجرت عنها الدموع. وأجابتها دموع.

وكان الاثنان يبكيان الإنسانية ولا يبكيان نفسيهما، إذا لم يستطيعا أن يحتملا أن النهاية تكون على هذا النحو، ولقد انفتح قلباهما قبل أن يسود الصمت، وعلما ما هو أهم شيء في هذه الدنيا. لقد كان أهم شيء هو الإنسان – وهو النخبة من بين كل ذي لحم ودم، وأنبل جميع المخلوقات المرئية، وهو الذي صنع الله يوماً على غراره، والذي رفع مقدرته فوق النجوم – لقد كان الإنسان الجميل العاري يموت مختنقاً بالحلل التي تسجها. لقد كدح القرن تلو القرن وكان هذا جزاءه.. لقد بدا حقاً أن الحلة كانت في مبدأ أمرها علوية، صبغتها ألوان التعذيب ونسجتها خيوط إنكار الذات. لقد كانت علوية ما بقيت حلة فحسب وما استطاع الإنسان أن يطرحها مختاراً وأن يعيش بالجوهر الذي هو روحه. وكان الجوهر العلوي الآخر جسده. أما الإثم في حق الجسد – وكان هذا هو السبب الأكبر في بكائهم، وكذلك ترديدهم قروناً في الإضرار بالعضلات والأعصاب وبتلك الأبواب الخمسة العالية التي بها يتم الإدراك من دون مساعدة"[١] – أما الإثم في حق الجسد فقد درجوا على أن يبرروه بكلام بحجة التطور حتى صار الجسد كالباب الأبيض وموال أفكار لا تصطبغ بلون ما ونهايات منقلبات روح سيطر على النجوم.

ونشجت قائلة: "أين أنت؟"

وقال صوته في الظلام: "هنا".

"وهل من أمل يا كونو؟".

"لا أمل لنا".

"أين أنت؟".

وزحفت صوبه فوق جثث الموتى، وانبجس دمه على... يديها.

فلهثت قائلة: "زد السرعة فإني أموت... هنا نحن أولاء نتلامس ونتحادث من دون أن تستعينين بالآلة".

وقبلها.

"لقد عدنا إلى أنفسنا، نحن نموت الآن ولكن بعد أن غنمنا – من جديد – الحياة كما

(١) يقصد الحواس الخمس

كانت في وسكس وقيتما طردا لفرد الدنمركيين، وبعد أن أصبحنا نعلم ما يعلمونه في العالم الخارجي، أصبحنا نعلم ما يعلم أولئك المقيمون في اله حاب ذي اللون اللؤلؤي".

"ولكن، أحقاً يا كونو؟. أحقاً أن رجالاً يعيشون فوق سطح الأرض؟ أو ليس هذا — هذا النفق وذاك الظلام المسموم — آخر دنيانا حقاً؟".

فأجاب:

"لقد رأيتهم، وحدثتهم، وأحببتهم. إنه يستخفون في الضباب وفي الخنشار حتى تنتهي مدينتنا. هم اليوم المشردون ولكنهم في الغد سيصبحون".

"أوه، في الغد.. في الغد سيعمد مخبول ما إلى إدارة الآلة من جديد في الغد–".

فقال كونو: "لا سبيل إلى ذلك أبداً، فقد وعت الإنسانية درسها".

ولم يكد يتكلم حتى تقوضت المدينة جمعاء كما قد يتقوض قرص الشهد.فقد طارت سفينة هواء داخل مراكز قذف الطائرات إلى مرفأ مخرب. وتهشمت غائرة وفرقعت في طريقها وهي تشق الرواق بجناحيها الفولاذيين. ورأيا — لحظة — أمم الموتى. ورأيا — وقبل أن يلحقا بها — كسفاً من السماء التي لم يدب إليها الفساد.

بيت القصيد

- ١ -

قال ميكي – في خلال كثير من الضحك الأبله – "لا أستطيع أن أتبين بيت القصيد".

واستمر هارولد يجدف. وكانا قد قضيا وقتاً طويلاً على كثبان الرمل، والتيار قد اخذ ينحسر عن مصب النهر انحساراً شديداً. كما كانت الشمس قد أخذت تغرب، والحقول التي على الشاطئ المقابل تلمع لمعاناً بهياً، وبيت المزرعة – الذي استراحا فيه – يتوهج من نوافذه العليا كأنه قد امتلأ ناراً.

واستأنف ميكي الكلام قائلاً: "وستحمل إلى خارج البحر، ولن تفوز حتى تسري نفسك قليلاً بشيء من المرح ولاسيما انك عليل هزيل، ويقيني أن ركوب البحر مفيد".

وكانوا على وشك الوصول إلى البوغاز الأوسط، وهو – من المياه الآخذة في الانحسار – في منزلة العمود الفقري. ولم يكاد يزيلانه حتى هزلت قوة التيار، وسهل ذهابهما حتى بلغا شاطئ الرمل الممتد تحت المزرعة.. وكانت أمسية رائعة سبقها يوم أروع. فلقد خرجا يجذفان في هوادة إلى الكثبان وابتردا واستبقا وطعما وناما ثم ابتردا واستبقا وطعما من جديد. وكان ميكي مرحاً جم النشاط والابتهاج إذ أن الأقدار لم تقم في سبيله العقبات حتى تلك الوقت، وهو لم يكن يتصور أن تياراً من تيارات الجزر قد يؤخرهما عن العشاء تأخيراً كبيراً. فلما وصلا إلى البوغاز وأخذ القارب – الذي كان يحاذي، في أناة الخطر المضاد للتيار – يتوقف بلا حراك بين الأمواه المتحركة، عندئذ فقد كل مظاهر التعقل وصاح يردد شعراً فحواه: فقد تغرقنا دوامات البحر وقد نبلغ الجزر السميدة وترى أخيل"[١]"العظيم الذي عرفناه".

ولم يرد هارولد – الذي لم يكن يعني بالشعر – على أن صرخ وكان كذلك مرحاً جم السرور، فلم يبد عليه أنه عليل كما أنه لم يشعر بالمرض والضعف. وكان العلم قد تحدث إليه

---

[١] أخيل اسم بطل ألياقة هوميروس

أخيراً حديث الجد، وهز رأسه لجسده الذي لوحته الشمس. ولكن ما الذي يمكن أن يعرفه العلم؟ فلقد أنزله إلى البحر لينتعش وأرسل ميكي ليرقبه كي لا يتعب نفسه.نعم كان ميكي أول الأمر مصدراً للانزعاج ولكن حسن الإدراك واتاه كما هو شأنه دائماً مع الشباب. فهو منذ أسبوعين لم يكن يرخص للعليل أن يمسك المجداف. اما الآن فقد امره بأن يسري عن نفسه، وقد أخذه هارولد بكلمته وفعل ذلك. وتحول بكليته إلى إرادة وعضل. وبدأ لا يعرف أين هو. ثم إن قوة تأثير أداة الشد على قدميه والمد الذي أثقل ذراعيه اندمجت في صوت صاحبه في اتجاه شعور واحد غير مسمى. وأخذ يناهز الحالة الغامضة التي هي المطلب الحقيقي الذي يستهدفه كل من يقوي نفسه برياضة البدن وإن لم يعترف به فلقد أخذ يحس بوجوده.

وأنشد ميكي: "١، ٢ — ١،٢، محاولاً أن يستعين بجذب الدقة، وكن ميكي كان واسع الخيال.. نظر إلى النوافذ المتوهجة وتخيل أن المزرعة نجم وأن القارب تابعه الذي يدور في فلكه وأن المد هو المجرى الأثيري المتدافع للكون والتجول بين الكواكب التي لا ني عن الخفقان أبد الآبدين. ما أفكه هذا! إنه لم يكيف مظاهر سروره في تحفظ كما يفعل الشيوخ. ورفرفت عليه سعادة بالغة أنسته واجب الشكر. وكانت "اذكر خالقك في أيام شبابك". كلمات امرئ ترك وراء شبابه. وكان كل ما أنشده ميكي هو: "٢،١".

وضحك هارولد دون أن يسمع، وتصبب العرق من جبينه. وتدفق كما يتدفق المد.

وصاح ميكي: "بودي لو تفحصك الطبيب".

فلم يجب وضغط أسنانه وجن جنونه. لقد اهاب به أسلافه بأنه أولى به أن يموت من أن يقهره البحر.

فجدف وهو يلهث ويصرخ صرخات قصيرة غاضبة بينما كان صوت مدير الدفة يسلقه بلسانه ويؤجج غضبه.

مضبوط: ١، ٢. ادفع المجداف بمزيد من الجد. اسمع هذا شاق بعض الشيء. ربما يحمل بنا أن نكف أيها الرجل المسن".

وفي تلك اللحظة اقتربت منهم طيور النورس"[1]" ودار بعضها فوق رأسيهما وأخذ بعضها الآخر في الصعود والهبوط فوق المياه المتجعدة. وترامى إليهم من فوق الأرض غناء قنبرة خافتاً ورأى ميكي مركبة الطبيب سائرة على طول الطريق المؤدية إلى المزرعة فشعر بالخجل.

"اسمع يا هارولد، كان يجب عليك ألا — وكان يجب عليَّ ألا أرخص لك — غني لم اتبين بيت القصيد".

قال هارولد في وضوح المستقصي: "ألا تتبين أنت بيت القصيد؟، حسناً، لسوف تتبينه يوماً ما"، وترك المجدافين. وغذ ذاك أخذ القارب يدور واختفت المزرعة ومركبة الطبيب وأغنية القنبرة، ووقع بثقله على بيت المجداف فأمسك به ميكي.. لقد أجهد قلبه. ومات، ونصفه داخل القارب والنصف خارجهن ذلك أمر وبيل..

- ٢ -

أمر وبيل، حدث هذا عندما ميخائيل في الثانية والعشرين من عمره، وقد توقع أنه لن يعرف السعادة مرة أخرى. وقد أثر فيه صدى صوته وهو يزعق عندما حملوه، وصوت الطبيب إذ يقول: "أعدك مسئولاً" ويجئ أيرى هارولد، وصوت القس إذ يلخص صلات هارولد بالعالم الآخر، أثر فيه كل هذه الأشياء تأثيراً بالغ العمق حتى زعم أم هذا التأثير سوف يلازمه إلى الأبد. ولكن ذلك لم يحدث في الواقع لأنه عاش إلى ما بعد السبعين، ولن يتسنى كائناً لامرئ — من كان مهما قويت إرادته — أن يظل متذكراً في وضوح إلى مدى بعيد كهذا. فالعقل ومهما بلغ من الحساسية والود تكسوه في كل يوم تجارب جديدة، وليس في مقدوره أن يتحلل من النمو المتصل، ولذا يضطر إما إلى نسيان الماضي وغما غلى تحريفه. وهذا ما حدث لميخائيل. فهو مع مرور الزمن لم تبق في ذاكرته سوى الأحداث الدرامية.. وتذكر آخر حركات هارولد "وهو يقبض على يده بيد ويدلي الأخرى عميقة في البحر". تذكرها لأنها أبانت عن جمال الجسم وليس لأنها آخر حركات صديقه. وللسبب ذاته تذكر آخر عبارة نطق بها: "ألا ترى بيت القصيد، حسن، ستراه يوماً ما". واستثارت العبارة خياله وامتزجت بما لديه من ذكريات. وبعد

---

(1) النورس (بفتح النون المشددة) طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يعلو الجو ثم يزج نفسه في الماء ولا يأكل غير السمك، ويسميه بعضهم زمج الماء.

ثلاثين عاماً أو أربعين نسي مردها. ولا تثريب عليه في هذا لأن شواغل الحياة تكاثرت عليه حتى غلبته على أمره.

وهناك أيضاً ما يقال غير هذا: لم يكن بينه وبين هارولد من أوجه الشبه غير الشباب، ولم يكن بينهما من الروابط الروحية ما يمكن ان يظل في الذاكرة. فهما لم يتباحثا قط في اللاهوت ولا في الإصلاح الاجتماعي ولا في أية مشكلة من المشكلات التي تزحم ذهن ميخائيل. وعلى هذا لم يبق ما يمكن تذكره عنه مع أنهما كان صديقين حميمين إلى حد ما. وكان كلما فكر في هارولد انمحى من ذاكرته كل شيء عنه، وحينما فقد هارولد جسده صار طيفاً، ولم يكن في وسع ما في ذلك شك. وليس في الجنة ولا في جهنم مكان لرياضة البدن ولا للخلق الهادئ الذي لا هدف له، فإذا جرد هارولد منهما فما الذي يتبقى؟ وحتى إذا نبت أن الحياة في العالم الآخر المجهول تطابق حياتنا كل المطابقة وحتى إذا وجدت به شمس ونجوم خاصة فإن تلويح شمسنا لوجوهنا لابد من أن يزول عنها كمت لابد من أن تهن العضلات الدنيوية قبل أن نتمكن من الذهاب مجدافين في بحرها اللانهائي. وأسلم ميخائيل صديقه، والحزن يضويه، إلى رحمة الله، ولم يستطع شيئاً غير هذا. ذلك لأن الناس لا يسعهم أن يخلدوا إلا من خلف وراءه أثر من الشعر أو الحكمة.

أما بالنسبة لنفسه فقد توقع حظاً آخر، إذ عرف — في تواضع حجم — أنه لم يكن مثل هارولد. وهو في هذا ليس صاحب الفضل لأنه انحدر من أروقة أعلى إدراكاً وورث طاقات جعلته جديراً بالحياة وبكل ما قد يجئ بعدها. وكان يأبه للعالم وللعقدة الطفيفة التي فيه والتي نسميها المدنية كما يأبه لإخوته من بني الإنسان الذين يصنعون العقدة والذين يذودون عنها. ثم أنه يستدفئ بالحب، حب الإنسانية. وحتى عندما يفكر في غير هذا من الشئون ويتطلع إلى الجوزاء — وقد يحدث ذلك في أمسيات الشتاء الباردة — حتى عندئذ كانت تهز مشاعه غمرة من الفرح تجل عن الوصف، ويملؤه اليقين بأن اسمى خلجاتنا الفكرية لها قيمة خالدة ستكمل فيما بعد. وإن طبيعته تمتلئ إلى هذا الحد ما يكون لها أن تعكف على الموت.

ولا جمال حياته العملية:

بعد المأساة بوقت قصير، عندما كان يستشفى بدوره، لقى المرأة التي قدر لها أن تمسى شريكة حياته مدى العمر. وكان قد سبق له لقاؤه ولم يمل إليها إذ بدت جافة قاسية. غير أنه

تبين الآن أن قسوتها ترد إلى فضيلة تعوزه. ولئن آمن بالحب فإن جانيت تؤمن بالصدق. وقد خبرت كل الرجال وكل الأشياء ولم يسعها أن تحتمل العاطفي الذي يستخفي من قسوة الدنيا وغدوها. ولما كانت إذ ذاك خطيبة رجل آخر تحدثت إلى ميخائيل في صراحة تفوق صراحتها لو أن الظرف كان غير الظرف. قالت أنه لا يكفي أن يشعر الإنسان بأنه طيب وأن يشعر بأن الآخرين طيبون. وأن رسالة الإنسان هي أن يحسن من حال الآخرين، وأهابت به أن يبحث عن عمل. وفيما كانت تتحدث إلى الشاب تبلج له جمال العمل الشريف واكتملت رجولته العقلية والجسدية. وبعد أن أعد نفسه الإعداد المناسب دخل الخدمة المدنية موظفاً في المتحف البريطاني.

وانخرط في مهنة حرية بأن توصف بأنها وجيهة وعميقة النفع للإنسانية. ولم يرض ميخائيل عن أطراد نسق الرسميات "الروتين" في العمل بسبب المثل العليا التي ينتهجها في التصرف والتهذيب، وذلك لأنه يحب مساعدة الآخرين. ولما كان لبقاً بالفطرة حظيت تصرفاته بالموافقة، وأصبح – بعد مرور وقت غير طويل – مصدر وئام في القسم الذي يشتغل فيه. فلقد وسعه أن يخفف عن رؤسائه ويشحذ عزم مرءوسيه ويرضى الأجانب من طلاب المعرفة ويرى أن لكل رأى ما يبرره. وقد درجت جانيت – التي كانت ترقب تقدمه – على اتهامه بعدم الثبات، وكانت في مخطئة، إذ أن الشاب لم يكن مجرد شخص نهاز للفرص بل كان ينهج دواماً وفق تفكير صادق خاص به،وإلا لما استطاع أن يستبقى احترام زملائه. ومرد تلك الحقيقة إلى عذوبة طبيعته في العمل التي وجهها تأثير امرأة صوب الغايات المثمرة.

وبعد معرفة دامت عشر سنين تزوجا. وفي هذه الفترة كابدت جانيت آلاماً كثيرة، إذ ظهر أن خاطبها ليس أهلا لها. ولكن سجيتها استقرت عندما جاءت ميخائيل . وكانت أخلاقها نقيض أخلاقه إلى حد كبير، وقد يكون أنهما تبادلا كل ما قدر عليه من خير. وكان زواجهما متين الأواصر في ظل قدر كاف من السعادة. فقد أيدي هو، بصفة خاصة، تسامحاً في أشياء كثيرة لا تعد، لأن الاعتدال والعطف كانا في طريقهما إلى أن يصبحا العنصرين الرئيسين في أخلاقه. وعندما وجد أن امرأته لا تنظر بعين الإنصاف إلى العقلية الرسمية، وعندما تنكر صهره للدين وأعلن كفره، وقال لنفسه: "ليست لهما من حيلة فهكذا خلقاً وهما لا ينكران ما بهما من عيوب. والأولى بي أن أفكر في عيوبي أنا وأنا أكافح في سبيل أفق أوسع دون انقطاع". وأخذ

يزداد في كل يوم لطفاً.

وكان لأمله في ارتقاب أفق أوسع بعض الأثر تحوله صوب الأدب. فقد عن له — عندما أخذ يتخطى الأربعين من عمره — أن يكتب مقالات، مقالات تتحدث عن الماضي هوناً ما وتنم عن التأمل أكثر مما تدل على عمق المادة. وقد حظى بعض تلك المقالات بالإقبال عليه. فقد حرك حسن الذوق ووضوح العبارة وآداب المسيحية المعتدلة بها شهية أنصاف المتعلمين من الجماهير وجعلهم يفكرون ويشعرون، على أن تلك المقالات لم تكن — ولم يقصد بها أن تكون — أدباً عالياً. غير أنها فتحت الباب دونه كما كانت بلا ريب قوة في سبيل الخير، وقد تتبع ميخائيل الجزء الأول بـ "اعترافات كهل" وأودعه تحية لعهد الصبي وإن ذهب إلى أن النضج هو كل شيء. والحنكة — في رأيه — هي سبيل التهذيب الوحيدة، أما العطف والأتزان وتعدد الجوانب فلا تتأتي للرجل حتى تتقدم سنه. وإن المرء ليسره دواماً أن يسمع، أن الأحسن هو الذي سيكون .. وراح الكتاب. وربما جاز أن يصبح مؤلفاً مرموقاً، غير أمرأته أصرت عليه ومنعته عن أن يكتب شيئاً لا يحس به إحساساً صادقاً. وقد ولدت له — حتى ذلك الحين — ثلاثة أطفال هم هنري وكترين وآدم. وكانوا في الجملة أسرة سعيدة. فهنري لم تصدر عنه متاعب من أي نوع. وسلكت كترين سبيل أمها، أم آدم — الذي كان خشناً فظاً — فقد سبب لوالده بعض القلق. ولم يتسن للأب أن يفهم الابن مع الملاحظة الدقيقة، ولذا لما يسميا قط صديقين حقيقين.. ومع هذا كانت تلك المسألة سحابة صغيرة في أفق واسع. فقد كان ميخائيل — في بيته وفي عمله — أكثر نجاحاً من معظم الرجال.

وعلى هذا فقد انزلق إلى الحلقة الخامسة من عمره. وعندما مات أبوه ورث بيتاً في تلال "ساري"، وهناك استقرت جانيت لأنها كانت في قراره نفسها تهوي فلاحة الحدائق. ومهما يكن فإنها لم يبد عليها أي أثر للثقافة العالية. غير أن شراستها أضلته، وربما تكون قد أضلتها هي أيضاً، حتى أعتقد أنها مثقفة. وكانت على شيء من اللباقة في مجتمعات لندن، غير أن هذه المجتمعات أضجرتها إذ كانت تنقصها مرونة زوجها كما كانت أكثر منه تأثراً بتزايد السن، ثم إن الريف لم يناسبها. ولذا أضحت شكسة تخاصم سيدات أخريات بسبب الاختلاف في أسماء الأزاهير.. ولم تخل السنون — بطبيعة الحال — من التأثير عليه كذلك. فلقد أصبح إذ ذاك واهناً بعض الشيء، وتخلى عن كل الألعاب الخارجية. ومع أن صحته ظلت حسنة فقد أمسى أصلع

أقرب إلى البدانة والخجل. وكان يكره السهر والرياضة البدنية العنيفة والتنزه ليلاً مشياً على الأقدام والسباحة في الحر والسير بالقوارب المكشوفة بغير غاية معلومة، وكثيراً ماكبح نفسه عن استثارة الأطفال. وكان هنري — وهو صبي ظريف جذاب — يعصر يده ويقول: "حسن يا أبتاه". أما كاترين وآدم فكانا يعبسان أحياناً.. وظل تفكيره في الأطفال يزداد أطراداً. والآن، وقد أخذت امرأته تضعف، فإن بنيه هم المستقبل، فصمم على أن يظل متصلاً بهم، وذلك بعد أن تذكر كيف أخفق أبوه معه. وكان يؤمن بالكياسة، وكثيراً ما وقف بينهم وبين أمهم. وعندما اشتد ساعد بنيه تركهم يتخيرون أصدقاءهم. وعندما استأذنت كترين، في التاسعة عشرة من عمرها، في الذهاب لكسب عيشها بوصفها بستانية لدى سيدة نبيلة رخص لها ذلك. ولكنه في هذه الحالة بالذات ظفر بمثوبة لأن كترين عادت إليه بعد أن قتلت الزهر. وكان من شيمها التبرم والتجهم ولذلك كانت محنة لأمها التي لم تستطع أن تتصور المصير الذي ينتظر الفتيات. ثم تزوجت وحسنت حالها كثيراً، فلقد أصبحت حقاً أكبر سند له في سنيه التالية.

ذلك أنه عقب زواجها أصابه رزء كبير، إذ أمست جانيت طريحة الفراش وبعد مرض طال أمده انتقلت إلى العالم المجهول. وأعلن السير ميخائيل — لأنه حاز لقب فارس — أنه لن يعيش بعدها، فقد تعود كل منهما على الآخر وأصبح لا غنى له عنها إلى درجة أنه توقع أن يمضي في إثرها. وكان في هذا مخطئاً. فلقد ماتت عندما بلغ الستين، وعاش هو إلى ما بعد السبعين. وتغلبت سجيته على قبضة الظروف وظل يحتفظ برغباته القديمة وترفقه الذي لا يقهر.

ولك يكد ذلك يحدث حتى أصابه مكروه آخر. فقد اتضح أن آدم كان يحنو على أمه حنواً شديداً. وأنه إنما كان يطيق حياة البيت إكراماً له فقط، فهجره بعد مشادة عنيفة، ثم كتب من الأرجنتين أنه آسف، غير أنه يود أن يبدأ الحياة معتمداً على نفسه. فارتجف السير ميخائيل وقال: "لا أرى وجه الصواب في ذلك، إذ هل منعته يوماً — أو هل منعت أياً منكم — من مثل ذلك؟" وأقر كلامه هنري وكترين. ولكنه مع هذا استشعر أنهما يفهمان أخاهما أكثر منه فاستطرد يقول: "لقد أعطيته الحرية، فماذا يبتغي أكثر من ذلك؟" فقال هنري بعد تردد: "من الناس من يحس بأن الحرية لا نعطي — هذا ما سنعته على أية حال. وربما كان آدم من هذا القبيل. وقد لا يشعر بالحرية حتى أخذها بنفسه". فاعترض السير ميخائيل وأجاب بقوله: "لقد درست المراهقة سنوات طوالاً وأرى أن حكمك يا ولدي العزيز موجب للسخرية".

ومازح الاثنان أباهما مزاحاً كيساً. ومهما يكن فلقد سلخ الأب عمراً مديداً موقراً. وبعد أن اعتزل عمله في المتحف البريطاني قدم طائفة قليلة ثانية من الإنتاج الدبي. لقد نسيته جمهرة الناس ولكن تلطفه في كتابه: تأملات متقاعدة" ساعد على ذيوعه بعض الشيء بين جمهور الكبار في السن والمتعلمين"، وبذلك وجد سلوى روحية جديدة. وهو لم يناجز قط الكنيسة التي استقر نفوذها. وعندما ندد بقسوتها في صدد التعلق بالدنيويات — وذلك يحدث أحياناً— تكلم على أنه رجل خارج عن نطاقها وليس في الواقع رجلاً يناصبها العداء. وقد فقد — بعد وفاة امرأته وبعد هرب ولده — كل ما تبقى عنده من ميل إلى التفكير. ثم إن تجاريب السنين جنحت به إلى أن يتقبل تجاريب القرون وإلى يتابع الأغلبية في تقاليدها. أجل. شيخوخة موقرة هادئة وقليلون هم الذين نقموا عليه ذلك. وكان له — بطبيعة الحال — خصوم زعموا أنهم فهموه وأن آدم فهمه كذلك. ولكن هذا الرأي لم يحظ بموافقة اي ناقد منصف، لأن السير ميخائيل لم يجنح به قط دافع مستتر، ثم إن صفاء سجل أعماله لم يكن وليد المصادفة بل كان وليد صفاء نفسه، كما أن ميله غلى المسالمة مرده إلى سلام روحه. فلقد كان في مقدوره أن يفكر في كل ما ألم به خيبة أو خطأ وهو يذكر أنه لم يتح له إنجاز المثل العليا التي كان يستهدفها في صباه. ومن ذا الذي استطاع أن يفعل ذلك؟ على أن بن معظم الرجال في تكييف تلك المثل بحيث تساير دنيا الواقع. ولئن كان الحب قد حول إلى عطف، والعطف إلى تراض فليتقدم أحد أترابه ويرمي أول حجر.

بقيت حقيقة واحدة هي الموت. إلى ذلك الوقت لم يمت السير ميخائيل قط. ولقد كان أحياناً يخاف الموت خوفاً بهيمياً. غير أن الموت كان يلوح له في أغلب الأحيان وكأنه امتداد لعمله الراهن. وكان يرى نفسه وهو ينشئ في هدوء ولباقة— تساعده امرأته — وكنا في اللانهائية. ولسوف تحظي جانيت بتحسن عظيم.. رأى نفسه يتنقل من عالم كان له فيه اقتدار إلى عالم جمع بين السرمدي والمألوف، عالم يكون له فيه مثل ذلك الاقتدار، عالم يتنقل إليه في وقار من دون أن يتألم، ليست هذه الحياة سوى تمهيد للحياة التالية، وعلى هذا فالذين تزداد حياتهم امتداداً يصبحون أتم استعداداً. فالتجربة هي المعلم العظيم.. وطوبي للمحنكين لأنهم ليسوا في حاجة إلى تعديل مثلهم العليا.

وقد جاء موته على النحو الاتي: وقع له — هو أيضاً — حادث: كان يمشي من بيته في

البلدة إلى بيت كترين بطريقة مختصرة عبر حي قذر وبئ، وكان بعض النسوة يتعاركن من أجل سمكة، فلما مر بهن اختصمن إليه، ولما كان الشيخ دائماً المجاملة توقف وقال إنه ليس لديه من المعلومات وما يكفي للفصل في الموضوع، وأشار عليهن بأن يطرحن السمكة جانباً، أربعاً وعشرين ساعة. واتفق أن يضايقهن هذا وأربى غضبهم منه على غضبهن من بعضهن البعض، واتهمته بـ "خداعهن" وبـ "التحايل عليهن"، فقالت من يزنهن قبحاً بسبب سكرها:" انظرن هل يستطيع أن يتحايل علي هذى"، وصفعته بالسمكة على وجهه فجرّ مغشيا عليه. عندما أفاق ألقي نفسه راقداً في فراشه مع إحدى نوبات صداعه.

وقد استطاع أن يسمع صوت كترين وقد ضايقته. ولئن لم يفتح عينيه فإنه قضى بألا يفتحهما، وليس من سبب غير هذا.

وقال صوت هنري:" هو على هذه الصورة منذ سنتين تقريب".

حدث هذا – على أكبر تقدير – بعد عشر دقائق من وقوعه في الحي القدر الوبيء. وقد اختار ألا يجادل.

وقال ثالث وهو الواقع صوت آدم" لقد أصبح عديم النفع" ولكن كيف ومتى عاد آدم؟" على أنه كان هكذا في السنوات الثلاثين الأخيرة".

فقال هنري:" رويدك أيها الصبي الكبير".

قال أدم آجل وانه لكذلك ... إنني لا أؤمن بما يقوله الناس.

إنه–منذ وفاة والدتي بل قبلها بفترة قصيرة ملعونة – لم يصنع قط شيئاً ولقد نسوا كتبه لأنها ليست مبتكرة. وهم يعيدون ترتيب صناديق المعروضات التي سبق له ترتيبها في المتحف البريطاني. وهذا قصارى أمره. وما الذي فعله غير هذا اللهم إلا نصحه الناس بأن يستدفئوا في ملبسهم على ألا يبالغوا في الاستدفاء؟".

" آدم، يجب عليك حقاً ألا – ".

" بما أن أحد لا يرفع صوته بالنقد الصريح فإن رجالاً من شاكلة الشيخ يذيع صيتهم، وهذا من علامات مدينتكم القذرة. أنتم جميعاً تخافون، تخافون الابتداع، تخافون الك، تخافون أن تجرحوا شعور بعضكم البعض. إنكم تسمحون لأمري لأي امرئ لا يؤذيكم أن يرتفع إلى

القمة، وتنسونه بموته، ثم تستبدلون به علماً آخر من بين من لا يستأهلون".

قال صوت مجهول:" مخجل يا مستر آدم، مخجل. أننال من شيخ كهذا عزيز وذائع الصيت كذلك؟".

" ستعادين على عما قريب أيتها الممرضة".

وضحكت الممرضة.

قالت كترين بعد تريث:" من الفرج وجودك معي يا آدم، فأنا أريدك وولدك على أن تساعدني على ولدى". وبدا صوتها أكثر كلالا، وانثنت عن أبيها دون كلمة توديع." على المرء أن يفيد من أخطاء الآخرين ... مزيد من الشجاعة على كل حال ... إني أعتزم أن أظل على صلة بولدي —". قال آدم:" اجلديه، وهذا هو السر، وتبع أخته خارج الغرفة.

ثم رنت ضحكة هنري المبهجة آخر مرة وقال:" أنت تجعلنا جميعاً نشعر بأننا صغرنا عشرين سنة ولاسيما عندما —".

وأوصد الباب.

شعر السيد ميخائيل بالبرد من شدة الغضب، إذ هكذا كانت الحياة وهكذا كان رأي الجيل الأصغر سناً. نعم إنه كان يتجاهل آدم غير أنه عندما تذكر هنري وكترين أزمع الموت. ولقد كان من الجائز أن ينهض من فراشه وأن يطرد الزمرة جميعاً إلى الشارع لو أنه اختار ذلك، ولكنه لم يختره، وإنما آثر أن يزايل هذه الدنيا العاقة المهلهلة. غلبت عليه آخر الأمر، السخرية التي تفوق البشر والتي تكمن فينا جميعاً، وبدلت أحواله. فرأى سخافة الحب، ودغدغته الرؤية إلى حد أنه أخذ يضحك. وانثنت عليه الممرضة—التي كانت تلقبه بالشيخ العزيز. وفى اللحظة ذاتها دخل صبيان غرفة المريض.

واستفهم أحدهم وهو ابن كترين"كيف حال جدي؟"

وأجابت الممرضة" ليس على ما يرام تماما".

وكان سكون. ثم قال ثاني الصبيين" هيا فلنفلت"

"ولكنهم نبهونا إلى ألا نفعل هذا".

"لماذا نعمل برأي الشيوخ والعجائز؟ إن أبي جد متعب وكذلك والدتك".

فقالت الممرضة" مخجل. انطلقا كلاكما". وفي شيء من ترنم الإعجاب تبع ولد كترين ابن خاله إلى خارج الغرفة. وزاد طرب جدهما وتدحرج في مناحي فراشه. وفيما هو آخذ في إدراك مدى ما في الموقف من سخرية مات وهو يتابعها إلى المجهول.

-٣-

كان ميكي ما يزال في فراشه. وقد تنبه إلى كثير من الأمور بسبب أحلام طويلة كئيبة. غير أنه عندما فتح فاه ليضحك ملأه التراب. ولما اختار أن يفتح عينيه ألقى نفسه وقد انتفخ انتفاخاً شديداً ورقد في رمل سهل منبسط لا حد له، على أنه —كما توقع — لم توات الفرصة ليحور مثله العليا تحويراً بعيد المدي.

فلقد حلت اللانهائية محل غرفة نومه ومحل لندن. ولم يتحرك على سطحها شيء ما اللهم إلا أعمدة رمل قليلة تتسامر أحياناً فيندمج بعضها في البعض ثم تسقط في هسهسة خافتة. وفيا خلا هذا فلا حركة ولا ضوضاء كما أنه لم يكن في مقدوره أن يحس بأية ريح.

كم من الزمن رقد هنا؟ ربما يكون قد رقد أعواماً، وربما يكون قد رقد قبل موته بزمن مديد، بينما كان يلوح أن جسد، يمشى بين الناس. والحياة قصيرة تلفها إلى حد أن أحداً لا يعرف هل نحن نقبل عليها بكليتنا وهل يوقظ قبس من الروح ليكسوه اللحم؟ إن البرعم والنوار يهلكان في لحظة. أما خباء الثمرة"قشرها" فيدوم. أفلا يصح أن يكون الروح خباء؟ لقد لاح لميكي أنه راقد في التراب إلى الأبد وهو يتألم ويستهزئ وأن خلاصة كل شيء ليست إلا خرفاً ... لقد شاخ وأمسي أدرد "بلا أسنان" وبلغ سن الاستسقاء "[1]" وأضحى بخيلا على العمر وعلى الشباب .... لقد ولد قبل بدء أعمار الجميع وعاش بعد نهايتها حتى أصبح يطاول الكون عمراً.

وفيما كان يتعذب انحط مقام المكان في عينيه، كان المكان شاسعاً ولكنه كريه مع ذلك. ولقد مال منحدراً في الظلام ومصعداً في السحاب. ولكن أي ظلام وأي سحاب! ليس هناك

---

[1] الاستسقاء في الطب تجمع السوائل مصلية في تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد أو في خلاياه.

من جلال فاجع يمجدها. ولقد أدرك سبب تعاسته عندما رنا إليها، إذ كانا ينظران إليه، ويسخران منه فيما كان يستهزئ. وكان قدرهما أقدم من تقلب الليل والنهار كما كان تحكمهما أعمق. على أنه كان جزءاً من دعابتهما حتى عندما كان الشباب يكون جزءاً منه. وأدرك رويداً رويداً أنه نزيل جهنم وأنه هبطها منذ سنوات.

وكانت ترقد حواليه من كل ناحية أشكال أخري ضخمة إسفنجية. ولاح كأن الوادي تكسوه الفرح. وكان في وسع بعضهم أن يجلس بينما البعض لا يكاد ينتأ من الرمل. وقد علم أنهم ارتكبوا في حياتهم مثل الغلطة التي ارتكبها هو وإن لم يعرف بعدما هي. وربما كانت هفوة مما يسهل اجتنابه، لو نبه أحدهم المرء إلى اجتنابها.

كان الكلام مسموحاً به، وفى تلك اللحظة قال صوت" أليست سماؤنا علوية؟ وألست جميلة؟".

فأجاب ميكي وهو يحسب كل كلمة طعنة ألم:" بالغة الجمال". وإذ ذاك علم أن أحد الآثام التي يعاقب عليها هنا هو التقدير. فكان يشقى هنا عقاباً له على كل أنواع الثناء التي أزجاها إلى المتخلفين والعاديين في الدنيا. وحينما امتدح بدافع الكسل أو رغبة في إدخال السرور على الناس أو تشجيعهم، لكل أنواع الثناء التي لم تزيدها العاطفة، وأعاد قوله" بالغ الجمال". وهنا رجفت السماء إذ كان الآن مقبلا على عذاب أشد. ولم يتخلف لديه من السعادة إلا شعاعه واحدة وهي أن امرأته لا يمكن أن تكون في ذلك المكان. ذلك لأنها لم تأثم مع أهل الوادي ولا محل لأن تتحمل نتائج انحرافهم. وقد وضح آخر الأمر أن نظرتها إلى الحياة كانت صائبة وكان ذلك سلواة في تعاسته المطبقة. وسوف تكون جانيت بعد الآن الدين الذي يدين به. فإذا تحركت الأبدية متثاقلة إلى أمام ورجعت أدرجها وتحركت متثاقلة إلى أمام فستريه أن الشيخوخة – إذا حسنت قيادتها – يمكن أن تكون جميلة وأن التجربة إذا فهمت على وجهها الصحيح يمكن أن ترشد روح الناس إلى النعيم. ثم استدار نحو جاره الذي كان يتلو نشيد الحمد.

وكان يقول:" يسعني الرقاد هنا إلى ما لا نهاية. فأنا عندما أفكر في القلق الذي انتابني طوال حياتي – أي طوال ما يسميه الناس خطأ بالحياة، وما هو في الحقيقة غير الموت ... أما الحياة فهي هذي – عندما أفكر في قلقي في الدنيا يتملك مشاعري فيض من الإحسان

والرحمة. لهذا يسعني الرقاد هنا إلى ما لا نهاية".

فاستفهم ميكي:" أو فاعل أنت هذا؟".

"آه، هذا لعمري أتم النعمة، أجل سأفعل، وستفعل أنت أيضاً".

وهنا فات بينهما عمود من رمل، ومر وقت طويل قبل أن يستطيعا الكلام أو الرؤية. وهنا عمد ميكي إلى ترتيل الأغنية التي هاجتها الذرات التي كانت تعتمل في فؤاده.

" وأنا كذلك أبكي ساعاتي المضيعة ولا سيما ساعات الشباب. أبكي الوقت الذي قضيته في الشمس جميعه. ولقد ندمت فعلا بعد ذلك، وهذا هو سبب قبولي هنا حيث لا شمس ولا ريح ولا نجم من النجوم التي دفعت بي يوماً إلى الجنون، وأنه ليكون من المروع – أليس كذلك؟ – أن أري من جديد الجوزاء "أوري وين" التي ليست نجمة سيفه الوسطي نجمة من النجوم، وإنما سديماً مضيئاً، هو البذرة الذهبية للدنا "جمع دنيا" التي ستتكون. ولكم كنت أخاف الخريف كلما علت الجوزاء لأنها كانت تذكرني بالمغامرة وبشبابي. هذا مروع. وأني لأحمد إلى نفسي عدم رؤيتي إياه – بعد – حمداً لا يقف عند حد".

وصاح الآخر قائلا" غير أن الأسوأ من ذلك كان أن أنظر إلى أعلى على يسار الجوزاء وأن أري التوأمين "ذي توينز". لقد كان كستور "[1]" ورأس هرقل "بولكس" أخوين، أحدهما آدمي والثاني إلهي. ومات كستور. أما رأس هرقل فقد جهنما لعله يكون رفقته".

"إنه كذلك، فقد ذهب رأس هرقل إلى جهنم".

" ثم رثت الآلهة لهما ورفعتهما إلى الأعال ليسيما نجمين يعبدهما الملاحون وكل المحبين والشباب. وكان زيوس "[2]" أباهما، وكانت هيلين "[3]" أختهما التي جاءت بالإغريق ضد طروادة. لقد خشيتهما أكثر مما أكثر خشيت الجوزاء".

وسكتا يرقبان سماءهما. ووافقت السماء. ولقد كانا في الأرض رجلين مهذبين مثقفين في وسعهما أن يحتملا الأخف من ألوان العذاب في الحياة الأخرى. وإن كرهما لتشكل صوراً

(١) كستور ابنة "جويبتر" و "ليدا" وتوأم رأس هرقل.

(٢) زيوس رب الأرباب عند قدماء الإغريق.

(٣) هيلين أميرة أفريقية اشتهرت بجمالها وهي أبنة ليدا وأخت كنور ورأس هرقل.

شائقة تزيد من ألمهما. وقال ميكي لنفسه" لن أزيد في الكلام بل سأصمت مدي الأبدية" ولكن الظلام أرغمه على فتح شفتيه، وأخذ يتكلم من فوره.

وسأل:" زدني علماً بمقام النعيم هذا، هل فيه درجات؟ وهل في سمائنا مراتب؟".

فأجاب الآخر:" هناك سماء الخشنين وسماء الناعمين، ونحن نرقد هنا في سماء الناعمين. وهذا يفي بالغرض، لأن الناس جميعاً إذ يكبرون يصبرون إما خشنين وإما ناعمين".

ولم يكد ميكي يتكلم حتى تقشعت السحب. فلما رفع بصره إلى أعالي منحدر الوادي رأي أنه يحيط به عن بعد – جبال حجرية. وعرف – من دون أن يخبره أحد أن جانيت ترقد متصلبة بين تلك الجبال وأنه لن يراها أبداً وأن الخلاص لم يكتب لها وأن الظلام أيضاً يسخر منها أبد الآبدين .... وكان الذين يرقدون معه هم العاطفيون والمسالمون ودعاة السلام والإنسانية وكل من غلبت عليهم الأخيلة الحادة. أما الذين يرقدون مع امرأته فهم دعاة الإصلاح والنساك وذوو النفوس التي تشبه السيف. ورأى ميكي الآن ما كانت تخفيه ضوضاء الحياة وأنه لا معدي للسنين عن أن تذيب المرء أو أن تزيده صلابة وأن كلا من "الحب" و "الحق" – اللذين يبدوا أنهما يناضلان كالملائكة في سبيل أرواحنا – يحمل بذور فنائنا.

وقال:" ولا شك في أن هذا ناموس يفي بالغرض، فكلاهما واف بسيط. ولكن أجبني عن سؤال آخر واحد يكتمل نعيمي: أي هذين السماءين يؤدى إلى الشباب؟".

فأجاب جاره" لا هذا ولا ذاك، إذ لا وجود للشباب".

ولم يزد في الكلام، بل استقر في التراب أكثر عمقاً. وكذلك فعل ميكي.

ومرت بخاطره ذكريات مبهمة عن رجال ونساء ماتوا قبل سن الرشد وعن صبية وفتيات لم تزف وشباب أنزلوا إلى القبر تحت أبصار والديهم. فأين ذهبت تلك الأقلية التي لم تنضج؟ وما كان يقصد بحياتهم القصيرة؟ وهل تلاشوا نهائيا أم أتيحت لهم فرصة أخري للاستزادة من التجارب حتى يصبحوا مثل جانيت أو مثله؟ هناك شيء واحد مؤكد: لا وجود للشباب في الجبال ولا في السهل. وربما كانت ذكريات مخلوقات كتلك هي في ذاتها خيال يغذيه السحاب.

وإذ ذاك نضج الوقت لاستعراض حياته على الأرض، فترسم تحلله: كان عمله لطيفاً وكتبه لطيفه وعلاقاته بغيره من الناس كذلك لطيفة. وكان يري الخير في كل شيء، وهذا في ذاته دليل

الفناء. ثم أنه – مهما حدث من أمر –كان مقدراً لكل الناس متسامحاً لين العريكة، ولهذا لازمة التوفيق ... ولقد صدق آدم إذ كانت تلك الحقبة هي حقبة المدنية التي تصلح لهذا النوع من الناس. وقد أخطأ فهم نقد المرء نفسه وعده ترويضاً لها، فأخفى من نفسه ومن الآخرين سيف البطولة الحاد. ومع ذلك حرم نعمة الترفيه عن نفسه بالتوبة. نعم كانت الغلطة غلطته، أما المصير فغلطة الإنسانية لأن كل إنسان – يتقدمه في السن – يصبح صلباً أو ليناً.

وفكر ميكي:" تلك حياتي، وقد خيم النسيان على كتبي وعفت أعمالي. هذا هو جماع حياتي".

ثم ازدادت كربته، لأن تلك الحياة كانت فيها – مع ذلك – بهجة رواغة لو أنه ستقطرها لجاز أن تفيض حلاوة على الأبدية.

وكان من بعض الدعابة أن يحاول وأن يترجح أبداً بين النفور والرغبة، ذلك لأن الجحيم ليس فيه شيء نهائي" ولن يتخلى الناس – لدى دخوله – عن كل أمل وإلا لتمتعوا براحة اليأس، على أن نظم قصيدة عن الجحيم خطأ بالنسبة لحقيقتها. وما تصويرها كالثلج أو اللهب إلا وليد خيال الناس يتعشقون الجمال .... ورقد ميكي – وهو الشيخ الذي يجوز أن يصبح أكثر شيخوخة – في ذاك الصقع الرملي يتذكر أنه في ذات يوم قد تذكر صقعاً غير رملي .... وأيقظته دمدمة الأرواح من حوله. ولاح شيء يضطرب لم يلاحظه معها قبل

فقال أحدهم" عمود رمل" وقال آخر "ما هو كذلك لأن مصدر النهر".

فاستفهم "أي نهر؟".

"أرواح الملعونين تقطن فوقه، ونحن لا نتكلم مطلقاً عن هذا النهر".

"أعريض هو؟".

"شديد السرعة واسع العرض".

"أو يعبره الملعونون إطلاقاً؟".

"أنهم في حل من أن يعبروه بين الحين والحين، ولسنا نعرف السبب".

ووجد في هذه الإجابات نغمة جديدة كما لو كان رفاقه قد ارتاعوا وتيحت لهم وسيلة التعبير عن ارتياعهم. وعندما قال" بعد الاستئذان ليس في مقدورهم أن يلحقوا بنا أي أذى"

أجابوه بقولهم" إنهم يؤذوننا بالضوء وبإحدى الأغنيات" وبقولهم" يؤذوننا لأنهم يتذكرون ويحاولون أن يحملونا على التفكير".

" وما الذي يحملوننا على تذكره".

"على الساعة التي فيها كنا مثلهم".

وفيما كان يستفهم سمع همس من المناطق المتاخمة تحتهم. وكانت الأرواح تتصايح تصايحاً خافتاً. وسمعهم يقولون" إنه آت، اطردوه وأعيده على عقبه إلى النهر، حطموه، ألزموه بأن يصير شيخاً".

ثم انشق الظلام، وتحطم في روحه نجم من نجوم الألم. والآن فهم، فلقد أتاه عذاب يتضاءل إلى جانبه كل عذاب".

وجاءت الأغنية" وجدت قبل أن يكون لي حق الاختيار، وجدت قبل أن تنفصل الخشونة عن النعومة، وجدت في الأيام التي كان الحق هو الحب، وما أزال موجوداً".

وارتج السهل جميعاً. غير أنه لم يكن في الوسع تحطيم الغازي. إذ عندما هجم هو تفرق الهواء وسقطت أعمدة الرمل وغص دربها ببكاء الشيخوخة.

" كنت أنا الناس قاطبة. ولكن الناس قاطبة نسوني. وقد بدلت من أجلهم الدنيا تبديلاً جعلهم يؤرثونها. وجاءوني أطفالاً خائفين. ولما علمتهم استخفوا بي على أن الطفولة رؤيا من حولي، والتجربة نسيان بطيء. وأنا أهيمن على الأعوام السحرية، وما أزال".

وناحت الأشباح قائلة" فيم تقلقوننا! لقد وسعنا أن نطيق عذابنا – إطاقة هي أقصى درجات الاحتمال – حتى ظهر الضوء والأغنية ... عد أدراجك إلى النهر مرة أخري. هذه هي الجنة. لقد كنا نقول إن الظلام هو الله، ولقد تسني لنا أن نسبح بحمدهما حتى وافيت أنت. وقد أقفل كتاب أعمالنا ففيم فتحه؟ واللعنة حلت بنا منذ ولادتنا. فخلها هناك واتركها أيها المهرج الأكبر. نحن أثمنا ونعلم ذلك. وهذا المكان هو الموت والجحيم".

ولعلع الصوت قائلاً "يجئ الموت. وما الموت بحلم أو نسيان. وإنما الموت حقيقة. غير أني – أنا أيضاً–حقيقة وأنا أنقذ من أشاء. وإني لأرى نهج الأشياء وليس بينهما مكان لي، إذ أن العقل والجسد يعادياني. ولهذا أشق النهج شقين وأصطنع لنفسي مكانا. واتخذت أسماء كثيرة

حتى تمكنت من تقويض الجحيم. فإليّ إليّ". ثم استأنف الكلام في نغمة عذوبتها تفوق الوصف" إليّ يا من تتذكرون جميعاً. اخرجوا من أبديتكم وادخلوا أبديتي وهذا ميسور لأني ما زلت في أعينكم في انتظار أن أرى من خلالها وفى قلوبكم في انتظار أن أخفق. والأعوام التي قضيتها وإياكم تبدو قصيرة، غير أنها كانت سحرية، وإنها لتسبق الزمن".

وصمتت الأشباح إذ لم يكن في مقدورها أن تتذكر.

" من ذا الذي يرغب في أن يتذكر؟ الرغبة تكفي، وليس للقوة والجمال بين الرجال مُقام. إن الزهرة لتذبل، وإن البحار لتجف في الشمس، وإن الشمس والنجوم جميعاً لتذبل كما تذبل الزهرة. أما الرغبة في أمور كهذي فسرمدية تستطيع أن تثوي. وكل من يرغب فيَّ فهو منيّ".

ثم مات ميكي ميتة ثانية، وفى هذه المرة ذاب من ألم مبرح يلفح الوهج ويخزه الصوت. غير أنه قال وهو يموت" لي رغبة أكيدة" وفى الحال تلاشي الغازي. وكان واقفاً وحده في السهل الرملي. ولم يكن الأمر إلا حلماً. ولكن ميكي كان واقفاً. فكيف كان ذلك؟ ولماذا لم يفكر قبلاً في الوقوف؟ كان تعساً في جهنم وكان كل ما ينبغي له عمله أن يزايلها إلى مكان آخر ... فانتقل إلى أسفل وهناك لم يعد سحاب جهنم يسخر منه. ومسته الأعمدة ثم قطت. ومر الظلام السفلى فوق رأسه. وجدَّ في السير حتى بلغ شاطئ الغدير الجهنمي. وهنا زلت قدمه وسقط على قطعة من خشب. ولم تكن تلك من المواد المبهمة وإنما قطعة من خشب كانت يوماً جزءاً من شجرة .... لم يكد يصطدم بها حتى تحركت وبقبق دونها الماء. هبط السفينة وكان أحدهم يجدف. وقد تسني له أن يري من خلال الزبد صفحتي المجدافين توجهانه إلا أن المجدف نفسه سترته السحب. وعندما بلغ منتصف البو غاز تباطأ القارب في سيره لأن التيار بدأ يتعرض للجزر، وعلم ميكي أنه لن يكاد يحمل إلى عرض البحر حتى يضيع هباء، إذ لم يكن هناك أمل في خلاص ثان. ولم يستطع الكلام وإنما كان قلبه يخفق مع دقات الجدافين: واحد، اثنان، ...... لقد بذلت جهنم ما وسعها من جهد في خلق الشر. وجاء ما يهتا جنا — مما في الحب والحق من تحريف وحقيقة — جاء كل هذا في أسفل المصب وتدلى القارب دون أن يتحرك. وسمع ميكي لهث التنفس من خلال القصف كما سمع قعقعة العضل. ثم سمع صوتاً يقول" بيت القصيد...." وسقط شيء ثقيل بعيداً عن جسده وعبر منتصف البو غاز.

وكان هذا مساء مجيداً وأسرع القارب — دون تمهيد — ودخل في ضوء الشمس. وكانت

السماء صافية، والأرض ذهباً، والنورس يعلو ويهبط فوق الماء الخدد، على أنه عند الشاطئ طار إلى حيث ترتفع بعض كثبان الرمل إلى تلال فخمة. وكانت على الشاطئ المقابل ضيعة أحاط سرادق اللهب بها جميعاً".

التناسق

قالت مس هادون" لا تخبطي. ويجب أن يكون كل إيقاع معزوفة متناسقاً كعقد اللؤلؤ، وليس حالك كذلك مع أنه لا يحول بينك وبين هذا الشيء".

"إللن، يا أيتها الداية: "نوتتي" الموسيقية عندك".

"فلمن النوتة إذن؟".

وفتشت هادون بين الملفات وقالت جازمة" إنها نوتة ملدريد. عودي إلى غرف الفاصلة المزدوجة ولا تخبطي".

ورجعت البنات. وعادت الإصبع الصغيرة من يد ملدريد اليمني تعارك الإصبع الصغيرة من يد إللن على المقام الأوسط.

ثم قالتا" لا يمكن عزفها، والرجل هو الذي أخطأ التدوين".

وقالت الآنسة هادون" يمكنك يا إاللن أن تؤدى في سهولة إذا لم يطل عزفك إلى مثل هذا الحد".

ودقت الساعة الرابعة. وذهبت ملدريد وإللن وحل محلهما روز وإيند وكان أداؤهما للمعزوفة أسوأ من أداء ملدريد وأقل سوءاً من أداء إللن.

وفى الرابعة والربع جاءت مارجريت مجين وكان أداؤهما أسوأ من أداء روز وإيند وأقل سوءاً من أداء إللن. وفى الرابعة والنصف جاءت دو لوريس وفيوليت وكان أداؤهما أسوأ من أداء إللن. وفى الخامسة إلا ربعاً مس هادون لتناول الشاي مع المديرة التي أبانت عن سبب رغبتها في أن تحفظ تلميذاتها جميعاً المعزوفة الثنائية — الأداء نفسها، إذ أنها جزء من طريقتها في التنسيق. وقد اختارت المدرسة لهذا العام مبحثاً واحداً — واحداً ليس غير — وهو نابليون، على أن تكون الدراسات كلها متصلة بموضوعية. وعلى هذا الأساس كانت الطالبات تدرسن في مقرر النصوص — فيما عدا اللسان الفرنسي والتاريخ — الشعر السياسي ل "ورد زورث"، وفى

الأدب تطالعن مقتطفات من "الحرب والسلام" "[١]"، وفى الرسم تنقلن شيئاً عن دافيد وفى أشغال الإبرة "تصممن" أثواباً إمبراطورية الطراز "أمبير" أما فرقة الموسيقي فتتمرن – بطبيعة الحال – على سمفونية "[٢]" إيرويكا لبتهوفن "[٣]" التي بدأ في تلحينها تكريماً للإمبراطور "وإن لم يتمها" ، وهتف عدد من المدرسات – وكن يتناولن الشاي – بهوايتهن التناسق وأثنين على تلك الطريقة فالتناسق يزيدهن – كما يزيد التلميذات – حباً في العمل. غير أن مس هادون لم تجب إذ لم يحدث في يومها تناسق ولم يكن في مقدورها فهم السبب. وكان قصارى علمها أنها آخذة في الكبر وأن تدريسها الموسيقي يسوء باطراد وأنها تساءل نفسها متى تكشف المديرة هذه الحقيقة وتخليها من العمل.

وفى غضون ذلك الوقت كان بتهوفن في أعلى عليين يجلس تحفّ به كتبته وقد صفوا – فوق سحب أصغر – كل عند رتبته. وكان كل منهم يدون في دفتر من دفاتر الحسابات الجارية. أما الذي وضع على دفتر حساباته عنوان "سمفونية إيرويكا" وهي تلك التي نظم كارل مولر عزفها من أربع أياد – أما هذا فكان يدون الملاحظات الآتية: –الساعة ٣,٤٥ ملدريد وإللن وقادت الفرقة مس هادون – ٤ روز وإيند وقادت الفرقة مس هادون – ٤,١٥ مارجريت وجين وقادت الفرقة مس هادون – ٤,٣٠ ...".

وقاطع بتهوفن مستفهماً:" ومن تكون مس هادون تلك التي تواتر اسمها كدق الطبلة؟".

" فسرتك وشرحتك سنوات طوالا".

"وفرقتها الموسيقية؟".

" صبيات من صفوة الطبقة الوسطى يؤدين الإيرويكا في حضرتها طوال النهار من كل يوم. ونغمها لا ينقطع أبداً وهو يهفو من خارج النافذة كبخور مقيم الشذى ويطرق في الشارع آذان الرائحين والغاديين".

"وهل يؤدين بإدراك حسن؟".

---

(١) الحرب والسلام قصة كبيرة لتولستوى تبين كيف غزا نابليون روسيا وباء بهزيمة نكراء.

(٢) يلاحظ في السمفونية اتساق الأصوات وتآلفها مع الوحدة الكاملة.

(٣) بتهوفن موسيقار ألماني كبير(١٧٧٠–١٨٢٧).

ولما كان بتهوفن أصم استطاع الكاتب أن يجيب بقوله:" بإدراك قلبيّ بالغ. ولقد كانت إللن في وقت ما أبعد عن روحك من الأخريات، غير أن حالها لم تصبح كذلك منذ وصلت دو لوريس وفيوليت".

" ألهمتها الرفيقات الجديدات، كما فهمت".

وصمت الكاتب.

واستأنف بتهوفن الكلام قائلا:" أوافق. وآية ذلك أنني أصدر مرسوماً بأن تسمع مس هادون — وأفراد فرقتها وكل من في بيتهن — في هذه الليلة أداء متقناً لمقامتي الراعية الصغرى".

وفيما كان المرسوم يدون وفيما كان الموظفون يتساءلون عن كيفية تنفيذه أخذ مشهد آخر أبهى رواه — يجرى في مكان آخر من عليين. هنالك جلس نابليون يحف به كتبته الذين أربى بهم العدد إلى درجة أن عروس الفضاء الأقصى لم تكن — في ظاهر الأمر — لتفوق في حجمها سحباً صغيرة معلمة "مخططة" كأنها جلد النمر. وكانوا منهمكين في قيد كل ما أومئ به في الدنيا لحساب مخدومهم، وذلك عمل سبق له تدريبهم عليه بنفسه وكان —كلما انقضت بضع لحظات يسألهم " وما آخر دور لنا؟".

فما كان من الكاتب الذي عنوان سجله "احترامات وردزورث" إلا أن أجاب بقوله" الساعة ٥، ملدريد وإللن وروز وإيند ومارجريت وجين تلين جميعاً القصيدة "المكونة من ١٤ بيتا" المعروفة ب "لقد ملكت في يوم ما الشرق البديع". أما دو لوريس وفيوليت فقد حاولتا أن تتلواها ولكنهما أخفقتا".

قال الإمبراطور:" في تلك القصيدة يمجد الشاعر إخضاعي جمهورية فينيسيا، وقد غلبت عظمة الموضوع مشاعر فيوليت ودو لوريس. ولقد كان إخفاقهما أمراً طبيعياً .... والدور الذي يتلو ذاك؟".

قال كاتب أخر الساعة ٥,١٥ ملدريد وإللن وروز وإيند ومارجريت وجين يخططن رسما للرجل اليسرى الأمامية لمضجع بولين بونابرت "[١]" أما دو لوريس وفيوليت فما زالتا تحفظان

---

[١] بولين شقيقة نابليون بونابرت (١٧٨٥– ١٨٢٥) ولدت في أجا كسيو بكورسيكا، تزوجت الجنرال كارك، وبعد وفاته تزوجت كمي بور جيزي وصارت دوقة جراستالا.

القصيدة".

فقال نابليون:" يخيل إلى أن سيق لي سماع هذه الأسماء الفاتنة".

وقال كاتب ثالث:" أسماؤهن مقيدة في سجلي كذلك. ولك أن تتذكر يا مولاي أنهن أدين—منذ ساعة أو نحوها — إيرويكا لبتهوفن —".

وأتم الإمبراطور الحديث قائلا:" إيرويكا التي كتبت تكريماً لي.

موافق".

وقال كاتب رابع" في الساعة ٥,٣٠ تغنى المرسييز "١" كل الجماعة باستثناء دو لوريس وفيوليت اللتين أرسلتا لتبريا قلميهما الرصاصين".

فصاح نابليون وقد وقف على قدميه" لم يكن يعوزني إلا هذا. وعند أولئك الأوانس طموح حقيقي نحو المجد. وأبي — مكافأة لهن — أصدر مرسوما بأن تشاركن — في صباح الغد — مع كل من في بيتهن في انتصار أوستر ليتز "٢"

وقيد المرسوم.

وخصص منتصف الثامنة للاستعداد للأمسية. واستقرت الفتيات في اكتئاب لأن النظام الجديد أضجرهن حتى كادت تنهمر دموعهن. غير أنه حدث شيء عجيب: مرت بالمدرسة فرقة من الخيالة تتقدمها فرقة موسيقية من أقدر الفرق عزفا. فملأ الفرح رؤوسهن حتى أفقدهن الوعي، فزايلن مقاعدهن وغنين وتقدمن ورقصن وقفزن وصنعن من الورق أبواقاً واتخذنَ من السبورة السوداء نقارية "طبلة صغيرة". وقد أمكنهن صنع هذا لأن مس هادون — التي كان من واجبها أن تستمر في الإشراف — قد زايلت الغرفة لتأتي لهن بشجرة نسب ماري لويز "٣" إذ أن مدرسة التاريخ طلبت إليها أن تستحضر هذه الشجرة بصفة خاصة وتجهيزها للفتيات

---

(١) المرسييز النشيد الذى ألفه ولحنه في ١٧٩٢ روجيه دي لبل والذي عم حتى النشيد الوطني لفرنسا كلها.

(٢)أوستر ليتز قرية في مورافيا قهر فيها نابليون النمسويين والروس في ٢ من ديسمبر سنة ١٨٠٥ وتسمى معركة الأباطرة الثلاثة وتعد من مفاخر نابليون الحربية.

(٣) ماري لويز ابنة إمبراطور النمسا فرانسوا الثاني تزوجها نابليون سنة ١٨١٠ وبعد وفاته تزوجها الكونت دي نايبورج ثم الكونت دي بميل (١٧٩١ — ١٨٤٧).

ليتفحصنها، ولكنها نسيتها. وفكرت مس هادون وهي تمد يدها إلى الشجرة" ما أنا بنافعة على الإطلاق". وكانت الورقة، مع أوراق أخري، ملقاة تحت محارة حصلت عليها المديرة من سنت هيلين" أنا غبية ومتعبة وعجوز. ليتني مت قبل هذا".

وبعد أن فكرت هكذا رفعت المحارة إلى أذنها بطريقة آلية فلطالما صنع معها مثل ذلك — وهي صغيرة — أبوها، وكان بحاراً".

سمعت البحر. سمعت أول الأمر همساً على طبقات الطين، أو ثرثرة على الصخور أو تكسر أمواج قصيراً مجعداً على الرمل أو هدير موجة طويلاً على الصخر أو أصوات المحيط المتوسط حيث تكدس المياه نفسها كالجبال وتتفرق في الوهاد، أو عندما يسقط الضباب ويعلو البحر ويهبط في رفق، أو عندما تبلغ طراوة الأمواج الكبيرة تغني جميعاً، تبحث عن المرج وترسل إلى بعضها البعض قليلاً من الزبد الأبيض. سمعتها جميعا ولكنها في النهاية سمعت البحر ذاته وعلمت أنه ملك لها إلى الأبد.

قالت المديرة:" مس هادون! مس هادون! كيف تأتي أنك لا تشرفين على الفتيات؟".

فرفعت مس هادن المحارة من فوق أذنها وواجهت رئيستها بعزم مطرد النمو.

واستأنفت المديرة الكلام قائلة:" في وسعي سماع صوت إللن وإن كنا في الطرف الآخر من البيت حتى كدت أحسب أننا في دروس الإلقاء، فأرجوك يا مس هادون أن تضعي مثقلة الورق، تلك، في الحال وتعودي إلى واجباتك".

وأخذت المحارة من يد مدرسة الموسيقي بغية وضعها على رف الورق، ولكن المثل الذي أمامها دفعها إلى أن ترفعها إلى أذنها وإلى أن تصغي هي أيضاً على غرارها.

وسمعت حفيف الشجر في غابة لم تكن من الغابات التي سبقت لها معرفتها ولكن الناس الذين تعرفهم كانوا يتجولون فيها راكبين، ينادي بعضهم بعضاً في رفق مستخدمين الأبواق. وكان الوقت مساء وكانوا يصطادون والحيوانات تخشخش بين الحين والحين، وفى ذات مرة ترامي إلى الأسماع نداء استلفات ومطاردة. إلا أن أصحابها كان ركوبهم هادئاً في أغلب الأحيان. وتغلغلت وإياهم في كل ناحية وإلى الأبد.

وفيما كانت تصغى إلى هذا بإحدى الأذنين أخذت مس هادون تقول في الأخرى ما يلي:

" لن أعود إلى واجباتي، وقد أهملتها منذ جئت إلى هنا. والإهمال مرة أخرى لن يؤثر كثيراً. أنا لست موسيقية. ولقد خدعت التلميذات ووالديهم وخدعتك كذلك. لست موسيقية ولكني انتحلت هذه الصفة لأكسب مالاً. ولست أعلم بما سيحدث لي الآن، ولكن لا قبل لي على الاسترسال في الادعاء. وأنا أعلمك بأني مستقيلة بمجرد أن تنقضي المهلة المحددة بعد هذا الإعلام".

ودهشت المديرة عندما علمت أن مدرسة الموسيقي ليست موسيقية. ولقد استمر صوت "البيانوات" سنوات طوالاً فحسبت أن كل شيء على ما يرام. ولو أن الظروف كانت عادية لأجابت بألفاظ جارحة، ولكنها امرأة مهذبة ثم أن أنين الغابة حداها على أن تجيب بقولها:" ليس الآن يا مس هادون، ولنعد إلى الكلام في الموضوع صباح الغد، والآن أريدك على أن تتفضلي وترقدي في حجرة جلوسي. وسأباشر أنا إعداد الفتيات بدلاً عنك، ووجودي معهن من دواعي راحتي في كل وقت".

وعلى هذا رقدت مس هادون. وفى أثناء نعاسها عاودها روح البحر. وذهبت المديرة – يملأ رأسها أنين الغابة إلى غرفة المذاكرة وسعلت ثلاثاً قبل أن تفتح الباب. وكانت الفتيات جميعاً على مكاتبهم عدا دو لوريس وفيوليت ولكنها إذ ذاك اصطنعت عدم التنبه إلى ذلك. وبعد برهة ذهبت لاستحضار شجرة ماري لويز التي نسيتها. وفى أثناء تغيبها مر الخيالة مرة أخرى.

وفى الصباح قالت مس هادون:" ما زلت راغبة في الذهاب ولكن ليتني تريثت حتى أتحدث إليك. ولقد وصلتني أخبار غير عادية: منذ سنوات طويلة خلت أنقذ والدي رجلاً من الغرق. والآن مات ذلك الرجل وخلف لي كوخاً على شاطئ البحر كما خلف لى نقوداً لمعاشي، فلم أعد في حاجة إلى العمل. ولو أنني انتظرت حتى اليوم لكنت أكثر احتراماً لك. و –".

واحمرت وجنتاها خجلا ثم قالت:" ولنفسي".

فهزتها المديرة بكلتا يديها وقبلتها قائلة:" لقد سرني أنك لم تتريثي • ومقولك بالأمس كان كلمة حق، كان نداءً واضحاً خلال الأجمة وإني لأود أنا أيضاً –" وتوقفت ثم قالت" على أن الخطوة التالية هي منح المدرسة إجازة يوم كامل".

وعلى هذا استدعيت الفتيات، وألقت المديرة خطاباً، وألقت مس هادون خطاباً آ خ،

وأعطتهن عنوان الكوخ ودعتهن إلى زيارتها فيه. وأرسلت روز إلى بائع الحلوى لشراء المثلجات، وإيند إلى الخضري لشراء الفاكهة، وملدريد إلى بائع الأشربة لشراء شراب الليمون، وجين إلى الإصطبلات العامة لاستئجار عربات كبيرة. وركب الجميع في الريف مسافة طويلة جداً ولعبن ألعاباً في غير نظام. فكانت كل واحدة تستخفى ولا أحد يبحث، وكل واحدة تضرب الكرة ولا أحد يرد الضربة، ولم يميز أحد في جانب من يلعب. ولم تحاول مدرسة واحدة إرشاد أحد. وربما حدث أن الواحدة تشترك في لعبتين وفى وقت معا أو أن تكون مع إله الأدغال في ناحية ومع إله الرعاة في ناحية أخري. أما الكلام عن تنسيق الألعاب فلم يذكر قط أو تراه ذكر على سبيل السخرية. مثال ذلك أن إللن عارضته بأغنيته من تأليفها هذا نصها:

" جلس بوبي المسن على فرسه الصغيرة يأكل نصيبه

" من فطيرة عيد الميلاد المحشوة، وأدخل فيها إبهامه

" وسحب برقوقة وهو يقول: ما أروعني من فتي".

وطفقت الفتيات ينشدن هذه الأغنية ثلاث ساعات كاملات دون توقف.

وفى آخر النهار جمعت المديرة كل الحاضرات بحيث أحطن بمس هادون وبها، وبذلك حفّت بها وجوه سعيدة منهوكة، وقد أخذت الشمس تغرب وأخذ التراب الذي أثاره النهار يهبط ... قالت وهي تضحك في شيء من الخجل:" والآن أيتها الفتيات، ألا يبدو أنكن تقدرن طريقتي في التنسيق؟".

فأجبن بقولهن" ما نحن بمقدرات!" و "لا، ليس كثيراً!" وما إلى ذلك واستأنفت المديرة الكلام قائلة:" ينبغي لي أن أعترف بأنني أنا أيضاً لم أعد أؤمن بهذا النهج. وأنا، في الحقيقة، أمقته. ولكنى اضطررت إلى اتباعه لأن هذا النوع من الأشياء يروق وزارة التربية".

وهنا ضحكت المدرسات والفتيات جميعاً وهللن كما ضحكت دو لوريس وفيوليت اللتان خالتا أن مجلس وزارة التربية إن هو إلا لعبة جديدة يشترك فيها كل منهن في دورها.

والآن، من الجائز أن يتبادر إلى الذهن في الحال أن هذا الأمر الشائن لم يغب عن نظر ميفيستوفيل "[١]" فقد بحث في أول فرصة عن كرسي الدنيوية وهو يحمل قرطاساً ملفوفاً بعنوان"

---

(١) ميفيستوفيل رمز الشيطان زاد الناس به معرفة الشاعر الألماني جوته في تمثيلية فاوست

أني أتمم!" ولقي في منتصف طريقه إلى أعلى الملاك روفائيل الذي استفهم منه أسلوبه المؤنس هل يبتغي مساعدته إياه على صورة ما.

فأجاب ميفيستوفيل:" لا، ليس في هذه المرة، وشكراً، إذ أن هذه قضية تشغلني الآن حقاً".

فاقترح كبير الملائكة قائلا:" قد يكون من الخير أن تعرضها علي. وإنه لمما يدعوا إلى الرثاء أن تطير إلى المدي البعيد من دون طائل وقد بؤت بخيبة الأمل في قضيتك السابقة ضد "أيوب".

"أوه، لقد كان شيئاً آخر".

"ثم إن هناك فاوست. وهناك صدر الحكم ضدك في النهاية بصفة قاطعة، وهذا إذا كنت أذكر جيداً".

" أوه، لقد كان ذلك شيئاً آخر تماماً، كلا، فأنا على يقين هذه المرة. وفى مقدوري أن أثبت لك تفاهة العبقرية. فالعظماء يزعمون أن الناس يفهمونهم، وهذا ليس صحيحا كذلك".

قال روفائيل:" إذا وسعك أن تثبت هذا فيكون حقا أن قضية تشغلك إذ أن المفروض في هذا الكون أنه مبني على التناسق وأن المخلوقات جميعا تنسق بعضها والبعض، كل بحسب مقدور".

" اسمع. "التهمة الأولى": يصدر بتهوفن أمره بأن تستمع طائفة معينة من النساء إلى قطعته الرباعية"أ" ولكن بعضهن استمعن إلى فرقة موسيقية والبعض الآخر إلى محارة. "التهمة الثانية": يصدر نابليون أمره بأن تشترك أولئك النساء في انتصار أوستر ليتز. والنتيجة: وصية تتبعها وليمة مدرسية. "التهمة الثالثة": تؤدي النساء سيمفونية بتهوفن. وبما أنه أصم وبما أن في خدمته كتبه غير أمناء فهو يحسبهن مؤديها في إدراك عميق. "التهمة الرابعة": لكي يترك الأثر الطيب في نفوس أعضاء مجلس وزارة التربية تدرس النساء نابليون. وهو مدفوع إلى أن يحسب أنهن يدرسنه دراسة صحيحة. وعندي اتهامات أخري ولكني أكتفي بما فات ... إن العباقرة والرجال العاديين لم يتسقوا قط منذ قتل قابيل هابيل".

وقال روفائيل في عطف:" والأن، ما قضيتك أنت؟".

قال ميفيستوفيل متلعثما:" قضيتي! ما بالك! تلك هي قضيتي".

فصاح الآخر قائلا:" أيها الشيطان الساذج، إيها الروح المخلص وإن يكن جهنمياً، عد إلى الأرض وأذرعها من جديد ذهوباً وجيئة. وذلك، يا ميفيستوفيل لأن هؤلاء الناس قد اتسقوا. لقد تناسقوا عن طريق الينابيع المشتركة للألحان العذبة والنصر".

عروس البحر

باستثناء أشياء قليلة لست أعرف شيئاً أجمل من مفكرتي – عن الجدل في موضوع الاعتقاد بالله – عندما اتخذت سبيلها إلى أسفل مياه البحر الأبيض المتوسط. لقد غطست كأنها قطعة من الإردواز الأسود. ولكنها سرعان ما انفجرت عن أوراق خضراء شاحبة ترتعش في زرقة. ولم تثبت المفكرة على حال: فهي تارة تستخفى وطوراً تتحول قطعة من مطاط سحري يمتدا إلى مالا نهاية، وآنا تعود كتاباً، غير أن هذا الكتاب يفوق في حجمه كتاب المعرفة الشاملة. وقد زادت هيئتها غرابة عندما بلغت القاع ورحبت بها هناك قبضة من رمل مسحوق حجبتها عن الرؤية. غير أنها عادت إلى الظهور جد سليمة – وإن ألمت بها رعدة بسيطة – وقد رقدت على ظهرها محتشمة تعبث بين أورقها – في تملل – أصابع خفية"

قالت عمتي:" آسف كثيراً على أنك لم تنم عملك بالفندق فتصبح حراً تستمتع بالرحلة. ولو أنك فعلت لما حدث هذا إطلاقاً".

وفيما كان راعى الكنيسة يشدو" سيتحول كل ما فيه إلى شيء ثمين عجيب".

قالت أخته" لم ذلك؟ لقد غاص في الماء، أما البحارة فقد ضحك أحدهم بينما انتصب الثاني وشرع في خلع ملابسه دون كلمة تحذير واحدة. فصاح العميد "أمير الآلاي" قائلا:" بحق موسي المطهر، هل جن الفتي؟".

قالت عمتي:" نعم اشكره يا عزيزي ... أريد أن أقول: قل له أنه كريم جداً، ولكن ربما صح أن يؤجل استحضار الكتاب إلى أجل آخر".

فقلت متذمرا:" مهما يكن من أمر فأنا في أشد الحاجة إلى كتابي، إنه يفيدني في المبحث الذي أعده لرسالة الحصول على درجة الزمالة. وإلى أن يحل الأجل الآخر الذي تقولين به لن يبقى من الكتاب الشيء الكثير".

قالت إحدى النساء من تحت شمسيتها:" عندي فكرة: فلنترك هذا الفتى ابن الطبيعة يغطس ابتغاء الكتاب ولنذهب نحن إلى الغار الآخر. وفى وسعنا أن نضعه إما فوق هذه الصخرة

وإما على السلسلة الصخور الداخلة في الغار. وسيكون هو مستعداً عندما نعود".

وبدا أن الفكرة صائبة، فقلت، محسّناً إياها، بأنه قد يحمل بي أن أتخلف أنا أيضاً لتخفيف حمولة السفينة. وعلى هذا أودعنا كلانا خارج الغار الصغير على صخرة كبيرة–أشرقت عليها أشعة الشمس – تحرس مظاهر الانسجام في الداخل في الداخل. ولننعتها بالزرقة وإن غلب عليها الإيحاء بروح النظافة.

فلقد سمت النظافة من مصاف الشئون المنزلية إلى مراتب الأمور العلوية الجليلة.

وقد تجمعت نظافة البحر وأخذت تشع ضوءً متألقاً. وعند الغار الأزرق في كابري أكبر كمية من الماء الأزرق وليس من الأكثر زرقة. وهذا اللون وذاك الروح ورثهما كل كهف في البحر الأبيض يتسنى للشمس أن تضيئه وللبحر أن يفيض عليه.

لم يكد القارب يقلع حتى أدركت إلى أي حد عدمت تبصري عندما توكلت على صخرة منحدرة فوقها رجل مجهول من صقلية. وما هي إلا رجفة ارتجافها حتى دبت فيه الحياة وحتى قبض على ذراعي قائلا:" اذهب إلى نهاية الغار أرك شيئاً جميلاً".

وجعلني أثب من الصخرة إلى الطنف الصخري عبر شدخ من شدوخ البحر يخطف بريقه الأبصار وسحبني بعيداً عن الضوء حتى ألفيتني واقفاً على شاطئ البحر الرملي الطفيف الذي بزغ في الطرف الأقصى كأنه الفيروز المسحوق. وهناك تركني مع ملابسه وعاد في سرعة رشيقة إلى ذروة صخرة الدخول.

ووقف لحظة عارياً في الشمس الساطعة يغض طرفه صوب النقطة التي رقد فيها الكتاب. ثم رسم على صدره علامة الصليب ورفع يده فوق رأسه وغطس.

ولئن كان الكتاب عجباً من العجب فإن الرجل قد فاق كل وصف حتى لكأنه تمثال فضي حي تحت الماء ينبض بالحياة بخلجات مصحوبة بزرقة وخضرة .... شيء بالغ الحكمة يبعث على السعادة. ولكن كان محالاً أن ينزغ من الأعماق وهو يقطر وقد لوحته الشمس قابضاً بأسنانه على المفكرة عن الجدل في موضوع الاعتقاد في الله.

ومن المألوف أن يتطلع المستحمون إلى جزاء. وكان على يقين – مهما أجزلت له من عطاء – أنه يبتغي المزيد. ولقد عفت الجدل في مكان هو على هذا القدر من الروعة والعزلة.

وقد خفف عنى قوله في أسلوب المتحدثين:" في مكان كهذا قد يستطيع المرء أن يري عروس البحر".

فابتهجت به لأنه على هذا المنوال وصل إلى حد الإدلاء بحديث عن المعالم التي تحيط به ... وتركنا معاً في دنيا سحرية بصرف النظر عن الشيء العام الذي يسمونه الواقع ... دنيا زرقاء أرضها البحر، وجدرانها الحجرية وسقفها الحجري ترتعش مع انعكاسات البحر. هنا في هذا المكان لا يطاق من الأشياء إلا ما كان عجباً ... بهذا الروح رددت كلماته:" يستطيع المرء في سهولة أن يري عروس البحر".

وفيما كان يرتدي ملابسه أخذ يرقبني مقتضياً، وكنت أفصل أوراق المفكرة المتلاصقة، بعضها عن بعض.

وقال آخر الأمر:" لعلك قرأت الكتاب الصغير الذي طبع في العام الماضي. ومن ذا الذي كان يظن أن عروس البحر التي عندنا تسر الأجانب؟".

"قرأته فيما بعد. وليس من غير الطبيعي أن تكون بياناته عن عروس البحر ناقصة مع أنه احتوي صورة لتلك المخلوقة الصغيرة – مطبوعة على قالب خشبي – كلما احتوي كلمات أغنيتها".

وأوعزت إليه بأن يدلي إليّ ببيان عنها إذ قبلت له:" هي تخرج الماء الأزرق وتجلس على صخرة المدخل وتضم شعرها بعضه إلى البعض، أليس كذلك؟".

ولقد أدرت أن استدرجه إلى الكلام لأن جده المفاجئ استرعي نظري ولأن في ملاحظته الأخيرة التي حيرتني ما يوحي بالسخرية.

فاستفهم:" هل سبقت لي رؤيتها قط".

"ولكن هل سمعتها تغني؟".

فارتدي سترته وقال وقد عيل صبره:" كيف يتسنى لها أن تغني تحت الماء؟" ومن ذا الذي يستطيع ذلك؟ إنها تحاول أحياناً فلا يخرج منها غير الفقاقيع".

" لعلها تتسلق الصخر".

وعاود الهتاف مغضباً:" وكيف يتسنى لها ذلك؟ لقد بارك القساوسة الهواء فلا تستطيع

تنفسه، لا تستطيع الجلوس عليها.

أما البحر فلا أحد يستطيع أن يباركه لأنه بالغ السعة دائم التغير، ولهذا السبب تعيش في البحر".

ولو أتكلم.

وهنا ظهر على وجهه تعبير وديع. ونظر إليّ كأنما شيء يدور في خلده، وعندما خرج إلى صخرة المدخل تفرس في الزرقة الخارجية ثم عاد إلى الغبش الذي كنا فيه وقال:" لا يري عروس البحر – عادة–إلا صفوة القوم".

لو أعلق، وبعد أن انقضت فترة صمت استأنف الكلام قائلا:" هذا شيء جد غريب، والقساوسة لا يعرفون له تعليلا. ذلك لأنها شريرة بطبيعة الحال، وليس آذاها مقصوراً على الذين يصومون ويذهبون إلى القداس بل يتعداهم حتى إلى أولئك الذين لا يزيدون على كونهم أناساً طيبين في حياتهم اليومية. على أن أحداً من القرية، من بين الجيلين الأخيرين، لم يرها، وهذا ما لا أستغربه. ونحن جميعاً نرسم الصليب على صدورنا قبل دخولنا الماء وإن لم تكن لذلك ضرورة. وكنا نزعم أن يوسف أكثر أمناً على نفسه من غالبية الناس، فلقد أحببناه وأحب منا الكثيرين، ولكن هذا شيء غير أن يكون المرء طيباً".

واستفهمت عمن كان يوسف.

" في تلك السنة بلغت السابعة عشر من عمري وبلغ أخي العشرين وهو أقوى بكثير. وكان ذاك هو العام الذي فيه بدأت وفود الزائرين الذين إليهم يرجع الفضل في الرخاء الوفير وفى إحداث تغييرات كثيرة بالقرية. وأذكر بوجه خاص سيدة إنجليزية من أسرة نبيلة جاءت وألّفت كتاباً عنها، وإليها يرجع تكوين نقابة الإصلاح التي توشك أن تصل بين الفنادق وبين المحطة بسكة حديد جبلية".

فقلت ملاحظاً:" لا تحدثني عن تلك السيدة، هنا في الداخل".

"وفى ذاك اليوم ذهبنا بها وبأصحابها ليشاهدوا الكهوف. وفيما كنا نجدف تحت أجرف "جمع جرف" الجبل بالضبط مددت يدي – كما يصنع المرء – وأمسكت بسرطان مائي "كابوريا" ونزعت مخالبة وقدمته على أنه تحفة، فزجرت السيدات. ولكن سيداً سره هذا الأمر

ومد إليّ يده بنقود. ولما كنت عديم التجربة تمنعت قائلا" بحسي مكافأة سرورك" فغضب مني كل الغضب يوسف–الذي كان يجدف من ورائي – ومد يده إلى ولطمني على صفحة فمي لطمة جعلت إحدى أسناني تجرح شفتي وتدميها. وحاولت أن أرد له اللطمة ولكنه كان أسرع مني حركة، فلما مددت يدي إليه لكمني تحت إبطي لكمة جعلتني أفقد القدرة على التجديف لحظة. وصخبت السيدات أيما صخب. وسمعت فيما بعد أنهن كن يدبرن إبعادي عن أخي وتدريبي لأكون نادلا "جرسونا". ومهما يكن فإن تلك الرغبة لم تتحقق إطلاقاً.

ولما بلغنا الكهف–لا الذي في هذا المكان بل كهفاً آخر كبيراً–أظهر السيد رغبة ملحة في أن يغطس أحدنا وراء قطع النقود التي تلقى في الماء، –وهي رغبة قابلتها السيدات بالرضي ويصدر ذلك عنهن أحياناً–فأبي علينا يوسف، الذي أدرك مدي سرورهم برؤيتنا في الماء، أبي علينا أن نغطس إلا وراء العملات الفضية. فرمي السيد بقطعة من ليرتين.

ولحني أخي – قبل أن يقفز بلحظة – واضعاً يدي على كل مكان الرضة "[1]" باكياً إذ لم أحتملها. فضحك قائلا:" على أية حال أن أري عروس البحر في هذه المرة!". ودخل المساء من دون أن يرسم على صدره علامة الصليب، ولكنه رآها".

وتوقف فجأة عن الحديث وتقبل لفيفة تبغ. ورقبت أنا صخرة المدخل الذهبي والجدران المرتعشة والمياه السحرية التي تنبثق منها الفقاقيع بلا انقطاع. وأخيراً أسقط في الماء رماد لفيفته الساخن وحول رأسه قائلا:" صعد من دون أن يلتقط العملة الفضية". وسحبناه إلى داخل القارب، وكان ضخماً إلى حد بدا معه أنه يملأها، وكان مبتلاً إلى درجة أننا لم نستطع مساعدته في ارتداء ملابسه ... وأنا لم تسبق لي رؤية رجل مبتلا إلى هذا الحد .... وجدّفنا – أنا والسيد– عائدين، وغطيناً يوسف بخيش وأسندناه إلى مؤخر القارب".

فتمتمت قائلا" فهو إذن قد غرق" وظننت أن ذلك كان بيت القصيد. فصاح مغضباً" كلا، لم يكن قد غرق. لقد رأي عروس البحر، وقد قلت لك ذلك".

وأمسكت مرة أخرة عن الكلام.

"وآويناه إلى الفراش وإن لم يكن مريضاً. وجاء الطبيب وتقاضى نقوداً وجاء القس ورشه

([1]) الرضة الدفة وجمعها رضوض.

بالماء المقدس، ولم تنجم عن ذلك أية فائدة. فلقد كان بالغ الضخامة كساحة من البحر. وقبَّل عظام إبهام سان بياجيو التي لم تجف إطلاقاً حتى حلول المساء".

فقلت مجترئاً:" وكيف كانت هيئته؟".

كأي امرئ رأي عروس البحر. ولئن كنت قد رأيتها "مراراً وتكراراً" فكيف يتأتى أنك لا تعرف .... لقد كان بالغ التعاسة لأنه عرف كل شيء. ولقد كان كل شيء حي يبعث فيه التعس لأنه يعرف أن هذا الشيء ماتت يوماً لا محالة. وكان النوم هو كل ما يهمه فعله".

وانحنيت على مفكرتي.

"ولم يشتغل. ونسي أن يأكل. ونسي هل هو مرتدٍ ملابسه .... ووقع عبء العمل كله على عاتقي، واضطرت أختي إلى الخروج للخدمة .... ولقد حاولنا أن نحوله إلى شحاذ إلا أنه كان أقوي بنيه من أن يستدر العطف. ولم يكن من الميسور الادعاء بأنه أبله لأن عينيه لا تنمان على أنه كذلك ... كان يقف في الشارع ناظراً إلى الناس، وكلما تمادي في النظر إليهم زاد تعسة. فإذا ولد طفل غطي وجه براحتيه، وإذا تزوج اثنان ملكته القسوة وبعث في العروسين الرعب إذ يخرجان من الكنيسة. ومع ذلك كله فمن كان يصدق أنه يقدر على تزويج نفسه! ولقد تسبب في ذلك شخصياً ... كنت أقرأ في الجريدة كيف أن فتاه في راجوزا جنَّت من كثرة الاستحمام في البحر، فانبري لها يوسف وبعد أسبوع حضر الأثنان.

لم يخبرني بشيء قط. ولكن يبدو أنه ذهب إلى بيتها رأساً واقتحم حجرتها وحملها وانطلق بها. والفتاة ابنة صاحب منجم موسر، وهنا تستطيع أن تتصور ما يتهددنا. جاء أبوها ومعه محام قدير ولكنهما أخفقا في صنع أي شيء كما أخفقت أنا .... وطفقا يجادلان ويتوعدان، غير أنهما كان عليهما آخر الأمر أن يعود أدرجهما. ولم نخسر نحن شيئاً، أقصد شيئاً من المال.

وذهبنا بيوسف وماريه إلى الكنيسة وعقدنا عقدهما. أوه، يا له من عرس! بعدما انتهي القسيس من العقد لم يتفوه بأية دعابة ثم إن الأطفال قذفونا بالحجارة لدى خروجنا ... وأظن أنني كنت أبيع عمري ثمناً لإسعادها ولكني —كما يحدث دائماً— لم أستطع أن أصنع شيئاً".

" فهل كانا تعسين معاً إذن؟".

" إنهما يتبادلان الحب. ولكن الحب ليس هو السعادة. والحب في متناول الجميع، وهو لا

شيء ... ولديّ الآن شخصان أشتغل لأقوم بأودهما، لأنهما مثله في كل شيء، ولا سبيل إلى عرفان المرء أيهما المتكلم. وقد اضطررت إلى بيع سفينتنا وإلى العمل تحت إمرة الرجل المسن الشرير الذي يصاحبك اليوم.

وشر من هذا أن الناس أخذوا يكرهوننا وكان الأطفال هم البادئين، وكل شيء إنما يبدؤونه هم، وتليهم المرأة، ثم يأتي دور الرجل آخر الأمر. ذلك لأن كل بلية مردها إلي–أنت لست مفشياً سري؟".

ووعدته أن أكون أميناً على سره. فانفجر من فوره يسب في تهوس من أفلت من الرقابة ويلعن القسيسين الذين حطموا حياته. وصرخ قائلا:" وهكذا خدعونا". ووقف يركل بكلتا قدميه التموجات اللازوردية حتى حجبها بسحابة من الرمل.

وقد تأثرت أيضاً. لأن قصة يوسف – على ما بها من سخف–وخرافة كانت أقرب إلى الحقيقة من أي شيء سبقت لي معرفته. ولست أعرف لذلك سبباً، غير أن القصة أفعمتني رغبة في غوث الآخرين. وتلك فيما أعلم – أعظم الرغبات جميعاً. وأشدها عمقاً. على أن تلك الرغبة انصرفت على عجل.

وكانت توشك أن تضع ولداً، وهذه نهاية كل شيء. فقال لي الناس" متي يولد الفاتن ابن أخيك؟ وبما أنه سيولد من مثل هذين الأبوين فلسوف يكون بالغ الإيناس والجاذبية!" فظلت ثابت الوجه وأجبت:" أحسب أنه سيكون كذلك، إذ من الكدر يولد الحبور". هذا أحد أمثالنا السائرة.

وقد أفزعهم جوابي أيما فزاع ونقلوه إلى القسيسين الذين فزعوا كذلك. ثم بدأت في الذيوع شائعة فحواها أن الطفل سيكون المسيح الدجال. ولا محل لفزعك أنت الآن فالطفل لم يولد إطلاقاً.

" وبدأت عرافة عجوز في التنبؤ ولم يتصد لها أحد. قالت أن يوسف والفتاة "عليهما عفريت" صامت في مقدوره أن يأتي بالأذى الهين. ولكن الطفل سوف لا يمسك عن الكلام والضحك والتضليل، وسيذهب آخر الأمر إلى البحر ويستخرج البحر إلى الهواء، وسيراها العالم قاطبة ويسمعها تغني. فإذا غنت انفتحت في الحال القوارير السبع ومات البابا واحترق منجي بللو وخمارساتنا أجانا. وإذ ذاك يتزوج الفتي من عروس البحر ويشتركان معاً في حكم العالم إلى

أبد الآبدين.

وكثر اللغط في القرية كلها، وفزع أصحاب الفنادق إذ أن موسم السياحة كان قد بدأ لتوه. فاجتمعوا وقالوا بضرورة إرسال يوسف والفتاة إلى داخل البلاد إلى أن يولد الطفل، واكتتبوا بالأموال اللازمة لذلك. وفى الليلة التي سبقت ليلة رحيلهم اكتمل البدر وهبت الريح من الشرق وارتفع البحر – على طول الشاطئ – وكسى الأجراف بما يشبه السحب الفضية. وكان المنظر عجيبا قالت مارية إنه ينبغي لها رؤيته مرة أخري".

فقلت:" لا تذهبي، فلقد رأيت القس يمر من هنا يصحبه شخص ما.

وأصحاب الفنادق لا يريدونك على أن تظهري. وإذا أغضبناهم – هم أيضاً–هلكنا من الجوع".

فأجابت:" بل أرغب في الذهاب، فالبحر عاصف وقد لا أراه على هذه الصورة مرة أخري".

قال يوسف:" لا لا، أنه علي حق. لا تذهبي، أو فدعي أحدنا يذهب في رفقتك".

فقالت:" إنما أرغب في الذهاب بمفردي" وذهبت بمفرده.

"وحزمت أمتعتها في قطعة من القماش. وهنا تملكني تعس بالغ عندما فكرت أني مفتقدهما. هذا إلى حد أني ذهبت وجلست إلى جوار أخي وطوقت جيدة بذراعي وطوقني هو بذراعيه، الأمر الذي لم يصنعه منذ أكثر من عام، ولست أدري كم يقينا على هذه الصورة.

وعلى حين فجأة انفتح الباب عن آخره، ودخل ضوء القمر والريح معاً وقال صوت طفل وهو يضحك:" لقد دفعوها من أعلى الجرف إلي البحر".

"فخطوت إلى الدرج الذي أستودعه سكاكيني".

وقال يوسف – يوسف من بين جميع الناس – "اجلس مرة أخري. وإذا كانت قد ماتت فلماذا يموت الآخرون أيضاً؟".

فصحت:" أنا أحذر من يكون الفاعل، وسأقتله".

"وعندما كدت أخرج من الباب أوقعني وركع فوقي وأمسك كلتا يديّ ولوي معصمي بادئاً بالأيمن مثنياً بالأيسر. وما كان لأحد غير يوسف أن يفكر في شيء كهذا. أحسست ألماً فوق

ما تتصور حتى غشي علي. وعندما أفقت ألفيته قد انصرف ولم أره، بعد إطلاقاً".

ولكن يوسف جعلني أشمئز.

قال:" قلت لك إنه شرير. ولم يتوقع له أحد أن يري عروس البحر".

"ولكن كيف علمت أنه رآها؟".

"لأنه لم يرها "مرارا وتكراراً" وإنما رآها مرة واحدة".

"وإذا كان شريراً فلماذا تحبه؟".

وضحك أول مرة. وكان هذا جوابه الوحيد.

فسألت:" أتلك هي النهاية؟".

"أنا لم أقتل من اغتالها على الإطلاق، إذ عندما كان معصماي سليمين كان هو في أمريكا. وليس في وسع أمرئ قتل قسيس. أما يوسف فقد جاب العالم كذلك باحثاً عمن عساه يكون قد رأي عروس البحر – رجلاً كان الرائي أو امرأة، والأخير أفضل" لأن الطفل ربما يكون قد ولد في هذا الوقت ثم وصل آخر الأمر إلى ليفربول–هل يوجد مكان بهذا الاسم؟ – وهناك أخذ يسعل ويبصق دماً إلى أن مات.

وما أظن أن أحد من الأحياء الآن قد رآها. إذا قلما رويت في كل جيل أكثر من مرة واحدة. ولن يوجد في حياتي إطلاقاً رجل وامرأة يمكنهما أن يعقبا ولداً يظل يجوب البحار حتى يعثر على عروس البحر فيبدد الصمت ويخلص العالم".

فهتفت" يخلص العالم، هل تلك هي خاتمة النبوءة؟".

واضطجع إلي وراء مستنداً إلى الصخرة متنفساً في غمق. ومن بين كل الانعكاسات والعزلة لا يمكن أن يدوما إلى الأبد، نعم إنهما قد يدومان مائة عام أو ألف عام ولكن البحر يدوم إلى مدي أبعد من هذا. وستخرج هي منه وتغني" وكنت أود أن أساله أكثر مما فعلت ولكن الغار جميعه اعتم في تلك اللحظة. وإذ ذاك سبح إلى داخله – من المدخل الضيق–القارب العائد.

اللحظة السرمدية

-١-

أترين ذلك الجبل الذي من خلف القبعة الصغيرة التي تلبسها إليزابيث؟

هنالك منذ عشرين سنة تقريباً أحبني شاب حباً رفيقاً ... أميلي رأسك دقيقة واحدة، يا إليزابيث: من فضلك".

فقالت إليزابيث وهي تنكفئ علي وجهها فوق الصندوق كالدمية المخلخلة:" نعم يا سيدتي. وثبت العميد "أمير الآلاي" ليلند منظاره على أنفه واتجه ببصره إلى الجبل الذي فيه أحب الشاب السيدة.

واستفهم باسماً وإن خفض من صوته قليلاً حتى لا تسمعه الخادمة:" وهل كان فتى ظريفاً؟".

"لم أعلم إطلاقاً. غير أن تلك حادثة كلما تذكرتها في سنّي هذه طفرت بالرضي. وشكراً يا إليزابيث".

وهل يجوز للمرء أن يستفهم عمن كان ذاك الشاب؟".

فأجابت مس رابي بنغمتها المعتادة" حمال إنه لم يرتفع حتى إلي أن يكون من الأدلاء المرخص لهم ... إنه "رجل" كانوا يستأجرونه لحمل الأمتعة، وكانت تسقط منه".

"مفهوم مفهوم! وماذا صنعت أنت؟"

"صنعت ما يجدر بسيدة شابة أن تصنع: صرخت، وشكرته على عدم إهانته إياي، وجريت من دون أن تدعو الضرورة إلى الجري ووقعت ورض رسغ قدمي، وصرخت مرة ثانية. وكان عليه أن يحملني نصف مي.

ونقمت من نفسي سوء خلقي إلى حد خشيت معه أن يطوح بي من فوق جرف وعلى هذه الصورة وصلنا إلى سيدة اسمها مسز هاربوتل، ولم أكد أراها حتى انفجرت باكية. غير أنها

كانت أحمق مني بكثير، فأفقت في غير توان".

"وقلت أنت بطبيعة الحال إن الخطأ كله خطؤك؟".

فأجابت في نغمة أكثر رزانة:" أعتقد ذلك. ولقد حذرتني منه مسز هاربوتل التي كانت – كسائر الناس – على حق دائما. وكنا قد أرسلناه من قبل لأداء بعض الأعمال".

"آه، فهمت".

"أشك في أنك فهمت ... لقد كان حتى ذاك الوقت يعرف نفسه.

غير أنه كان يتهالك في العمل، وقد أدي لنا منه أكثر من الأجور التي تقاضاها منا. وهذا، كما تعلم، نذير شؤم لدي من انحدروا من أسر حقيرة".

ولكن كيف كان هذا خطأك أنت؟".

"لأني شجعته وآثرته كثيراً على مسز هاربوتل. فلقد كان مليحاً، وكان ما أسميه أنا مريحاً، كما كان أنيقاً في ملبسه. وكنا نتلكأ خلفهم فيجمع لي زهراً. فإذا مددت يدي لتناوله أمسك بها وألقي خطاب حب اقتبسه من كتاب الخاطبين "[1]".

"آه، إيطالي".

وكانوا في تلك اللحظة يعبرون الحدود. وقد نصب–علي جسر صغير فيما بين شجر الشوح "[2]" – قائمتان خشبيتان، طلي أحدهما بالأحمر والأبيض والأخضر وطلي الثاني بالأسود والأصفر.

وقالت مسز ربي:" وكان يعيش في البلاد التي استعادتها إيطاليا من المحتلين الأجانب، أما نحن فكان علينا أن نطير إلى الجزر البريطانية. وإني لأتساءل عما كان عساه يحدث لو كنا فعلنا ذلك".

قالت العميد "أمير الألاي" ليلند وقد اشمأز فجأة:" يا الله!" وارتعدت إليزابيث فوق الصندوق.

---

[1] إي بروميسي سبوزي: عنوان قصة كتبها في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ألساندور منزوني وهي تحفة في الأدب الرومانتيكي.

[2] الشوح (بضم الشين) شجر تكون أغصانه علي هيئة مخروطية ويسمونه الموسكي.

"ولكن كان من الجائز أن تمسي تلك زيجة سعيدة".

ولقد تعودت أن تتكلم بطريقة رفيقة غير تقليدية. فانبري العميد ليلند–الذي التمس لذكائها عذراً – يوضح قائلا:

"كان ذلك حرياً، نعم كان ذلك حرياً"

فرجعت عليه قائلة:" أتظنني أسخر منه؟".

وبدأ عليه شيء من الحيرة وابتسم ولم يجب. على أن مركبتهم كانت تزحف حول سفح الجبل السيء السمعة، وكانت الطريق قد بنيت على الأنقاض التي خرَّت والتي ما تزال تخر من جنباته، وقد أحدثت هذه الأنقاض المتساقطة تشويهات كآثار الجروح في غابات الصنوبر كأنهار مخربة من الحجر الأبيض. إلا أن مس ربِي تذكرت أنه توجد في الجبل –على علو أبعد فوق منحدراته الشرقية التي تزيد سهولة ولينًا– توجد تجاويف هادئة وصخور يكسوها الزهر ومنظر بالغ الروعة.. وهي لم تكن هازلة إلى الدرجة التي تخيلها رفيقها. ولا مرية في أن الحادث يبعث على الضحك. ولكنها استطاعت –على صورة ما– أن تضحك منها دون أن تكثر من الضحك على الممثلين أو على المسرح.

وقالت بعد تريث طويل: "كنت أوثر أن يحسبني هو حمقاء على أن أحسبه أنا أحمق".

فقال العميد ليلند مبتغيًا تغيير مجرى الحديث "ما هي ذي دار المكوس "الجمرك"".

لقد وفدا على أرض "آخ" و "يا" [١] فتنهدت مس ربِي إذ كانت تحب اللاتين كما يجب أن يحبهم كل امرئ لا يأبه بقيمة الوقت. أما العميد ليلند، بوصفه جنديًا، فيبجل تيتونيا" [٢].

وقالت تواسي نفسها كما قد يفعل الطفل "إنهم ما يزالون يتكلمون الإيطالية على بعد سبعة أميال".

فأجاب العميد ليلند بقوله "الألمانية لغة المستقبل. وجميع الكتب الهامة في أي موضوع تكتب بها".

(١) (آخ) و (يا) كلمتان ألمانيتان الأولى معناها (كذا) والثانية (نعم).

(٢) التيوتون هم الألمان والدنمركيون وجيرانهم الإنجليز.

فقالت مس ربي "بل تكتب جميع الكتب في أي موضوع هام بالإيطالية. يا إليزابيث اذكري لي اسم موضوع هام".

فقالت الخادمة مترددة بين الحياء وقلة الحياء "الطبيعة البشرية يا سيدتي".

وقال العميد لينلد "إليزا بت قصصية كسيدتها" ثم استدار ليشهد المنظر إذ أنه لا يجب أن يتعثر في حديث مختلط. ولحظ أن المزارع أضحت أكثر رخاء، وأن الشحاذة قد توقفت، وأن النساء أكثر قبحًا، وأن الرجال أكثر سمنة، وأن مزيدًا من الطعام المغذى يؤكل خارج الفنادق التي على جانبي الطريق.

"أيها العميد لينلد، هلا ذهبنا إلى فندق الألب الكبير أو فندق لندرا أو نزل لاييج أو نزل آثر لي سيمون أو نزل المنظر الجميل أو نزل إنجلترا القديمة أو فندق بسكيوني؟"

"أظنك ستفضلين فندق بسكيوني".

"أنا في الحقيقة لا أتضايق إطلاقًا من فندق الألب الكبير. وكلاهما –على ما سمعت– ملك لآل بسكيوني الذين ربى ثراؤهم إلى درجة عظيمة".

"يجب أن تحظى باستقبال رائع إذا كان قوم كأولئك يعرفون معنى عرفان الجميل".

ذلك لأن قصة مس ربي "اللحظة السرمدية" التي أذاعت صيتها أذاعت كذلك صيت فورتا.

"أوه، تلقيت الشكر الجزيل. فلقد كتب إلى السنيور كانتو بعد أن نشرت كتابي بحوالي الثلاثة الأعوام. وبدا لي أن الخطاب يبعث على شيء من الإشفاق وإن كان الكتاب موفقًا كل التوفيق. وأنا لا أحب أن أغير من حياة الناس. وإني لأتساءل: هل هم ما يزالون يقيمون في بيتهم القديم أو تراهم انتقلوا إلى البيت الجديد؟".

ولقد جاء العميد ليلند إلى فورتا ليكون مع مس ربي وإن رأى عن طيب خاطر ألا ينزل وإياها في فندق واحد. ولكن من حيث إنها لم تكن لتأبه لمثل هذه الأشياء الدقيقة فإنها لم تر سببًا يمنعها عن النزول وإياه تحت سقف واحد كما أنها لم تر سببًا يمنعها عن الرحيل وإياه في مركبة واحدة. ثم إنها – من جهة أخرى– تكره كل ما هو أنيق. وقد استقر رأيه على أن ينزل في فندق الألب الكبير.

وكانت هي متجهة إلى بسكيوني حينما قالت إليزابيث المتعبة: "سيدتي، صديقتي تسكن فندق الألب".

"إن وجود صديقة إليزابيث يحسم الأمر. فلنذهب جميعًا".

قالت إليزابيث وهي تتعمد حتى الظهور بمظهر عرفان الجميل "حسن جدًا يا سيدتي". فتهجم وجه العميد ليلند أيما تجهم بسبب عدم النظام.

وعندما نزلوا جميعًا ليصعدوا الجبل على أقدامهم قال متذمرًا "لقد أفسدتها".

" ها هو ذا رجل الحرب يتكلم".

" لا ريب في أنني كنت مستغرقًا في العمل مع الجنود الإنجليز بشكل حال بيني وبين ما تسمينه "الأواصر الإنسانية". ولو أني أظهرت قليلًا من العواطف لتمزق الجيش شر ممزق".

"أعرف ذلك. غير أن الدنيا بأجمعها ليست جيشًا. فلماذا إذا أتظاهر بأني ضابط. وإنك لتذكرني بأصدقائي الإنجليز بالهند الذين كانوا يفزعون كلما تلطفت مع بعض الأهلين. والذين كانوا يثبتون بصورة جدية قاطعة أن هذا الأسلوب لن يكون فيه غناء لهم وأن رأيهم صادق في كل الحالات. على أن سيئ الحظ هنا ليحاولون دائمًا قيادة حسني الحظ، وهذا ما يجب منعه. وأنت كنت سيئ الحظ إذ كان عليك طوال حياتك، أن تتسلط على الرجال وتفرض عليهم الطاعة العمياء وفضائل أخرى لا خير فيها. أما أنا فحسنة الحظ لأني لست مضطرة إلى أن أفعل مثل ذلك، وما أنا بفاعلة".

فقال باسما: "لا تفعلي إذن. ولكن ألقى بالك إلى أن الدنيا، مع ذلك، ليست جيشًا. وألقى بالك أيضًا إلى أنك لا تظلمي سيء الحظ. ونحن على سبيل المثال، نعطف على خادمتك".

وقالت حالمة كأنه لم يذعن في شيء: "لقد بدأ هذا الأمر بطبيعة الحال يصير مألوفا. غير أنهم يرون من خلاله. وهم يعرفون –مثلما نعرف نحن– أن شيئًا واحدًا في هذه الدنيا هو الذي يستأهل أن يحرص عليه".

فتنهد قائلًا: "نعم نعم، فنحن في عصر الماديات".

قالت مس ربي وهي تصيح في انفعال جعل إليزابيث تتلفت خلفها لتتعرف الأمر الذي

قد يكون في غير محله: "كلا كلا! أنت مغفل. فالرفق والمال يسهل الاستغناء عنهما. أما الشيء الوحيد الذي يستحق أن تبين عنه فهو أنت نفسك. هل سبق لك إطلاقًا أن أبنت عن نفسك لأحد؟".

"كثر ما فعلت ذلك".

"إنما أعني: هل سبق لك إطلاقًا أن تعمدت إظهار نفسك بمظهر الأحمق أمام مرؤوسيك؟".

"متعمدًا، لم يسبق لي ذلك بتاتا". وأدرك آخر الأمر المعنى الذي تستهدفه. فلقد كان من دواعي سرورها الادعاء بأن إظهار ما في النفس على هذه الصورة هو الأساس الوحيد الممكن للمعاملة المخلصة وأنه الباب الأوحد للحاجز الروحي الذي يفصل ما بين طبقة وطبقة. وقد عالج أحد كتبها هذا الموضوع في أسلوب مشوق. وزاد فقال مداعبًا: "وما خطبك أنت؟".

"أنا لم أفعل ذلك قط على الوجه الأكمل، إذا أني –حتى الآن– لم أشعر شعورًا حقيقيًا بأني حمقاء كبيرة، ولكني عندما أحس بذلك سأظهر جليًا".

"ليتني أكون هنأك

فأجابت بقولها: "قد لا يروقك ذلك، وقد أستشعره أنا في أية لحظة وبين خليط من الرفاق، وقد يدفعني إليه أي شيء دفعًا".

فصاح السائق لينهي المحادثة المرحة: "تلك هي فورتا!" وكان قد وصل –هو وإليزابيث والمركبة– إلى ذروة التل ... وانتهت الغابات السوداء، وانحدروا إلى واد جنبتاه مروج زمردية تتماوج وتنثني ويتداخل كل منها في الأخريات. ولكنها كانت مع ذلك تتجه إلى الصعود حتى بلغت إلى مكان يرتفع ألفي قدم، مكان انبثقت فيه من الكلأ الصخور وشكلت حبالًا عظيمة ذات بروج نخلية تشمخ في صفاء الغروب.

وقال السائق –الذي يتمتع بموهبة التكرار– "فورتا! فورتا!".

وقامت في الوادي –على مدى بعيد– قرية بيضاء كبيرة تترجح فوق مروج متماوجة كأنها السفينة في البحر يقف على مقدمها– ويتصدر انحدارًا عنيفًا –برج مهيب من الحجر الأغبش الجديد، وما إن نظرًا إليه حتى أخذ ينطق ويوجه إلى الجبال كلامًا بديعًا ويتلقى جوابها عنه.

وقيل لهما مرة أخرى إن هذه فورتا وذاك برج الأجراس –الذي يشبه برج فينيسيا وإن فاقه دقة– وإن الصوت صوت جرسه الجديد.

فقال العميد ليلند "شكرًا، هذا صحيح". بينما كانت مس ريبي مسرورة لأن القرية أحسنت الإفادة من رخائها، على أنها كانت تتهيب العودة إلى المكان الذي أحبته يومًا حبًا شديدًا خشية أن تجد فيه شيئًا جديدًا. ولم يدر بخلدها أن الشيء الجديد قد يكون جميلًا. ولا شك في أن المهندس المعماري انحدر إلى الجنوب يبتغي الإلهام. فأقيم البرج الذي يقف بين الجبال شبيها بالبرج الذي قام يومًا إلى جوار البحيرات الضحلة. غير أنه كان من العسير معرفة مكان ميلاد الجرس لأن الصوت لا وطن له.

وتقدما راكبين بين المناظر الأخاذة فرحين صامتين، وقد حسبهما من رضى عنهما من السياح زوجين يليق كل منهما بالآخر. ولا مراء في أن وجه مس ريبي النحيل لم يكن يحوي أي شيء كريه بالمعنى الحرفي للكلمة، وفي أن مهنة العميد ليلند أكسبته أناقة أكثر مما أكسبته ميلا للعدوان. ولقد ظهرا في أحسن مظهر بوصفهما زوجًا وزوجة مثقفين مهذبين صرفا عمريهما في تذوق الأشياء الجميلة التي تملأ الدنيا.

وكانا كلما اقتربا يسمعان إجابات كنائس أخرى لم يلقيا إليها بالًا حتى ذاك الوقت: كنائس بالغة الصغر، وكنائس قبيحة الهيئة. وكنائس وردية الطلاء ذوات أبراج كاليقطين "القرع العسلي"، وكنائس بيضاء الطلاء ذوات حلزونات تغطها قراميد خشبية، وكنائس تستخفى تمامًا بين ممرات الغابة أو ثنايا المروج. هذا إلى أن أفعمت جو العشى أصوات صغيرة يغني في وسطها صوت كبير. أما الكنيسة الإنجليزية التي شيدت أخيرًا على الطراز الإنجليزي القديم فهي وحدها التي لزمت الصمت العميق.

كفت الأجراس عن الدق –وانحسرت الكنائس جميعها في الظلام– وحلت محلها أصوات الصواني النحاسية "تدق للتنبيه إلى اللبس قبل تناول الطعام" ومشهد السياح المتعبين يخفون إلى العشاء. ورؤية مركبة من طراز لاندو"[١]" كتب عليها "نزل آثر لي سيمون" تركض لاستقبال مركبة السفر الكبيرة التي أذن موعد وصولها. وكانت إحدى السيدات تحدث أمها في شأن لباس

(١) اللاندو مركبة ذات أربع عجلات سقفها قابل للتحرك وتجرها الجياد.

السهرة، وكان الشباب، حاملو مضارب الكرة، يتحدثون إلى شباب يحملون أدوات صعود الجبل. وهنالك عبر الظلام، كتبت إصبع متقدة "فندق الألب الكبير".

فقال السائق وهو يسمع الركاب يسألون "انظروا ضوء الكهرباء".

بنى نزل المنظر الجميل يتصدر غابة الصنوبر ويقابله فوق حافة النهر فندق لندن. أما نزلا ليبج ولوريلاي فقد ظهرا في لونيهما الأخضر والعنبري على التوالي، وتبدى نزل إنجلترا القديم في لون قرمزي. وترامت الأضواء إلى مسافات بعيدة لأن أفضل الفنادق أقيم خارج القرية على مواقع مرتفعة أو شاعرية. وكان هذا العرض يجري في كل ليالي الموسم ولكن كلما لاحت مركبة الركاب ليس غير. فإذا انتهى استقبال آخر سائح أطفئت الأضواء وانسحب أصحاب الفنادق —لاعنين أو مرحين— يدخنون السيجار.

قالت مس ريبي "شيء مروع".

وقال العميد ليلند "قوم مروعون".

وكان فندق الألب مبني ضخمًا أقيم من الخشب بحيث يزجي فكرة الكوخ المبسوط. ولم يعدل هذه الفكرة إلا وجود شرفة عظيمة فاخرة تواجه المنظر الجميل ترى أحجارها المربعة المسواة من أميال بعيدة، وتنساب منها على الريف المجاور ممرات من الأسفلت كأنما تسيل من خزان. وبعد أن صعدت مركبة الفندق إلى ممر خاص وقفت تحت رواق عال من خشب الصنوبر يتصل من ناحيته بالشرفة ومن الناحية الأخرى بردهة الاستراحة. وقد ظهرت في الردهة دوامة من الموظفين: رجال يتحلون بشرط ذهبية، ورجال آنق يتحلون بمزيد من الشرط الذهبية، ورجال آنق من أولئك لا يتحلون بشرط ذهبية. واصطنعت إليزابيث العظمة وحملت سلة صغيرة من القش وكأنها تنوء بها. وسلك العميد ليلند السلوك العسكري التام. أما مس ريبي —التي تربكها الفنادق الكبيرة دائمًا مع كل تجاريبها الطويلة— فقد هرعت إلى غرفة عالية الأجر وأشير عليها بارتداء ثيابها توًا إذا أرادت المشاركة في مائدة الطعام العامة.

ولما صعدت السلم رأت غرفة الطعام تزخر بالإنجليز والأمريكيين وبالألمان الجائعين. وهي تحب صحبة الناس، غير أنها في تلك الأمسية كانت تشعر بانقباض غريب. وبدت كأنها تواجه رؤيا مكدرة لا تدرك لها كنها.

وقالت لإليزابث "سآكل في غرفتي. اذهبي أنت وتناولي عشاءك، وسأشتغل أنا بفك أمتعتي".

وجالت في الغرفة تقرأ بنود التعليمات والأثمان والسياحيات القصيرة وتتفقد الأريكة الحمراء "الكئبة" ذات الوبر المنتفش والأباريق والطسوت التي طبع على كل منها منظر من مناظر الجبال. فأي مكان في هذا البهاء يتسع للسنيور كانتو ب"بيبته" ذات الوعاء المصنوع من الصيني وللسنيورة كانتو بشالها الذي يحاكى النشوق لونًا؟

وعندما حمل إليها النادل عشاءها آخر الأمر سألت عن رب الدار وربته. فأجاب باللغة الإنجليزية الواسعة الذيوع بأنهما بخير.

"أهنا يعيشان أم في البسكيوني؟".

"هنا. أجل أجل، فالسياح الفقراء وحدهم هم الذين يؤمون البسكيوني".

"وإذن فمن الذي يعيش هناك؟".

واستأنف الكلام كمن يلقى درسًا حفظه، قال "والدة السنيور كانتو، وهي منفصلة عنا كل الانفصال، لخمسة عشر عامًا خلت، نعم، أما الآن فأين البسكيوني؟ أرجو ألا يبدو عليك معرفتك شيئًا عن هذا الحديث".

فقالت مس ربي في هدوء "أنا أخطأت. فأرجوك أن تعلم إدارة الفندق أنني لست راغبة في غرفتي وأن تطلب إليها نقل أمتعتي إلى البسكيوني في الحال".

فأجاب النادي وكان حسن التدريب "يقينًا يقينًا؟!" وأضاف وهو ينفخ من أنفه نفخة كريهة "ولكن عليك أن تدفعي أجر الغرفة".

قالت مس ربي "بكل تأكيد".

غير أن النظام المحكم الذي كان قد طواها في المدة الأخيرة أخذ يلفظها. فحملت الأمتعة إلى الطبقة السفلى، واستدعيت المركبة التي كانت قد جاءت بها، وظهرت في البهو إليزابيث وقد خطف الغضب لون وجهها، ودفعت أجر الفراشين اللذين لم يناما عليهما والطعام الذي لم يتناولاه إطلاقًا. وتحركت صوب الباب وسط دوامة الموظفين الذين يتحلون بالشرط الذهبية والذين راودهم الأمل – حتى بعد ذاك الوقت القصير– في أن يكونوا قد رتبوا لأنفسهم حقًا

يخولهم "البقشيش". ورقبها الأضياف الموجودون في البهو، متضاحكين مستنتجين أنها وجدت أن نفقات المعيشة في هذا الفندق تبهظها.

وأسرع العميد ليلند من خلفها في ثياب السهرة يسألها: "ما خطبك؟ ما عسى أن يكون خطبك؟ ألست مرتاحة هنا؟".

"لا شيء من هذا. أنا أخطأت. فهذا الفندق يملكه الابن، وأنا ينبغي لي أن أذهب إلى البسكيوني. فلقد تعارك مع والديه وأعتقد أن الأب قد مات".

"ولكن حقًا –إذا كنت مرتاحة هنا–".

"يجب أن أكشف الليلة هل يكون ذلك صحيحًا. على أنه ينبغي لي أيضًا" وهنا ارتجف صوتها "أن أكشف هل كانت الغلطة غلطتي".

"كيف ذلك، أناشدك وأرجوك".

فاستأنفت الكلام مترفقة، قالت "إن كانت الغلطة غلطتي فسأتحمل النتائج. إنني أكبر سنًا من أن أكون ملكة مأساة أو محرضة على الشر".

وفيما كان يتابع بنظره أضواء المصابيح إذ تهبط التل تمتم قائلًا:

"ماذا تعني؟ أي ضر أنت؟ ما الضرر الذي يكون السبب في هذا؟ أصحاب الفنادق دائمو العراك وليس هذا ما يعنينا". وتناول في صمت عشاء طيبًا ثم تحول تفكيره بسبب ورود خطاباته من مكتب البريد.

"إلى أدوين الأعز

أكتب إليك أشد ما أكون تهيبًا، علمًا بأنك مصدقي إن قلت لك بأنني لست أكتب بداعي الفضول. وقصاري ما أبتغي هو جواب عن سؤال بسيط وهو: أخاطب أنت مس ربي أم تراك لست خاطبها؟ نعم، لقد تغيرت الأساليب منذ عهد صباي ولكن الخطوبة مع ذلك، ما تزال هي الخطوبة، وينبغي أن تعلن على الفور وبذلك تنأى بجميع الأطراف عن المضايقات. ومع اعتلال صحتك ومع اعتزالك مهنتك أراك ما تزال قادرًا على الذود عن شرف الأسرة".

فهتف العميد ليلند قائلًا "ثرثرة!" لقد جعلته صحبة مس ربي أثقب نظرًا فهو لم ير في هذا الجزء من خطاب أخته أكثر من مراعاة تلقائية للتقاليد ولم تحركه توسلات الخطاب بأكثر مما

حركها إنشاؤه.

"أما الخادمة التي حدثني عنها آل "بانون" فما هي بالرقيبة. إنها لا تزيد على كونها رشوة يقذف بها أمام أعين العالم. وأنا لا أتجنى بكلمة واحدة على مس ربي صاحبة الكتب الواسعة الانتشار، غير أن الأدباء على الدوام غير عمليين، ونحن موقنون من أنها لا تدري. نعم قد يدور بخلدي أنها ليست الزوجة التي تلائمك ولكن هذا أمر آخر.

"أطفالي الذين يبعثون لك جميعًا بحبهم "كما يبعث لك به لايونيل" هم في الوقت الحاضر فرحة لا تقف عند حد. إلا أن همي الوحيد ينصب على المستقبل عندما تدخل الحساب نفقات تعليمهم الساحقة".

لعمرك كيف يتسنى له تعليل الافتتان العجيب الذي يوثق الألفة بينه وبين مس ربي! إن كلمة واحدة عن الزواج لم تخرج من فيه على الإطلاق، ومن المحتمل أن يوجه لها كلمة واحدة عن الحب. وإذا تأتي لهما تبادل الزيارات على الدوام –بدلًا عن مبادلتها كثيرًا فقط– فإنهما يصبحان كالرفيقين العاقلين يعرفان الحياة وليس كالمتحابين الأنانيين يتشهيان ما لا نهاية له من الهوى الذي لا حق لهما في ابتغائه ولا قدرة لهما على إزجائه. على أن واحدًا منهما لم يدع أنه طاهر الذيل أو أنه يجهل حدود الآخرين أو تقلبات أحوالهم. ثم إن كلا منهما لم يكد يسمح لنفسه بالتساهل مع الآخر. والتسامح في ذاته يتضمن التحفظ. والمعرفة هي خير سبيل للاختلاط الهادئ. وكانت لدى العميد ليلند شجاعة ليست من النوع الوضيع. وهو لم يأبه كثيرًا لآراء الناس الذين فهمهم. فلتصدم نللي ولونيل وأطفالهما أو فليغضبوا.. مس ربي مؤلفة متطرفة نوعًا ما وهو جندي أي أنه أرستقراطي على صورة ما. غير أن زمان نشاطهما أخذ ينقضي. فلقد توقف هو عن المقاتلة وتوقفت هي عن الكتابة. ومن الميسور أن يقضيا خريفهما معًا في سرور. وإذا حل الشتاء فلن يمسيا رفيقين غير رضيين.

ولقد كان أرق طبعًا من أن يسلم –حتى بينه وبين نفسه– بالإقبال على "الزواج" من ألفي جنيه في العام ولكن ذلك كان يبدو في أفكاره عطرًا غير معترف به.. ثم قطع خطاب نللي إربًا إربًا ورمي بالقطع في الظلمة من نافذة غرفة النوم.

وفيما كان ينظر صوب فورتا –محاولًا أن يرقب برج الأجراس على ضوء القمر المطرد

النماه –تمتم قائلًا: "يأيتها السيدة المضحكة! لماذا ذهبت إلى حيث لا تجدين الراحة؟ ولماذا تتدخلين في خصومات أناس لا يستطيعون فهمك ولا تستطيعين أنت فهمهم كذلك؟ وما كان أحمقك عندما زعمت أن مرد هذه الخصومات إليك! تزعمين أنك ألفت كتابًا ضيع المكان وأمد الناس بالفساد والخسة. أنا أعرف تمامًا طريقة تفكيرك. وبها ستجرين الشقاء على نفسك وتحاولين أن تقيمي ما لم يستقم قط، أيتها السيدة المضحكة!"

ولقد وسعه أن يرى –تحته على مسافة قصيرة– نتفًا من خطاب أخته. وظهر في الوادي برج الجرس يسمو وهو يشق شراذم البخار الفضي.

وحرك يده حركة خفيفة صوب القرية الصغيرة وهمس قائلًا: "حنانيك يأيتها السيدة العزيزة!".

-٢-

دارت أولى قصص مس ربي "اللحظة السرمدية" حول فكرة أن الإنسان لا يعيش بالزمن وحده وان أمسية تنقضي قد تعدل أجيالًا في ساحات السماء. وهذه هي بعينها الفكرة التي شرحها ميترلنك"[١]" فيما بعد متوسعًا في فلسفتها. وقد أعلنت الآن بنفسها أنه كتاب متصنع ممل وأن العنوان يوحي بكرسي طبيب الأسنان. غير أنها كتبته عندما كانت تشعر بالشباب والسعادة وبأن ذلك –وليس زمن النضج– هو الوقت الذي يكون الناس فيه عقائدهم. وعلى مر الأعوام قد تصبح الفكرة أكثر رسوخًا، غير أن الرغبة في نقلها إلى الآخرين والقدرة على هذا النقل تضعفان بالمثل. ولم يكدرها –جملة– أن باكورة مؤلفاتها كانت بالغة الطموح.

وقد شاء الحظ الغريب أن يقابل الكتاب بحماسة عظيمة وبخاصة لدى دوائر تعني الأمور الواقعية فقط، ولقد ذهب الكسالي إلى أنه لا ضرر في ضياع الوقت، ورأى السوقة أنه لا شر في أن يكون المرء متقلبًا، وعده المتدينون تهجمًا على الفضيلة. وذاع صيت المؤلفة في المجتمع، وزادتها سحرًا حماستها للطبقات الدنيا. وفي ذاك العام نفسه وفدت إلى فورتا –التي كانت مسرحًا لأحداث الكتاب– الليدي أنستاي ومسز هيريوت ومركيز بامبورج وكثيرون غير هؤلاء،

---

(١) موريس ميترلنك كاتب بلجيكي ذائع الصيت ولد في (جان) في سنة ١٨٦٢.

جاءوا إليها وعادوا منها تلهبهم الحمية. وقد عرضت الليدي أنستاي الصور التي رسمتها بالماء، وأخذت مسز هيريوت صورًا فوتوغرافية وكتبت مقالًا في جريدة ستاندارد "اللواء"، ونشر مركيز بامبورج في مجلة القرن التاسع عشر وصفًا مسهبا، للمكان، بعنوان "الفلاح الحديث وعلاقاته بالكاثوليكية الرومانية".

وبفضل تلك الجهود أمست فورتا مكانًا ناهضًا يؤمه أولئك الذين ينأون بأنفسهم عن الأماكن المعروفة ويشيرون على غيرهم بالذهاب إليه. وبسبب سلسلة من الأحداث التافهة لم ترجع مس ربي قط إلى تلك القرية التي ترتبط نهضتها بشخصها. غير أنها كانت بين الفينة والفينة تسمع بما تحرز من تقدم. وتهامس الناس بأن طبقة متوسطة من السياح أخذت تعرف طريقها إليها. فأشفقت عليها من أن يتسبب أولئك السياح في إفساد بعض ما بها. ولقد منعها التهيب عن العودة إلى مشاهد سبق أن أمدتها يومًا بسرور عظيم. فأعراها العميد ليلند إذ كان ينشد مصطافًا رطبًا صحيًا فيه يتسنى له أن يقرأ ويتحدث ويجد أمكنة يستطيع عليل مثله أن يتنزه فيها مشيًا على الأقدام. فسخر منهما الأصحاب، وأكثر المعارف من القيل والقال وثار الأقرباء. ولكنه تذرع بالشجاعة وأخلدت هي إلى عدم الاكتراث، وتم لهما إنجاز الحملة في حماية إليزابيث غير الكافية.

ولقد كان وصولها مبعث اكتئابها إذ ساءها أن ترى الفنادق الكبيرة مقامة بمنأى عن القرية حيث كان ينبغي تجميع الحركة كلها. وما برحت أسماؤها المضاءة تلقى على المنحدرات المسائية الهادئة أنوارًا تتراقص في عينيها. ثم إن فندق الألب البالغ الضخامة كان شبحه يزعجها كما قد يفعل الكابوس. وكانت تعاودها في أحلامها صور الرواق والبهو الفاخر والمكتب المصنوع من خشب الجوز المجلو واللوحة الشاسعة التي تعلق عليها مفاتيح غرف النوم وفخار تلك الغرف الذي يحمل صورًا جميلة وبذلات الموظفين الرسمية ورائحة الزوار الأنيقين التي تتأذى فيها بعض الأنوف بقدر ما تتأذى لرائحة الفقراء. وهي لم تتحمس لتقدم المدينة لأن تجاريبها الشرقية علمتها أن المدنية قلما تقدم أحسن قدميها وأنها حرية بأن تفسد أخلاق البربر وتدفعهم إلى الإثم قبل أن تصل إليهم مناقبها. والمسألة هنا ليست مسألة تقدم. على أن ما تتعلمه الدنيا من القرية ليفوق ما تتعلمه القرية من الدنيا.

وفي الحق أنها لم تجد في البسكيوني إلا التغيير الطفيف الذي تقتضيه سنة البقاء. وقد مات

المالك المسن ورقدت المالكة العجوز مريضة في الفراش، غير أن الروح العتيق لم يزايل المكان. وبقيت بعد على الواجهة الخشبية صورة التنين يبتلع الطفل كما بقيت شارة آل فيكونتي الذين انحدروا من ميلانو الذين يرجح كل الترجيح أن يكون آل كانتو من حقدتهم. ذلك أنه كان هناك شيء ما بالفندق الصغير يدفع الضيف الودود إلى أن يعتقد –مؤقتًا وفي كل الأحوال– في الأرستقراطية. وقد سادت كل مكان منه أساليب النبلاء الأصلية. إذ يوجد في كل غرفة من غرف النوم ثلاثة أشياء جميلة أو أربعة، كقطعة صغيرة من قماش حريري مصور أو قطعة صغيرة من الروكوكو"[١]" المنقوش أو بضعة مربعات من القرميد الأزرق وضعت في إطارات وعلقت على الجدار المكلس "المطلي بالجير" وعلقت صور في حجرة الجلوس وعلى طول السلم، صور من القرن الثامن عشر على منوال مصورات كارلودو لتشي وكاراتشي مثل الأم المتألمة في رداء أزق، ومثل قديس يرفرف بجناحيه وصورة للإسكندر تمثله رجلًا نبيل النفس همامًا ذا ذقن متراجع.. طراز مزيف، كما يحكم بذلك العارفون والكتب. غير أن نضارتها وأهميتها قد تمتاز أحيانًا على نظيرتيهما في صورة لفرا أنجلو"[٢]" مشتراه حديثًا. وقد استشعرت مس ربي التي زارت كثيرين ممن يحملون لقب "دوق" في قصورهم دون أن تحس رجفة –استشعرت أنها كثيرة الصخب وأنها عصرية عندما دخلت فندق بسكيوني. وأوحت إليها الأشياء البالغة التافهة– كالأريكة والوسادات وأغطية المناضد وأغلفة الوسادات، وإن جاز أنها مصنوعة من خامات رخيصة وأنها لا تتمشى مع الذوق السليم– أوحت إليها هذه الأشياء التبجيل والخضوع. والقد تنقل في هذا المأوى النظيف الأنيس، في فترة ما، السنيور كانتو بـ "بيبته" ذات الوعاء المصنوع من الصيني والسنيورة كانتو بشالها الذي يحكي النشوق لونا وبارتولوميو كانتو الذي يملك الآن فندق الألب الكبير.

وفي الصباح التالي جلست تتناول فطورها في حالة نفسية حاولت هي أن تعزوها إلى ليلتها السيئة وإلى سنها الآخذة في الكبر. ودار يخلدها أنها لم تر قط أناسًا أبعد عن الجاذبية واللياقة

---

(١) الروكوكو نوع من الحلية شاع في عهد لويس الخامس عشر وأوائل عهد لويس السادس عشر ويطلق أحيانًا على كل حلية انقضى زمان شيوعها.

(٢) فرا أنجلو أو جيوفاني دافيزولي أو مصور الملائكة (١٣٨٧– ١٤٥٥) مصور توسكاني أشتهر ببراعته في تدبيج ألوانه.

من زميلاتها الضيفات. وكانت امرأة ذات حاجبين أسودين تشيد بالوطنية وتهيب بالسياح الإنجليز أن يزجوا إلى الشعوب الأجنبية جبهة متحدة، وطفقت امرأة أخرى تنوح نوحًا خافتًا متقطعًا ك "حنفية" تقطر فلا قطر أنها تتصل ولا هي تتوقف، وظلت تتذمر من الطعام والأثمان والضوضاء والسحب والتراب. وقالت إنها تحب المجيء إلى هنا ولكنها قلما تحبذ لأصحابها الحضور، إذ أن هذا هو نوع الفنادق الذي ينظر إليه المرء مثل هذه النظرة. والذكور هنا يندر عددهم ويكثر الإقبال عليهم. وقد أخذ أحد الشباب يصف –بين نوبات من الضحك– الوسائل التي اتخذها ليبهر الأهلين.

كانت مس ريبي جالسة قبال الصورة الشهيرة المرسومة على الحائط، وهي الحلية الوحيدة التي تزين الغرفة. وقد كشفت تلك الصورة في أثناء إجراء بعض الإصلاحات، وظلت ألوانها مشرقة مع ما لحق سطح الجدار من عطب. وكانت السنيورة كانتو تنسب الصورة تارة إلى تيتان وطورًا إلى جيوتو، وصرحت بأن أحدًا لا يستطيع إيضاح معناها، وقد حار في ذلك الأساتذة وأهل الفن دون جدوى. قالت هذا إذ كان يسرها قوله، وكان المعنى واضحًا كل الوضوح وقد فسر لها مرارًا وتكرارًا. وتمثل هذه الأشكال الأربعة عرافات تزجين نبوءات عن مولد السيد المسيح. ولم يعرف أحد على وجه التحقيق الدافع الأصيل إلى نقشها على مكان من الجبل عال جدًا عند أبعد تخوم الفن الإيطالي. ومهما يكن فقد أضحت الصورة مصدرًا للمحادثة لا يقوم بثمن. وقد أدى وجودها على الحائط، بصفة وقتية، إلى بدء التعارف وإلى تفادي الجدل.

قالت سيدة أمريكية في إثر لمحة عين من مس ريبي "ما أخبث أولئك القديسات!".

وتمتم والد السيدة بشيء عن الخرافة. وكان هذان الشخصان مكتئبين وكانا عائدين من الأرض المقدسة حيث خدعًا خدعة مخزية وحيث لقي موقفهما الديني حرجًا من أجل ذلك.

قالت مس ريبي في نغمة هي أقرب إلى العنف إن القديسات عرافات.

فأجابت السيدة بقولها: "ولكني لست أتذكر وجود عرافات "لا في العهد الجديد ولا في العهد القديم"".

وقال الأب مكتئبا "بدع من القساوسة يخدعون به القرويين ... تمامًا كما في كنائسهم: بهرج على أنه ذهب، وقطن على أنه حرير، وبياض المصيص على أنه مرمر ... تمامًا كما في

مواكبهم "وتلفظ هنا بألفاظ من السباب" وأبراج كنائسهم".

فقالت السيدة متكئة إلى أمام "أبي. إنه يكابد من السهاد. تصوري إنه يدق الجرس في السادسة من صباح كل يوم!".

"نعم يا سيدتي، أنتما تنتهزان فرصة وجود الجرس وتسيئان استعماله، ولذلك وقفناه".

فصاحت مس ربي قائلة "هل وقفتم دق الأجراس في الساعات المبكرة من الصباح؟".

وتطلع الناس ليعرفوا من تكون. وهمس أحدهم بأنها كاتبة.

فأجاب بأنه إنما صعد كل هذه الخطوات ابتغاء الراحة، فإذا لم يظفر بها انتقل إلى مركز آخر. ولقد تعاون السياح الإنجليز والأمريكيون فضغطوا على أصحاب الفنادق كي يجدوا في العمل. وعندئذ دق القساوسة جرس العشاء وكان في الطاقة احتماله، وقد اعتقد أن "التعاون" قد يأتي بنتيجة وكذلك كانت الحال مع القرويين.

فاستفهمت مس ربي وقد أخذت تنفعل انفعالًا شديدًا وبدأ جسدها كله يرتعد: "كيف تدخل السياح في شئون القرويين؟".

"هذا الكلام عينه قلناه. أتينا للراحة وسنظفر بها. إنهم في كل أسبوع يسكرون ويغنون حتى الثامنة صباحًا، أفتلك خطة مثلي يحسن إتباعها دواما؟".

قالت مس ربي "أتذكر أن بعضهم سكر فعلًا ولكني أتذكر أيضًا كيف غنوا".

فقال مجاوبًا "هو ذاك. حتى الثانية".

وتفرقا غاضبين ... وتركته يدافع عن ضرورة ابتداع دين عالمي خاص بالهواء الطليق. وقد وقفت فوق رأسه العرافات الأربع الجميلات الصورة مع ما هن عليه من سماجة وغلظة –تقدم كل منهن رفعة دون فيها وعد موجز بالغفران. ولئن أصبحت الديانات القديمة لا تكفي الإنسانية فإنه يبدو من غير المحتمل ابتداع دين جديد في أمريكا.

وكان الوقت أكثر بكورًا من أن يسمح لها بالزيارة التي عزمت على أدائها للسنيورة كانتو، كما أن إليزابيث لم تكن إذ ذاك بالرفيق الذي تستحب مصاحبته، وذلك نظرًا لأنها كانت خشنة في الليلة البارحة ولأنها الآن نادمة ندمًا متعبًا. وكان خارج الدار بضع موائد جلس حولها نسوة يشربن البيرة، وقد أظلتهن أشجار قسطل مشذبه وفصلهن عن شارع المدينة سور خشبي

واطئ. فوقفت عليه مس ربي لتتسنى لها رؤية برج الجرس. وإن العين النقادة لتستطيع أن تتبين أخطاء كثيرة في هندسة بنائه. إلا أنها كانت تنظر إليه في سرور متزايد يخالطه قدر من عرفان الجميل.

وجاءت النادلة الألمانية وأشارت عليها في أدب بأن تجد لنفسها مقعدًا أبعث للراحة، إذ أن ذاك هو المكان الذي تأكل فيه الطبقات الدنيا، فهلا تتفضل بالذهاب إلى قاعة الاستقبال؟.

"لا، شكرًا. منذ كم سنة تصنفون ضيوفكم تبعًا لمولدهم؟".

فأجابت المرأة المدهشة "منذ سنوات عدة ولم يكن من ذلك بد". وعادت إلى الدار مكتنزة ذكية. وهذا من العلامات الكثيرة على أن التيوتوني بن اللاتيني في هذا الوادي القابل للأخذ وللرد.

وخرجت من بعدها امرأة رمادية الشعر تظل عينيها من الشمس وتطقطق بالمورننج بوست "جريدة الصباح اللندنية". ونظرت إلى مس ربي مسرورة، ونفضت أنفها، واعتذرت عن أنها بدأتها بالكلام وتكلمت كما يلي:

"لا أدري هل تعرفين أن فرقة موسيقية تعزف في هذا المساء للمساعدة في تلوين زجاج نوافذ الكنائس. فهل أهيب بكم أن تبتاعوا تذاكر؟". ومن المهم –كما قيل– أن يقبل الشعب الإنجليزي على لم الشعث. أليس كذلك؟".

فقالت مس ربي "مهم جدًا، على أن يكون ذلك في إنجلترا".

وابتسمت السيدة الرمادية الشعر، ثم بدت عليها الحيرة. ثم أدركت أنها أهينت. وطقطقت بالمورننج بوست ثم انصرفت.

وقالت مس ربي لنفسها: "لقد قسوت، قسوت على سيدة حمقاء رمادية الشعر مثلي. هذا يوم ما كان يجب أن أتحدث فيه إلى الناس".

لقد كانت حياتها موفقة، سعيدة في جملتها. وهي لم تألف تلك الحالة النفسية التي يسمونها الاكتئاب والتي تصور آفاقًا أوسع وإن تكن أقتم. وفي ذلك الصباح تغيرت طلعتها ومشت عبر القرية، ولم تكد تلقى بالًا إلى الجبال التي ما برحت تحيط بها أو إلى إشراق شمسها الذي لم

يتبدل. ولكنها ألقت بالها تمامًا إلى جديد ألا وهو الفساد الذي يفوق الوصف والذي نجم عن مرور عدد كبير من الناس.

وحتى في ذاك الوقت كان الجو مثقلًا باللحم والشراب يضاف إليهما التراب ودخان الطباق "التمباك" ورائحة الخيل. وكان سفح جدار الكنيسة يعج بالمركبات، وتحت برج الجرس كانت امرأة تحرس صفًا من الدراجات. وكان الموسم سيئًا بالنسبة لصعود الجبل. فكنت ترى جماعات من الشبان المرتدين بذلات نورفولك الأنيقة يتسكعون مصعدين منحدرين ينتظرون أن يستأجرهم الناس بوصفهم أدلاء. وقام أمام مكتب البريد فندقان رخيصان امتد أمامهما عدد لا يحصى من الموائد الصغيرة حتى بلغت الشارع. وهنا ظلت الناس تأكل منذ ساعة مبكرة من الصباح وستظل تأكل حتى ساعة متأخرة من الليل. والزبائن –ولا سيما الألمان منهم– ينعشون أنفسهم بالصياح والضحك وهم يطوقون خصور زوجاتهم. ثم قاموا متثاقلين وانصرفوا في صف مفرد صوب مكان على مرمى النظر يخفق فوقه علم أحمر يشير إلى مكان تناول وجبة طعام أخرى. ولقد كان السكان جميعًا يستخدمون حتى صغار فتياتهم اللائي يضايقون الأضياف لكي يبيعوهم بطاقات مصورة وأزاهير بيضاء من جبال الألب، إذ انتشرت في فورتا تجارة السياحة.

تنبغي لكل قرية تجارة ما، وقد توفرت هذه القرية في كل وقت على الحيوية والإقدام الكاملين. وقد أوجدت طاقاتها الباهرة، وهي السعيدة المجهولة الشأن، عمل هو في المكافحة ابتغاء الرزق من الأرض، وبذلك تولد شيء من الكرامة والإيناس وحب الآخرين. ولم تضعف المدنية تلك الطاقات بل حولتها فبادت كل المناقب الفاخرة التي كان من شأنها أن تسهم في إبراء العالم من أسقامه. فذهب حب الأسرة وحب المجتمع والفضائل الروحية الطاهرة بينما بنى برج الجرس الذي كان ينتظر أن يجمعهم. وما هذا بفعل نذل وإنما فعله السيدات والسادة الذين اتصفوا بالكياسة والإيناس وغالبًا بالحذق، والذين ظنوا –لو أنهم فكروا في الأمر على الإطلاق– أنهم إنما يجلبون، لأي مكان يختارون النزول فيه، منافع أدبية ومادية.

ولم تتنبه مس ريبي قط من قبل إلى إساءات شاملة كهذي. فلقد عادت إلى البسكيوني محطة مضناة متذكرة النص المروع الذي فيه كثير من مظاهر العدالة "ويل لمن تأتي بوساطته العثرات".

كانت السنيورة كانتو –وهي أقرب ما تكون إلى شدة الاهتياج– ترقد في حجرة مظلمة

عارية الجدران بالطبقة الأرضية. ذلك أنها وضعت الأشياء الجميلة في غرف أضيافها الذين أحبتهم كما قد تحب الملكة الطيبة رعاياها. وكانت تلك الجدران قذرة أيضًا لأنها حجرة السنيورة كانتو نفسها. غير أن غرفة ما لم تحو مثل هذا السقف الجميل، فمن روافده الخشبية يتدلى ما يساوي "بائنة" من الأواني النحاسية –كالدلاء والدسوت وأباريق الماء– من كل لون، من الأسود اللامع إلى الوردي الأشد ما يكون تشربًا باللون الزعفراني. وكان من دواعي سرور السيدة العجوز أن تسمو ببصرها إلى أمارات الترف هذي. وقد سافرت سيدة أمريكية من دون تلك الأواني، حائرة أكثر منها غاضبة.

ولم يكن بين السيدتين من أوجه الشبه إلا القليل، إذ أن السنيورة كانتو كانت أرستقراطية متزمتة. ولو كانت من عظيمات القرن العظيم "الثامن عشر" لأسرعوا بها إلى المقصلة ولزعقت، إذا ذاك، مس ريبي محبذة. والآن عمدت –بشعرها الشحيح الملفوف بالورق المحوي وشالها النشوقي اللون الذي يغطيها– إلى الترحيب بالمؤلفة الممتازة بأخبار القوم الممتازين الآخرين الذين نزلوا في البسكيوني وقد يعاودون النزول فيه. وكانت نغمتها، أول الأمر، نغمة وقورًا. ولكنها –قبل أن ينقضي طويل وقت، انتقلت إلى أخبار القرية. وهنا بدأ يلوح في حديثها شيء من المرارة. إذ أخذت تذكر الوفيات بلون من الاعتزاز الحزين. وبما أنها، هي نفسها، عجوز فقد كانت ترتاح إلى التأمل في عدالة القدر الذي لم يبق على معاصريها والذي كثيرًا ما عدا على من هم أصغر منها سنًا. ولم تألف مس ريبي استخلاص مثل هذا العزاء إذ كان يسرها أكثر من هذا –وإن أخذت هي الأخرى تتقدم في السن– أن يبقى للآخرين شبابهم. وكانت تذكر جيدًا القليلين من أولئك الناس، غير أن الوفيات في نظرها كانت رمزية تمامًا مثلما قد يرمز موت زهرة إلى انقضاء الربيع بأكمله.

ثم أخذت السنيورة كانتو تسرد النوائب التي ألمت بها قبل مبتدئة بتفاصيل انهيال في الأرض أتلف ضيعتها الصغيرة. والانهيال لا يعجل أبدًا في هذا الوادي. فتجد الماء يتجمع تحت قشرة الأرض المخضرة بالعشب، تمامًا كما قد يتكون الدمل تحت الجلد. ثم تتكون على المرجة المائلة كتلة، ثم تنفق تلك الكتلة وتفرغ جدولًا من الطين والحجارة بطيء الانسياب. ثم يلوح المسطح كله وقد أدركه التلف. ففي كل ناحية يتصدع الكلأ ويزدوج على هيئة غضون غريبة الشكل، ويعوج الشجر وتنهار الأنبار "مخازن الغلال" والدور، ويتحول الجمال كله تدريجًا إلى

عجينة لا سبيل إلى تمييز ما بها، وتنزلق العجينة منحدرة حتى يكتسحها جدول ما.

وانتقلا من الضيعة إلى غيرها من صنوف الأذى التي ألمت بها. فانقبضت مس ريبي إلى درجة لم تستطع معها العطف على السنيورة كانتو. وكان الموسم سيئًا، فالنزلاء لم يفهموا أساليب الفندق، والخدم لم يفهموا النزلاء. وقد طلب إليها أن تعين أمينًا للفندق ولكن ما جدوى الأمين؟

فقالت مس ريبي مستشعرة أن أي أمين أن يستطيع إطلاقًا أن يأتي للبسكيوني بالتوفيق "ما أستطيع أن أكون رأيًا".

"يقولون إنه سيستقبل مركبة الركاب ويصيد الوافدين الجدد، ولكن أي سرور ذاك الذي يداخلني من نزلاء أصيدهم؟".

قالت مس ريبي في نفخة حزينة: "الفنادق الأخرى تصنع هذا".

"بالضبط. رجل يهبط من الألب يوميًا".

وخيم صمت غريب. وقد تنكبا إلى هنا ذكر هذا الاسم".

واستأنفت الكلام وهي تكاد تنفجر من الانفعال، قالت: "إنه يأخذهم جميعًا. ولدى يأخذ كل نزلائي. فلقد أخذ كل أعيان الإنجليز وأحسن الأمريكيين وجميع قدامى أصحابي الوافدين من ميلانو. وهو يفترى على في كل مكان قائلًا إن المجاري سيئة. وأصحاب الفنادق لا يدلون النزلاء على بل يحولون عليه هو من نريد منهم. ذلك لأنه ينقدهم خمسة في المائة مما يدفعه كل واحد يرسلونه إليه. وهو يرشو السائقين والبوابين والأدلاء كما يرشو الفرقة الموسيقية لكيلًا تعزف –تحت– في القرية إلا لماما. وهو يمعن في الرشوة فينقد الصبيان لكي يذيعوا أن مجاري فندقي سيئة. وإنما يقصد، هو وزوجه وأمين فندقه، إلحاق الخراب بي. وإنهم ليتمنون موتى".

وأخذت مس ريبي تجول في الحجرة وتنطق –على عادتها– بما هو حق أكثر مما تنطق بما هو واضح. قالت: كلا لا تتحدثي في هذه الأشياء ياسنيورة كانتو، وحاولي أن تخففي من غضبك على ولدك فأنت لا تعرفين ماذا عليه أن ينافس ولا تعرفين من الذين دفعوه إلى هذا. وقد يكون غيره من يستحق اللوم. وستذكرينهم في صلواتك كائنين من كانوا".

فهتفت العجوز الغاضبة "أنا مسيحية بطبيعة الحال! غير أنه لن يستطيع أن يلحق بي

الخراب. نعم، أنا أبدو فقيرة ولكنه اقترض فوق طاقته، وسيفلس فندقه!".

واستأنفت مس ريبي الكلام قائلة: "قلا لا يوجد في الدنيا شر كثير. وإن أغلب ما نرى منه ليس إلا نتيجة لأخطاء صغيرة مصدرها الغباء أو الغرور".

"بل إني أعلم من الذين دفعوه إلى هذا: زوجته والرجل الذي أصبح الآن أمين فندقه".

"وهذه العادة، عادة الكلام والتعبير عما في نفس المتكلم، تبدو مريحة ولا سبيل إلى الاستغناء عنها ... ولكنها تضر ...".

وقطعت حديثهما جلبة آتية من الشارع. وفتحت مس ريبي النافذة فدخلت منها سحابة من تراب مثقلة بالبنزين، إذ أن سيارة احتكت في أثناء مرورها بإحدى الموائد وأريق كثير من البيرة وقليل من الدم.

وتنهدت السيدة كانتو متبرمة من الجلبة، وقد أضناها سوء حالتها النفسية فرقدت فاقدة الحركة مطبقة العينين. وخشخشت فوق رأسها في رفق –مع لفحة الريح المفاجئة– آنيتان من نحاس. وأوشكت مس ريبي أن تنطق باعتراف دراما تيكي عظيم وأن تتوسل توسلات مؤثرة ابتغاء الصفح. وكانت كلماتها جاهزة، وهي كذلك دائمًا. ولكنها نظرت إلى هاتين العينين المطبقتين وإلى هذا الإطار المعذب الموهن ثم عرفت أنها ليست في حل من أن تحظى بنعمة الصفح.

وخيل إليها أن حياتها –بهذه المواجهة– قد انتهت. لقد صنعت كل ما أمكنها صنعه، لقد صنعت شرًا كثيرًا ولم يبق لها إلا أن تطوي يديها وتنظر حتى يتخذ قبحها وعجزها سبيلهما إلى الجمال والقوة. وطلع أمام عينيها الوجه البهيج للعميد ليلند الذي قد تختم معه أيامها بسلام. نعم إنه لن يكون مثيرًا ولكن لم يبد أنه لإثارتها أية أهمية. والخير في أن تتوقف مواهبها إذا أخذ نشاط عقلها الخالي من المعنى ونشاط لسانها في التبلد التدريجي وراودتها –أول مرة في حياتها– الرغبة في أن تصبح عجوزًا.

وكانت السنيورة كانتو ما تزال تتحدث عن زوج ابنها وأمين فندفه وعن سوقية الأولى وجحود الثاني الذي أحسنت إليه من قديم عندما جاء من إيطاليا صبيًا نكرة هائمًا على وجهه. لقد عاداها الآن، وهذا جزاء الإحسان.

واستفهمت مس ربي شاردة الذهن "وما اسمه؟"

فأجابت "فيو جينوري. ليس في استطاعتك تذكره. لقد اعتاد أن يحمل–".

وانفجر من برج الجرس طوفان من الصوت استجابت له الأواني النحاسية بالاهتزازات. ورفعت مس ربي يديها، لا إلى أذنيها بل إلى عينيها. وفي حالتها الموهنة كان لنغمات الجري الخفاقة تأثير عجيب كالذي يحدثه الدم يجري في العروق المتجمدة.

وقالت آخر الأمر "أتذكر هذا الرجل أيما تذكر وسأراه عصر اليوم".

-٣-

جلست مس ربي وإليزابث معًا في بهو فندق الألب، وقد مشتا إليه مصعدتين من البسكيوني لتلقيا العميد ليلند، واتضح أنه مشى منحدرًا إلى هناك ليلقاهما. فلم يسعهما إلا الانتظار وإلا أن تبررا هذا الانتظار بطلب شيء منعش. وعلى هذا تناولت مس ربي شاي العصر بينما تصرفت إليزابيث تصرف السيدة الكاملة وطلبت حليبًا مثلوجًا. وكانت كلما آنست أن أحدًا لا يراها تقلب الملعقة في فيها بطنا لظهر. واخذ مساعدو الندل يرفعون الأقداح والأكواب من فوق الموائد المغطاة بالمرمر، كما أخذ الموظفون –الذين تحليهم الأشرطة الذهبية– يعيدون تصفيف الكراسي المصنوعة من القش في تجمعات بديعة ثلاثية أو ثنائية. وتلكأ الزبائن هنا وهناك بين ما خلفوا من فتات، ونام الأمير الروسي في وضع ظاهر مستهجن. وكان أغلب الناس قد انصرفوا إلى نزهة قصيرة على الأقدام في فترة ما قبل العشاء أو إلى ملاعب التنس أو حملوا كتبًا يقرؤونها تحت الشجر. وكان الجو مبهجًا والشمس آخذة في الزوال بحيث أمسى ضوؤها روحانيًا يوحي بمادة جديدة ولون جديد على كل شيء يقع عليه. وتسنى لمس ربي من مقعدها أن ترى المهاوي الكبيرة التي مرا من تحتها في اليوم البارح كما استطاعت أن ترى –على مبعدة من تلك المهاوي– إيطاليا: وأدى أبريلي.. وادي سينيز ... والجبال التي أسمتها "دواب الجنوب". وكانت هذه الجبال لا يؤبه لها طوال النهار، كأنها قطع نائية من الحجر الأبيض أو الرمادي. غير أن شمس الأصيل بدلت من هيئتها فبدت تنتصب كالدببة الأرجوانية تلقاء السماء.

"حرام ألا تخرجي للنزهة يا إليزابيث. فتشي عن صديقتك إذا استطعت واحمليها على

الخروج وإياك، وإذا رأيت العميد ليلند فخبريه أنني هنا".

"أهذا كل شيء يا سيدتي؟". كانت إليزابيث مغرمة بسيدتها الغريبة الأطوار، وقد ألان الحليب المثلوج قلبها، فبدت لها مس ربي سقيمة. ومن المحتمل لأن يكون تيار الحب قد شق مجراه في عنف. ولا ريب في أنه تنبغي للمهذبين معاملة لبقة ولا سيما عندما يكون الطرفان منسجمين.

"لا تعطي الأطفال بنسات. هذا هو الشيء الآخر الوحيد".

غاب الأضياف عن النظر، وتجلى أن عدد الموظفين نقص نقصًا كبيرًا وطلع من البهو الخلفي الهانفان"[1]" اللذان هما أخس مخلوقين وهما شابة وراء المكتب وشاب يلبس الفراك "سترة رسمية سوداء لها ذيل" يقود القادمين الجدد إلى غرفهم، ولحق بهما بعض الحمالين ووقفوا على بعد مناسب. ولم يبق في البهو –آخر الأمر– غير مس ربي والأمير الروسي وأمين الفندق. وكان الأمين أوربيًا كفئًا في نحو الأربعين من العمر، يتكلم كل اللغات في سهولة ويتقن بعضها، وهو ما يزال نشيطًا، وكان في يوم ما مفتول العضلات فيما يبدو. غير أن معيشة وسنه لم ينصفا قوامه، وسيصبح –يقينًا– بدينًا بعد سنوات قلائل. وكان التعرف على وجهه أقل سهولة، إذ قد شغله عن الاهتمام بنفسه أداء واجبه على الوجه الأكمل، ولم يكن ذلك الوقت وقت الكشف عن النفس. وقد توزع جهده بين فتح النوافذ وملء علب الكبريت وتنفيض المناضد الصغيرة بفوطة، على ألا يغفل هنيهة عن مراقبة الباب لعل أحدًا أن يصل من دون أمتعة أو أن يخرج من دون أن يسدد الحساب. ومس جرسًا صغيرًا فخف أحد الندل ورفع معدات الشاي الذي شربته مس ربي. ومس جرسًا آخر وأرسل تابعًا يجمع قصاصات الورق التي ألقى بها من نافذة إحدى غرف النوم. ثم قال "معذرة يا سيدتي!" ولقط منديل مس ربي في انحناءة احترام بسيطة. وبدأ أن انتقالها المفاجئ من هذا الفندق في الليلة البارحة لم يحفظ صدره عليها. وذلك إما لأنها نفحته إذ ذاك بحلوان وإما لأنه لا يتذكر أنها كانت هناك.

أما الإيماءة التي بها أعاد إليها المنديل فقد ضايقتها بذكريات غامضة. وقبل أن تشكره عاد إلى فتحة الباب ووقف مجانبًا بحيث ظهر إجمالًا في المنظر العام خط تقوس معدته البسيط. وكان

(1) الهاتف من يضحك في استهزاء.

وقتئذ يحدث شابًا رياضيًا مكتئبًا يتبرم في الرواق بالخارج، وقد سمعته يقول له: "طالبتك بالنسبة المئوية، ولو أنك أذعنت لأوصيت بك خيرًا. أما الآن فقد ضاعت الفرصة ولدي ما يكفي من الأدلاء".

على أن سخاءنا يفيد من الناس أكثر ممن نقدر. فنحن ننفح سائق المركبة بحلوان وهو يعطي شيئًا إلى الرجل الذي يصفر لاستدعائه، وننفح الرجل الذي يضيء كهف الرواشح"[١]" بسلك من المجنيزيوم وهو يعطي منه شيئًا إلى البحار الذي يوصلنا إلى هناك، وننفح نادل المطعم بحلوان. وإن نظامًا عظيمًا كهذا يقتطع بعضه من كرائه –لا نكاد نحن نفطن إلى وجوده– هو الذي يهيئ لتوزيع ثرواتنا. ولما عاد أمين الفندق استفهمت منه مس ربي. "وما مقدار النسبة المئوية؟".

ولقد استفهمت منه عن ذلك عامدة متعمدة أن تربكه، لا لقسوته بل لأنها تود أن تستبين المناقب –إن وجد منها شيء– التي تكمن وراء ذلك الذي يبدو في مظهره أنيسًا هماما. وكانت تدفعها إلى هذه العاطفة أكثر مما يدفعها البحث العلمي.

ولو كان هذا الرجل متعلمًا لأفلحت في محاولتها إذ أنه، في إجابته، لابد من أن يفصح بعض الإفصاح. ولكن ليس ثمة ما يدعو أمين الفندق إلى أن يزجي للمنطق خدمة شفوية. ولذا أجاب عن سؤالها بقوله "أجل يا سيدتي هذا طقس مناسب جدًا سواء لزوارنا أو للدراس" وخف من فوره إلى عون مطران كان يتخير بعض بطاقات البريد.

وبدلًا من أن تتحدث مس ربي عن الأخلاق في صدد مكر الطبقات الدنيا، اعترفت بالهزيمة. وذلك بعد أن رقبت الرجل يبسط البطاقات، معينًا في غير إزعاج يقظًا في احترام، ومراقبته وهو يحمل المطران أن يشتري منها أكثر مما كان يبتغي. هذا هو الرجل الذي حدثها فوق الجبل عن الحب، غير أنه لم يكشف حتى ذلك الوقت عن شخصيته إلا اتفاقًا بمقتضى حركات انتقلت إليه بالوراثة. وإن معاملة الطبقة المهذبة لتقتضي إبراز مناقب جديدة كالرقة والإلمام بشتى الأمور ورباطة الجأش. وكانت الإجابة القديمة فحواها أن الطبقة المهذبة هي المسئولة وأن تحمل تبعة أخطاء الغير واجب يجدر السعي إليه.

([١]) المقصود هنا الرواسب الكلية المدلاة من سقوف بعض المغاور والكهوف بأشكال مخروطة.

ولا محل لمؤاخذة فيو على كلفه بالدنيا وتبذله الفطرة فهو لم يصنع نفسه. ولا محل أيضًا للأسف على تحوله من القوام الرياضي إلى البدانة المكتنزة الشحم، ولا على خصلة الشعر السوداء، التي تتحوى دون موضع القبلات منه ولا على شاربه الشمعي، ولا على ذقنه التي تغور ثم ينتشر، وفي إنجلترا منذ نحو عشرين سنة غيرت من هذا الشكل كما غيرت شخصيته أيضًا، إذ انه كان واحدًا من شخصيات "اللحظة السرمدية".

وتسلط عليها حنان عظيم وكآبة عميقة واشتعل من جديد ذلك التطلع الملح إلى الاعتراف الذي كتبته في ذلك الصباح بجوار فراش السنيورة كانتو. فلما انصرف المطران استأنفت الحديث وإن وجهته وجهات أخرى. قالت: "أجل، الجو جميل، وأنا آتية لنوى من نزهة ممتعة على قدمي من البسكيوني الذي أقيم فيه!".

ولما رأى أنها ترحب بالحديث أجاب مسرورًا –بقوله "لا بد من أن يكون البسكيوني فندقًا طريفًا جدًا، وكثيرون هم الذين يطرونه، والتصاوير التي على جدرانه بالغة الجمال". لقد كان أدهى من أن يضن بصدقة زهيدة.

فقالت مخفضة صوتها لكيلًا توقظ الأمير الذي يثقل حضوره عليها بصورة عجيبة "ما أكثر عدد الفنادق الجديدة هنا!".

"أجل يا سيدتي، أعتقد ذلك يقينًا. وعندما كنت صبيًا –عفوك– لحظة واحدة".

وأتت فتاة أمريكية –وفدت حديثًا على المنطقة– ويدها مليئة بالعملات الأجنبية وسألته يائسة عن "قيمتها كائنة ما كانت". فأفهمها ونقدها البديل على أن مس ريبي لم تستوثق من أنه أعطاها القدر المضبوط.

"عندما كنت صبيًا" وقطع حديثه مرة أخرى ليخف إلى تخليص ضيفين راحلين. نفحة أحدهما بحلوان فقال "شكرًا". ولم ينفحه الثاني فقال كذلك "شكرًا". ولكن بنغمة أخرى. وكان واضحًا أنه، إلى هنا، لم يتذكر مس ريبي.

"وعندما كنت صبيًا كانت فورتا بقعة صغيرة".

"ولكنها بقعة مبهجة؟".

"مبهجة جدًا يا سيدتي".

فقال الأمير الروسي الذي صحا فجأة وأفزعهما كليهما "أف". وخبط على قبعته المصنوعة من اللباد، وزايل في أقصى سرعة يستطيعها شخص يمارس الرياضة البدنية، وترك مس ريبي وفيو وحدهما.

وكان ذلك هو الوقت الذي فيه توقفت عن التردد وأزمعت تذكيره بأنهما تقابلا من قبل. ولقد كانت طوال اليوم تتلمس شرارة من الحياة لعلها تذكرها بشيء عن النار الأخرى التي شهدتها هي، منذ ذلك العهد البعيد، سامقة فوق جبل الشباب. ولم تعرف ما عساه أن يصنع إذ شهدها هو أيضًا. غير أنها أملت أن يحيا وأن يفلت –على أية حال– من المصير العام الذي أعدته من قبل للمكان والناس. وهي لم تفكر في شيء ما حتى فيما قد تصنعه خلال تأملهما المشترك.

على أنها لم تكن لتجرؤ على العود إلى الذكريات لولا أن الآلام التي كابدتها طوال اليوم جعلتها تقوى على ذلك. واصطناع اللياقة بعد الألم الكثير تبعث على الضحك. وكان عليها فقط أن تتغلب على مشكلة كون فيو رجلًا لا على مشكلة كونه أمين فندق. وهي لم تنتبه قط إلى ذلك الاستعلاء على من هم أدنى اجتماعيًا، الذي شائعا في الوقت الحاضر.

فقالت في جسارة "هذه زيارتي الثانية، فلقد نزلت في البسكيوني منذ عشرين سنة".

فظهرت عليه أولى أمارات الانفعال لأن هذه الإشارة بالذات إلى البسكيوني ضايقته.

واستأنفت مس ريبي الكلام قائلة "قالوا لي إنني أستطيع أن أجدك هنا. وأنا أتذكرك جيدًا، فلقد كنت تقودنا إلى المعابر".

وتعمدت مراقبة وجهه الذي لم تكن تتوقع له أن يسترخي في ابتسامة عريضة، وقال وهو يرفع قبعته المستدقة "آه"، أتذكرك تمامًا يا سيدتي. وإني لأقول –إذا سمحت لي– "ما أكبر سروري بلقائك مرة أخرى".

فأجابت السيدة وهي تنظر إليه مرتابة "وأنا مسرورة كذلك".

"كانت معك يا سيدتي – سيدة أخرى، الآنسة–".

"السيدة هاربوتل".

"ولكن تثبتي أقول لك إنني حملت أمتعتكما. ولطالما ذكرت فضلكما".

ورفعت بصرها إلى أعلى، وكان هو واقفًا إلى جوار نافذة مفتوحة، وامتدت من خلفه أرض الجن جميعًا وحانها التعقل فقالت متودده "هل تسيء فهمي إذا قلت لك إنني –أنا أيضًا– لم أنس فضلك قط؟".

فأجاب "الفضل فضلك أنت يا سيدتي. أما أنا فلم أزد على أداء واجبي". فهتفت "واجب؟ وما شأن الواجب؟".

"أنت ومس هاربوتل كنتما آية في الكرم. وإني لأتذكر جيدًا كم كنت معترفًا بجميلكما إذا كنتما دوامًا تنفحاني بما يزيد على "التعريفة" المحدودة–".

وهنا أدركت أنه نسى كل شيء: نسيها هي، ونسى ما حدث، بل نسى حاله صغيرًا.

وقالت في برود "أمسك عليك تأدبك. أنت لم تكن مؤدبًا عندما رأيتك آخر مرة".

فانزعج فجأة وصاح قائلًا "آسف كل الأسف".

"استدر وانظر إلى الجبل".

"نعم نعم". ورمشت عيناه الماكرتان في اضطراب. وأخذ يتسلى بسلسلة ساعته الراقدة في أخدود بصدرته. وجرى لينذر بضعة أطفال يرتدون ملابس رثة كي ينجلوا عن الشرفة المطلة على المنظر الجميل. وعندما عاد كانت ما تزال مضرة على ما سبق.

وقالت في نغمات كنغمات أصحاب الأعمال "ينبغي لي أن أخبر. أنظر إلى الجبل العظيم الذي تحيط به الطريق هابطة إلى الجنوب. أنظر إلى منتصف أعلى المسافة من الجانب الشرقي حيث توجد الأزهار. ذلك هو المكان الذي فيه بحت بسرك".

وفغر فاه من الرعب.. وتذكر.. وعصره الفزع.

وكانت تلك هي اللحظة التي عاد فيها العميد ليلند، فمشت إليه قائلة: هذا هو الرجل الذي تحدثت عنه أمس".

فأجاب العميد ليلند في شيء من الجلبة: "طاب مساءك، أي رجل؟" ورأى في وجهها حمرة الاهتياج وخلص إلى أن شخصًا ما قسا عليها. وبما أن العلاقة بينهما تكاد تكون غير عادية فقد زاد اهتمامه بأن تحاط بمظاهر الاحترام.

"الرجل الذي أحبني وأنا صغيرة".

فصرخ فيو البئيس وقد فطن لتوه إلى الشرك الذي ألقى عليه. قال: "هذا غير صحيح، وهو من نسخ خيال السيدة، وأقسم على ذلك. أنا لم أقصد شيئًا. كنت وقتئذ صبيًا، وذلك قبل أن أتعلم حسن التصرف. ووصل بي الحال إلى حد أنني نسبته، وهي التي ذكرتني به وأزعجتني".

فقال العميد ليلند "يا إلهي! يا إلهي!".

"سأطرد من عملي يا سيدتي، ولي زوجة وأطفال، سيخرب بيتي".

فصاح العميد لينلد "كفى. إنها لا تبتغي إخراب بيتك أيًا كان مرامها".

وقالت مس ربي مترفقة "لقد أسأت فهمي يا فيو".

وقال العميد ليلند في نغمات راجفة كان يريد لها أن تكون فاترة "لقد كان سوء حظنا كبيرًا لافتقاد كلٍ منا صاحبه، هلا تمشينا قليلًا قبل العشاء؟ أرجو أن تكوني باقية".

غير أنها لم تلق إليه بالها إذ كانت ترقب فيو. وكان روعه قد هدأ وأبان عن عاطفة جديدة لعلها كانت أقل وقعًا لديها. فلقد تخشب منكباه، وتكشف ثغره عن ابتسامة لا سبيل إلى مقاومتها. ولما رأى أنها تنظر إليه وأن العميد لينلد ينظر إليها غمزها بطرف عينه.

كان هذا مشهدًا شاحبًا، ولعله أبعث الأشياء التي رأتها في فورتا على الانقباض المؤنس. ولكن تأثيره عليها كان مشهودًا. فلقد أعاد أمام عينيها هيئة ذلك الرجل نفسه كما عرفتها منذ عشرين سنة، إلى حد أنها استطاعت أن تتذكر أدق التفاصيل من ملبسه وشعره والزهر في يده والكشط على معصمه والحمل الثقيل الذي أطلقه من فوق كتفيه لكي يستطيع الكلام مثلما يفعل الرجل الطليق، كما استطاعت أن تسمع صوته: لا متواقحا ولا خفرًا، لا متوعدًا قط ولا معتذرًا. بدأ يستحثها أول الأمر بالعبارات المعدة التي حفظها عن الكتب. فلما تغلغل هيامه بها أخذ يصيح، في عبارات مفككة غير متصلة، بأنه ينبغي لها أن تصدقه وأن تبادله حبًا بحب وأن تطير وإياه إلى إيطاليا حيث يعيشان إلى آخر العمر في سعادة وشباب مقيمين. وعندئذ صاحت كما يجدر بسيدة في ريعان الشباب أن تصنع وشكرته على عدم إهانته إياها. أما الآن –وهي في أواسط العمر– فقد صاحت مرة أخرى، ذلك لأن الصدمة المفاجئة والتباين أنارًا بصيرتها،

فزعقت قائلة "لا يدورن بخلدك أنني الآن كلفة بك".

ومرد ذلك إلى إدراكها أنها، الآن فقط، لا تغرم به وأن الحادثة التي جرت فوق الجبل كانت إحدى اللحظات العظيمة في حياتها وربما أعظمها جميعًا وأطولها استدامة من دون ريب، وأنها استنبطت منها وحيًا وقوة من حيث لا تدري، تمامًا مثلما يستنبط الشجر حيويته من نبع تحت سطح الأرض. ولم تعد تحسبها –بعد على الإطلاق– شبه قصة استطراديه في تطور حياتها. وإن ما وجدته فيها من حقيقة ليفوق ما لقيته في سنوات نجاحها مجتمعة وفي شتى الأعمال الكبيرة التي تلتها والتي كان من شأن تلك الحادثة أن تمهد لها. ومع كل ما توفرت عليه من حسن السلوك ومظاهر السيدات النبيلات فقد أحبت فيو ولم تحب بعده أبدًا بمثل تلك الدرجة. ولقد قادها فتى جسور إلى أبواب الجنة وإن لم تدخلها وإياه. على أن ذكرى هذا المشهد السرمدية جعلت حياتها تبدو محتملة طيبة.

وأخذ العميد ليلند، الذي جاورها، يثرثر بعبارات يحاول بها أن يجعل الموقف يبدو مألوفًا، وذلك بقصد أن يخلصها لأنه يعزها كثيرًا ولأنه يتألم كلما ترددت هي في الحماقة. غير أن ملاحظتها الأخيرة أفزعته فبدأ يفكر في أنه ينبغي له أن يخلص نفسه. على أنهما لم يمسيا الآن وحدهما إذ أن سيدة المكتب والسيد الشاب حبسا أنفاسهما وتعمدا الإصغاء. ثم إن الحمالين أخذوا يضحكون خلسة لإخفاق رئيسهم. وأذاعت سيدة فرنسية بين الأضياف الخبر السار بأن إنجليزيًا باغت زوجه وهي تغازل أمين الفندق. وفي الشرفة الخارجية لوحت أم لبناتها كي تنصرفن بعيدًا بينما كان المطران يستعد لنزهة على قدميه.

غير أن مس ربيي تناسب ذلك كله وقالت: "ما أقل ما أعرف! أنا لم أعرف قط حتى هذه اللحظة أنني أحببته ولم أعرف أن الصدفة وحدها –أو ربما الخدعة البسيطة أو المعقدة– هي التي لم تجعلني أبوح له بذلك على الإطلاق".

وكان من عادتها أن تجهر بالقول، ولم توجد وقتئذ عاطفة تقلقها أو تمنعها، وكانت ما تزال ساهمة تستعيد ذكرى نار فوق الجبال وتستغرب إشراقها وإن جعلها طول العهد أبعد من أن تحس حرارتها. وبجهرها بالقول اعتقدت –يحركها قبس من عاطفة– أنها تسهل للناس فهمها. وبدت ملاحظتها للعميد ليلند فظة إلى حد يفوق الوصف.

واستأنفت الكلام مخاطبة فيو الذي فقد في تلك اللحظة كياسته وبدأ يرتبك. قالت "ولكن تلك الأفكار الحلوة شيء عقيم أليس كذلك؟ وهي لا تكاد تكفي لأن يشيخ المرء عليها. وأظن أن من الخير أن أتنازل عن كل ما أوتيت من خيال وبراعة حديث لو تسنى لي فقط استرداد حقيقة فجة واحدة أو أمكنني تعويض شخص واحد حطمته".

فلبى قائلًا وعيناه مطبقتان "هو ذاك يقينًا يا سيدتي".

"لو أنني وسعني فقط أن أجد هنا شخصًا يفهمني وأستطيع أن أعترف أمامه لأصبحت أسعد حالا فيما أظن.. لقد صنعت شرًا كثيرًا في فورتا: فيو أيها العزيز–".

ورفع فيو بصره، وضرب العميد ليلند بعصاه الأرض المصنوعة من القوالب الخشبية المصقولة "الباركيه".

"وفكرت آخر الأمر في أن أتحدث إليك لو أمكنك فهمي ... أنا أتذكر أنك كنت معي –في يوم ما– ودودًا جدًا. ولست أجد كلمة أخرى أنعتك بها. غير أنني سبق لي أن أسأت إليك أنت أيضًا، فكيف إذن تستطيع فهمي؟".

وقال أمين الفندق –وقد أفاق قليلًا بعد أن أزمع قبل هذا وضع حد لذلك الموقف المجزع الذي عرض سمعته للخطر والذي فيه لم ينهض كبرياؤه إلا ليصدم– قال "أفهم تمامًا يا سيدتي، ولكن الذي أخطأ هو أنت. وأنت لم تلحقي بي ضررًا على الإطلاق بل، على العكس، أفدتني".

فرد الكولونيل ليلند قائلًا: "بالضبط. هذا قصارى الأمر جميعًا لأن مي ربي هي صانعة فورتا".

"تمامًا يا سيدي، إذ أنه بعد صدور كتاب السيدة وفد الأجانب، وبنيت الفنادق، وأصبحنا نحن أكثر يسرًا.. عندما جئت إلى هنا أول مرة كنت حمالًا وسوقيًا جهولًا يحمل الأمتعة عبر المعابر. وجاهدت، وأوجدت الفرص، وجاملت السياح. أما الآن!". وكبح نفسه فجأة ثم استطرد يقول "أما الآن فأنا لا أزيد على كوني رجلًا فقيرًا، وزوجتي وأولادي–".

فصاحت مس ربي وقد رأت فجاءة سبيلًا للخلاص –قائلة "أطفال! كم لديك من الأطفال؟".

فأجاب في غير حماسة "ثلاثة صبية صغار أعزاء".

"وكم عمر أصغرهم؟".

"خمس سنوات يا سيدتي".

فقالت في نغمة مؤثرة: "دعني آخذ الطفل، وسأربيه.. سيعيش بين قوم أغنياء، وسوف يرى أنهم ليسوا –كما يزعم– بالمخلوقات الخسيسة، التي تصخب دوامًا ابتغاء احترام الناس لها ورعايتهم إياها، أو التي تحاول شراءهم بالمال. إن الأغنياء أناس طيبون يقدرون على إزجاء العطف والحب ويولعون بالصدق. وإذا تجمعوا أنتجوا. سيتعلم ولدك هذا وسيحاول أن يعلمك إياه، فإذا كبر –وأراد الله به خيرًا– فلسوف يعلم بدوره الأغنياء. سوف يعلمهم ألا يكونوا حمقى مع الفقراء. وأنا حاولت ذلك شخصيًا. والناس يشترون كتبي ويقولون إنها قيمة – ويبتسمون ثم يتركونها. ولكني أعرف الحكمة التالية: ما بقيت الحماقة فإن العقم لن يقصر على الصدقات والإرساليات والمدارس بل يتعداه إلى مدنيتنا كلها".

وشق على العميد أن يصغى إلى عبارة كهذي. فقال بالفرنسية محاولًا مرة أخرة إنقاذ مس ريبي "أرجوك ألا–". بدأ هذه العبارة في خشونة ثم توقف إذ نذكر أن أمين الفندق لا بد من أن يكون ملمًا بالفرنسية، إلا أن فيو لم يكن ملقيًا باله لا إلى ليلند ولا إلى نبوءات السيدة. ذلك لأنه كان يسأل نفسه هل يستطيع أن يقنع امرأته بتسليم الغلام، وإذا استطاع فكم من المال يحق لهما أن يطالبا به مس ريبي من دون أن يصداها.

ثم استطردت تقول: "وسيكون ذلك هو كفارتي. هذا إذا وسعني أن أصنع بعض الجميل في المكان الذي ارتكبت فيه شرًا كثيرًا. ولقد سئمت الذكريات ولو أنها كانت جميلة. والآن أريدك يا فيو على أن تعطيني شيئًا آخر وهو ولد حي. سأخيرك دوامًا ولكني ما أستطيع الهروب من ذلك. ولقد تبدلت أنا كثيرًا منذ لقائنا الأول وبدلتك أنت أيضًا. وأصبحنا الآن – كلانا– شخصين جديدين. تذكر هذا لأني أود أن أسألك سؤالًا واحدًا قبل أن نفترق. ولست أرى ما يمنعك عن الإجابة عنه.. يا فيو، أريدك على أن تلقى إلى بالا".

فقال أمين الفندق وهو يوقظ نفسه من التخمينات التي كانت تدور في خلده "عفوًا يا سيدتي هل هناك ما أستطيع صنعه من أجلك؟".

"أجب بـ "لا" أو "نعم" في ذلك اليوم الذي قلت لي فيه إنك تحبني، هل كان هذا صحيحًا؟".

هل يستطيع الإجابة وهل يتذكر الآن أي شيء عن ذلك اليوم إطلاقًا، كل هذا كان محك شك. ولكنه لم يجتهد في أن يجيب إذ رأى مرة أخرى أن تهديدًا يوجه إليه من امرأة قبيحة ذابلة في منتصف العمر تحاول أن تعوض سمعته وسلام أسرته. فانكمش في اتجاه العميد ليلند وقال متهدج الصوت: "لا بد من أن تعذريني يا سيدتي. وأولى لك ألا تلقى امرأتي فهي عنيفة. إنك كريمة جدًا في صدد ولدي ولكن، لا يا سيدتي، إنما لن تسمح بذلك".

فزعق العميد وقام بحركة هجوم تتسم بالبطولة قائلًا "لقد أهنت السيدة" وسمعت من البهو الخلفي صيحات فزع وترقب، وجرى أحدهم يطلب المدير.

واعترضت مس ريبي قائلة "لن يحسبني محترمة بعد الآن". ونظرت إلى فيو الأشعث البدين العرق المنفر وابتسمت في اكتئاب لحماقتها هي لا لحماقته. ووجدت أن من العبث التحدث إليه من جديد إذ أن حديثها قد نفض عنه اقتداره وأدبه ولم يكد يبقى له شيئًا كما أنه لم يكد يترك له من صفات الإنسان أكثر مما لدى أرنب مروع. وتمتمت قائلة "يا لتعاسة هذا الرجل، فلقد أغضبته ولم أصنع شيئًا. ولكن كان بودي أن يعطيني الغلام كما كان بودي أن يجيبني عن سؤالي ولو من قبيل الشفقة. إنه لا يعرف نوع الشيء الذي يبقيني على قيد الحياة". وكانت وقتئذ تنظر إلى العميد ليلند فكشفت عن أنه قد انزعج كذلك. وكان من خصائصها أنها تقبل بكليتها على الشخص الذي تتحدث إليه وتنسى أشخاص السامعين، "لقد أغضبتك أنت أيضًا ما أشد حماقتي".

فقال العميد ليلند متجهما: "لقد جاء وقت التفكير في أمري متأخرًا".

وتذكرت الحديث الذي دار بينهما بالأمس وأدركت فحواه من فورها. غير أنها لم تعن بأن تسوق إلى العميد تعليلًا مقنعًا كما أنها لم تكن له في نفسها العطف والحنان. ولكن أمامها هنا رجل حسيب مثقف أوتي كل الأشياء التي يسمونها مزايا، يحسب أنه يتمتع بأكبر قسط من البصيرة والتهذيب والخبرة بالجنس البشري، وقد وضع نفسه في المستوى الاجتماعي مع رجل عاطل من المزايا، فقير، تردي في السوقية، قوضت الظروف ما توفر عليه صغيرًا من فضائل

وتلاشت شهامته في خدمة الأغنياء.

وإذا كان العميد ليلند قد اعتقد كذلك أنها ما تزال تحب فيو فإنها لا تكلف نفسها عناء إظهاره هو على الأمر ولا يتراءى لها أن ذلك يمكن تحقيقه.

وصدر عن الوادي –الذي أخذ الظلام يغشاه أول نغم ترنمي قوي من برج الجرس. فانصرفت عن الرجال متجهة إليه تغمرها عاطفة من الحب. غير أن ذلك اليوم لم يبلغ نهايته قبل أن يخيب كل أمل. فلقد استحث الصوت فيو على الكلام. ولما عكست الجبال الأصوات قال: "أليس هذا من سوء الحظ يا سيدي؟ لقد ذهب أحد السادة في هذا الصباح ليشاهد برجنا الجديد الجميل وتراءى له أن الأرض تنزلق من تحته وأن البرج ساقط لا محالة ... على أن الضرر لن يدركنا هنا بطبيعة الحال".

ولم يذهب كلامه عبثًا. إذ أن المشهد العاصف انتهى إلى نهاية هادئة فأجئه. وقبل أن يتنبهوا تناولت مس ريبي البديكر "دليل سياحي" وتركتهم دون أن تأتي بحركة تنم على الأسى. وفي لحظة الإخفاق التام هذي، أفاء القدر عليها بما واساها وأثلج صدرها: رأت صورة كاملة لحياتها، وأنها عاشت عيشًا حقق لها ما كانت تصبو إليه، وأحست بأنها انتصرت على الخبرة والأمور الدنيوية انتصارًا باهرًا رصينًا يكاد يفوق طاقة البشر ولا يستطيع أحد غيرها أن يتصور حدوثه على الإطلاق. وأطلت تحتها من الشرفة على ما في الوادي من جمال آخذ في الزوال صائر إلى العفاء.. ومع أن هذا لم يقلل من حبها له فقد تبدى لها الوادي بعيدًا بعدًا لا نهائيًا كأنه واد في نجم من النجوم، ولو حدث أن أصواتًا عطوفة نادتها من الفندق لما عادت. ثم فكرت: "أظن أن هذا هو التقدم في السن، وما أحسبه مروعًا إلى أقصى الحدود".

ولكن أحدًا لم ينادها. وقد ود العميد أن يفعل لعلمه أنها تعسة لا محالة ولكنها بالغت في إيذائه. ثم إنها أظهرت رجلًا من طبقة أخرى على أفكارها ولباناتها، وذلك لم يزل بمقامها وحدها بل كذلك بمقامه هو ومقام أضرابه، وكشفت للغير عن تجردهم.

ودخل القوم ليرتدوا لباس العشاء وللاستماع إلى الفرقة الموسيقية. وهجم سيل من الخدم المتحمسين –خارجين من البهو، تغص بهم الردهة كما قد يغص المسرح بمساعدي المغنين للأوبرا– معلنين قدوم المدير. وكان من المستحيل التعلل بأن شيئًا ما لم يحدث.. ستكون

الفضيحة جسيمة ولا بد من التقليل من شأنها على أحسن وجه مستطاع.

ومع أن العميد ليلند ينفر غاية النفور من لمسه الناس فقد أمسك بفيو من ذراعه ثم رفع إصبعه في سرعة إلى جبينه.

فهمس أمين الفندق: "تمامًا يا سيدي. أشكرك يا سيدي. أشكرك كثيرًا جدًا: أشكرك كثيرًا جدًا بكل تأكيد!".

الفهرس